مازن محمد

على حافة الانهيار

رواية

تشكيل للنشر والتوزيع

ضائر
t.me/twinklinga

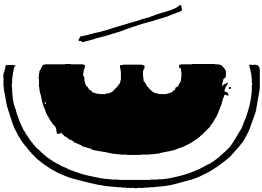

تَشكِيل للنَشر والتَوزِيع

Emailpublish@tashkeel- publishing.com
Website www.tashkeel-publishing.com
Mobile201006250473 FB/Tashkeeel

I.S.B.N : 977-978-6963-79-5

رقم الإيـداع : 30561/ 2024

تصميم الغلاف: أحمد فرج

التدقيق اللغوي : عمر جوبا

الإخراج الفني : يوسف الفرماوي

المـدير العام : سيد شعبان

جميع الحقوق محفوظة للناشر

وأي اقتباس أو تقليد، أو إعادة طبع أو نشر دون موافقة كتابية يعرض صاح-به للمساءلة القانونية، والآراء والـمادة الواردة وحقوق الملكية الفكرية بالكتاب خاصة بالكاتب فقط لا غير.

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.

المواجهة الأخيرة بينك وبين ذاك الشخص الكامن داخلك «أنت» أيضًا..!

إلى من أخبرني ذات يوم بأنني سأصبح كاتبًا رائعًا في المستقبل

ورحل عن عالمنا قبل أن يقرأ كلمة واحدة لي..

لا أعلم إن كانت ثقتك بي في محلها يا صديقي وسأكون من أفضل الكُتاب أم لا..

لكن كل ما كان يهمني أن تكون شاهدًا على تلك الخطوة ذات يوم... ولم أتوقع حينها أنها ستكون مهداة إليك..

لكونك لم تعد متواجدًا حولنا، ولكنك دائمًا في قلوبنا لن تُنسى.

إلى صديقي الراحل/ أحمد مرزوق

هنا لا أتحدث عن بطل لرواية خيالية..

إنما أتحدث عنك أنت، الشخص الذي تحمله في جعبتك، لا يعرف العالم عنه شيئًا ولا تكشفه لك سوى كلمات عابرة كتلك الكلمات، أو لحظة تنفرد بها وحدك في غرفتك ليلًا..

هنا محاولاتك البائسة للتجاوز، وحدتك وآلامك الذي لا يشعر بهما غيرك، ابتسامتك المزيفة التي يجبرك العالم على اصطناعها في كل يوم، وصمودك حتى هذه اللحظة رغم أنك مللت ادعاء الثبات.

هنا الفرص التي أهدرتها دون أن تدري، وعلاقاتك التي هُدمت دون رغبتك، والأشخاص الذين رحلوا عن عالمك تاركينك وحدك تُعاني وسط جدران غرفتك، ورسائلك التي تدونها باستمرار عمن فقدتهم وكان مصيرها النسيان.

هنا ليست رواية لإثارة إعجابك، وقصة حب تبتسم عند نهايتها، وإنما اصطدام بواقعك الأليم ومواجهة ذلك الشخص الذي تنظر له كل صباح في المرآة ويحمل ملامحك، وجسدك، وتجاعيدك، وبسمتك، ولكنك في نفسك تُوقن أن ذلك الشخص الماثل أمامك ليس أنت!

هنا المواجهة معك، والمحاولة الأخيرة قبل أن ينهار كل شيء رغم صمودك ومعاناتك التي قد تحليت بهم طوال الطريق كي لا تصل في النهاية لتلك الحافة التي أنت عليها الآن بالفعل..

هنا أنت في لحظاتك الأخيرة تقف عاجزًا أمام نفسك..

«على حافة الانهيار»..

فترى كيف سيكون آخر سطر في قصتك!

استهلال..

«سيداتي آنساتي سادتي، يسعدنا تواجدكم معنا اليوم، حيث إن هذا الحفل الثالث على التوالي في مجال الأدب مقدم من وزارة الثقافة، تشجيعًا ودعمًا للمواهب والنخبة المبدعة من الكتّاب والشعراء المصريين..

كنا قد قدمنا ذلك الحفل على مدار عامين متتاليين، شهدنا بهم صفوة من الكتاب والكاتبات المصريين المبدعين، ولكن بتصويتكم، يستقر الأمر على اختيار شخص واحد فقط كي يتوج بلقب أفضل كاتب في العام»

كان يسير «ياسين» متجهًا ومبتسمًا مصاحبًا لتلك الفتاة التي عرفها الجميع معه، والتي كانت تشاركه هذه اللحظة مثلما شاركته خطوات وبداية الرحلة التي طالت كثيرًا كي يكافئ عليها ولو عن سبيل تلك الدعوة التي تصل فقط إلى عشرة كُتاب في العام بالنيابة عن أعمالهم في العام ذاته.. بعد تصويت القراء.

جلسا سويًّا على الطاولة المحجوزة باسمه ككاتب من ضمن المرشحين لتلك الجائزة المنظمة في عامها الثالث على التوالي، لم يصدق حتى الآن، لا تختفي الابتسامة من على وجهه وكأنه عاد طفلًا صغيرًا في انتظار ليلة العيد، نظر حوله بتردد ثم وجه نظراته إليها قائلا بوهن:

- هل ذلك حقيقي يا «سارة»، أم أنني أحلم؟

لترد بابتسامتها المشرقة، وصوتها الحنون:

- لا يا عزيزي، أنت لا تحلم، بل ذلك ثمار مجهودك

وسعيك طوال تلك الفترة الماضية.

قال وما زالت ابتسامته تضيء وجهه:

ـ لا أتذكر ما هي آخر مرة ظننت بها أنني قادر على تحقيق حلمنا.

فردت بنبرة فخر واعتزاز به:

ـ الآن عليك أن تفكر فيما قد حققته، وربما يبقى إنجازًا ملموسًا بعد لحظات..

ثم ابتسمت وأردفت بكلمات كان في احتياج لها منها خصيصًا:

- أثق بك يا «ياسين»، أنا فخور بك حقًا، حتى وإن لم تفز بتلك الجائزة، يكفيني أنك فزت بها في عيني، وأنك حاولت رغم كل شيء أجبرك على التوقف.

لكل منَّا لحظات فاصلة في عمره يحتاج بها لأنْ يشعر باليد التي تدفعه للأمام، وبالكتف الذي يستطيع الاستناد عليه، كل منا في أشد الحاجة لشخص يؤمن به، وكانت دائمًا هي خير من يفعل ذلك معه بكل الحب، حتى أصبحت مصدرًا لإلهامه وقوته دون أن تدري، فقال وهو يبتسم:

ـ أعدك إن لم أفز بها هذه المرة، فسأحاول مجددًا العام القادم من أجلك.

قاطعهما صوت مقدمة الحفل قائلة بنبرة حماسية:

- والآن نعلن لكم أبرز الأعمال عن هذا العام والتي ستختارون منها أنتم بتصويتكم الأفضل بينهم..

ازداد توتر «ياسين» عندما بدأت عرض الروايات المرشحة أمامه ومن بينهم روايته في أعلى الشاشة الكبيرة المتواجدة بالقاعة، يتذكر كل شيء في عقله سريعًا، كيف كانت تجربته في كتابة هذه الرواية التي أخذت الكثير من روحه، كل موقف، وكل مشهد، وكل جملة كُتبت بعدما دفع ثمنها غاليًا كي يتقن حكمتها ويحولها لنص يسرده، لا يعلم القارئ مهما ذهب بخياله قمة معاناة الكاتب أثناء كتابة عمل له، لا يعلم ما يحدث في الكواليس، من أجل خروج عمل ملموس قد ينتهي من قراءته في ليلة وضحاها، ولكن هذا لا يمت بصلة للأيام، والأشهر، وربما الأعوام، التي استنزفت منه كي ينتج ذلك العمل كاملا مكتملًا.

وفي أثناء شروده، أعادته «سارة» مسرعة بلمسة من يديها لكي تشعره بالاطمئنان قليلًا، حتى جاء الموعد المنتظر وهو إعلان الفائز، فرفعت مقدمة الحفل صوتها معلنة عن المركز الثالث قائلة:

- وتحتل المركز الثالث رواية (اليوم الأخير) للكاتبة «...»

ضغطت «سارة» بيدها أكثر على يديه في اللحظة حينها، معبرة عن إلهامه بالثبات، بعدما شعر قليلًا بأن فرصته تتضاءل، وتعالت تحيات الحضور لصاحب المركز الثالث الذي أقبل على استلام جائزته وكانت عبارة عن قلم مطلي من الفضة الخالصة أهداه له وزير الثقافة الحاضر بالحفل ومبلغ رمزي من المال كُتب على شهادة تكريم بالبنط العريض ثم عادت المتحدثة قائلة بحماس ازداد في نبرة صوتها قليلًا:

- أما عن الرواية التي تحتل المركز الثاني فهي رواية (الحبر

الأسود) للكاتب الموهوب «....» والذي كان حاضرًا معنا العام الماضي واحتل المركز الثالث.

فتعالت تحيات الحضور مرة أخرى، وفي الوقت ذاته، ازداد توتر «ياسين» الذي شعر بأنه قد انتهت فرصته خاصة أن المتبقين معه من قامات الأدب الكبار في ذلك المجال، والمنافسة معهم في الوقت الحالي له ستنتهي بهزيمته أمامهم لا محال، فنظر إليها بخيبة أمل قائلًا:

ـ لا اعتقد أن ما زال هناك مكان لي في هذه المسابقة.

فردت وهي محتفظة بثباتها، ممسكة بيده، مبتسمه كعادتها كما عرفها وأحبها:

ـ أثق بك، فربما تكون حدوث المعجزة على بعد ثوانٍ منا، وأنت لا تدري.

فلم يشعر بأنه اطمأن، بل شعر بخيبة الأمل أكثر لأنه إن كان حجز مقعدًا من الاثنين المختارين فذلك أساس قد يستطيع المضي عليه فيما هو آت، أما الآن فسيحاول مجددًا رغم تعبه هذا العام.

وبعدما استلم صاحب المركز الثاني جائزته والتي كانت مماثلة لما قبلها، عاد صوت مقدمة الحفل يعلو بحماس أكثر والجميع في ترقب وانتظار لرؤية صاحب المركز الأول، حيث أردفت قائلة:

ـ أما عن الرواية التي تحتل المركز الأول حسب تصويتكم أنتم، هي رواية «الموطن من الممكن أن يكون شخص في يوم من الأيام» للكاتب «ياسين الشافعي» صاحب الوجه الجديد في قائمة المرشحين الليلة، وتلك المرة الأولى التي

يكون بها متواجدًا في هذه المنافسة القوية واعتلى قمتها مباشرة..

ليتعالى صوت تحيات الحضور وسط ذهول بعض منها، ومفاجأة جزء آخر لم يكن في أدنى توقعاتهم فوزه بها، وتحولت النظرات جميعًا لذلك الشخص الجالس وعلى وجهه علامات الخجل وشيء من عدم تصديق ما يحدث وهو ينظر حوله في محاولة لاستيعاب ما سمعه، فهزته «سارة» بقوة وهي تبتسم بشدة، قائلة بنبرة عارمة السعادة:

- حقًا يا «ياسين» لقد فعلتها يا عزيزي، أنت الفائز الليلة كما كنت تحلم في الماضي، أنت الملك المتوج هنا..

يبتسم ببلاهة واضحة وهو ينهض من جلسته ناظرًا إليها بعدما قبل يدها التي كانت ممسكة به طوال الحفل فاحمرت وجنتاها، وهي تنظر بخجل لابتسامات الحضور من حولهم وتقدم لاستلام جائزته والتي كانت عبارة عن قلم مطلي بماء الذهب وصورة من غلاف روايته نُحتت باحترافية واضحة على قطعة من الزجاج في إطار مبهر، وهو يصافح أعضاء اللجنة المنظمة للحفل وسط ابتسامات وتمنيات حارة بينهم، وتقدم بعد ذلك لإلقاء كلمة بعدما دعته مقدمة الحفل وصافحته ليعتلي المنصة واقفًا وهو يبتسم وينظر إليها دونًا عن الجميع، وبدأ بالتحدث قائلًا:

- أشكركم جميعًا..

بدأت تهدأ تفاعلات الحضور حتى توقفت جميعًا كي يستمعوا لكلمته، فمر بنظراته لجميع الحضور أمامه، ثم بدأ بتردد:

- في بداية الأمر، أود أن أشكر كل من ساهم في تنظيم ذلك الحفل الرائع، وفكر أخيرًا في أن يُسلط الضوء على الجانب المشرق الذي أهدر حقه الكثير بتجاهله والاهتمام فقط بأشياء أصبح مجتمعنا يعاني من نتائج انتشارها الآن.

ثم تنهد وصمت لثوانٍ يحاول جمع كلماته بها وقال:

- أما عني فأنا حتى الآن لم أستطع التصديق، أنني هنا وسط كل هؤلاء الأشخاص الذي لا تتوقف محاولاتهم وإصرارهم على إحداث التغيير المستمر، ونشر الوعي والثقافة، والذي أكنُّ لهم كل الحب والتقدير من قلبي، ولكن هي أول من آمنت بأن ذلك المقعد الذي فزت به سيكون مقعدي يومًا ما رغم أنني لم أتوقع مجيئه من المرة الأولى لي..

ثم حول نظراته إليها وثبت بعينيه عليها في إشارة منه للحضور بمعرفة ما يقصده بكلماته، وأكمل حديثه بشغف:

- فبدونها ما أصبحت هنا الآن، وبدون إيمانها وحبها وتصديقها لي، ما كنتم عرفتم شخصًا له عمل أدبي فاز بالمركز الأول اسمه «ياسين الشافعي».

لذلك صاحب المركز الأول الحقيقي هو هذا الشخص الذي بدون مساندته إلينا لما أصبحنا شيئًا من الأساس، من يحمل همومنا فوق أعتاقه وكأنها همه الأول، ويرشدنا حين نضل الطريق، وأول من يبادر بإنقاذنا من المحيط ويمد لنا يد العون حينما نوّشك على الغرق، وليس نحن بمجهودنا فقط، فلكل بطل وحكاية جميلة لولا الثبات والدعم والحب الذي تلقاه طوال طريقه ممن يحبونه

بصدق ما كان أصبح شيئًا..

ثم ابتسم إليها وتوقف للحظات وتابع حديثه بنبرة غمرها السعادة:

- لذلك لا أحد غيرك يا «سارة» يستحق تلك الجائزة، لا أحد يستحق أن يكون ملكًا متوجًا في تلك الليلة إلا أنتِ يا عزيزتي.

1

«أريد أن أبكي، ولكني لا أعلم كيف»!

***

نهضت من أمام تلك الصورة المعلقة على حائط غرفتي المقابل لمقعدي الوحيد المتواجد بها، نافرًا كل ما دار في عقلي منذ لحظات مرت وانتهت بالنسبة للعالم، لكنها توقفت داخلي، وكأنها قررت ألا تنتهي أبدًا، ارتديت معطفي الأسود بتكاسل بعدما كان ملقيًا فوق مكتبي الذي لم أجالسه منذ فترة، وبخطوات عشوائية مثل كل شيء حولي اتجهت نحو مرآتي الوحيدة بعدما جذبت لفافة عنقي التي تحمل اللون ذاته كي ارتديها لتجنب برودة طقس هذه الليلة، ووقفت ثابتًا، ناظرًا بها لذلك الشخص الذي تغير حالة كثيرًا عن الماضي، أتأمل وجهه الشاحب، وعيناه التي شوهها السواد المتواجد أسفلها وكأنه مدمن أوشك على الموت، ونظراتها التي أصبحت تعلن عن ضعف صاحبها، وإقباله على السقوط.

متى آخر مرة وقفت بها أمام مرآتك وابتسمت لنفسك حبًا في أناقة مظهرك؟

لم أعد أبالي بلحيتي التي طالت أكثر من اللازم وبدت غير منمقة بالمرة، ولكني ما زلت مميزًا بكثافتها ووقارها رغم دلالتها على حزني المكتوم، لم أصفف شعري كما كنت أفعل دائمًا، كانت تخبرني دومًا أنني أبدو أكثر وسامة عندما أترك خصلاته تتشابك متداخلة بعضها عن أن يكون مُرتبًا، فمددتُ يدي بين خصلاته فقط لأكتفي

بتعديلٍ جعله أكثر عشوائية، ثم توقفت عن الحركة للحظات لأنظر بتمعن إلى تلك القبعة دائرية الشكل المعلقة أمامي فوق المرآة والتي أهدتها إليّ في آخر مناسبة قضيناها سويًّا، أمسكتها وأنا أتفقد ملمسها بيديَّ ورائحتها التي ما زال أثرها متواجدًا بها، وضعتها فوق رأسي، ثم جذبت نظاراتي الخاصة التي تعودت على أن أرتديها دائمًا لضعف رؤيتي حتى لو لم أبادر بالكتابة، واستعديت للخروج هكذا في هيئة ذلك الرجل الذي كانت تحب أن تراه كما كانت تخبرني دومًا، ولكن هذه المرة أكثر هشاشة.

***

أكثر من عامين قد مرَّا على ذلك الحال وتلك الصورة، تغير العالم من حولي بهما لكن بقيت روحي مهجورة وساكنة، اعتدت التعايش على هذه الحالة رغم نفوري منها، كانت قد أوشكت على الواحدة ليلًا، حيث هدوء الصخب في الشوارع قليلًا، واستعداد كل من يتخذ الليل بداية يومه للانطلاق، غادرت شقتي التي تعلو بالدور الرابع من أصل منزل مكون من ثمانية طوابق، لا أعلم إلى أين أنا ذاهب، وإلى أي مكان أتجه، لكن الأهم أن أهرب من غرفتي التي مللت منها وملت مني، فتركت لقدمي الحرية الكاملة تأخذني كيفما تشاء، سِرت كثيرًا، متأملًا الشوارع التي باتت كئيبة والطرق المظلمة، حتى الأماكن الباهتة رغم ضوئها الشديد، كل شيء أصبح في عينيَّ داكنًا، لم يعد لمكانٍ ذات الطابع الذي كنت أعرفه عنه حينما كنتِ معي، تسيرين جانبي متشبثة بيدي، تتعالى ضحكاتنا، وتفوح رائحتنا الممزوجة بالحب والطمأنينة لكل

من يرانا، وكأن الشوارع والطرق كانت تبتهج لوجودنا سويًّا، وفي حضورنا تزداد الأماكن نورًا..

فتلك ليالي الشتاء الباردة التي قدد أحببناها معًا، قد عادت ببرودتها التي اعتدنا ملأها بدفء حُبنا، عادت الغيوم تجتاح السماء التي عشقنا رؤيتها سويًّا، عادت الأمطار تهطل من جديد التي كنا نعشق السير أثناء انهمارها من السماء ويدانا متعانقة بابتسامة لا تفارق وجوهنا كأطفال صغار يستمتعون بكل شيء ببراءة، عادت روائح ديسمبر الذي كان عاهدًا على لِقائنا وبداية كل ما كان جميلًا بيننا..

عاد كل شيء لطبيعته مرة أخرى، إلا نحن، فقد عادت كل التفاصيل التي أحببناها وتشاركناها سويًّا لا ينقصها سواكِ، وفي غيابك اكتشفت أن الليالي باردة هذه المرة.

يمر كل شيء في ذاكرتي مسرعًا، تتصارع الأحداث داخل عقلي، لا أستطع التوقف عن التفكير في كل ما تشاركناه معًا في يومًا ما، وكأن ذاكرتي تطاردني في حرب أرادت فتكي بها، هنا كان لقاؤنا الأول، وهناك أول فيلم شاهدناه معًا، وهنا أول وردة أهديتها لكِ معترفًا بغرامي بكِ رغم أنك لا تحبين الورد كثيرًا، كل شيء في عقلي يمر وكأنه شريط يُعرض بذاكرتي، فشعرت ببعض الألم في رأسي مجددًا، ووضعت يدي ضاغطًا كي أقلل من حدته، صداع مزمن لا ينتهي، ضجيج يتزايد كلما تذكرت شيئًا يزعجني، حقًا يدمرنا الفراق، يجعلنا كالأموات، ولكن الفرق هنا أنك ما زلت على قيد الحياة.. جسد بلا روح، بلا شغف، بلا طاقة لمواجهة الأيام.

حاولت أن أستعيد وعيي الذي ذهب شاردًا دون إرادتي، نظرت حولي لأرى أين سحبتني قدماي، فانتبهت أنني على بعد خطوات من وجود ملهى ليلي في طريق لا يؤدى إلا إليه، توقفت عن السير وأنا أنظر إليه مفكرًا في ذاك الاقتراح الذي جاءني، ولأول مرة تنتابني فكرة الدخول إلى مكان مثل هذا، لم أتخذ وقتًا طويلًا كي أحسم قراري بالدخول لأتجه إليه مباشرة بخطوات رجل لا يبالي بشيء سوى النجاة من عاصفة رأسه.

***

2

«بعض الذكريات لا تموت في قلب صاحبها حتى وإن تظاهر بعكس ذلك».

***

تجلس على سريرها وحدها، يبدو على وجهها الانكسار، تشعل سيجارة تلو الأخرى، يتطاير الدخان من بين شفتيها ببطء في مشهد يجعلك تُغرم بتقبيلهما، ترتدي قميصًا خاصًا بالنوم عاري الكتف، الذي يلامسه خصلات شعرها الذهبية اللامعة تحت إضاءة غرفتها الهادئة، لا يبدو على وجهها وأفعالها الحزن كما تشعر بداخلها، فما كان يميزها دائمًا هو ثباتها رغم كل الاضطرابات التي تكمن في عقلها، ممسكة بهاتفها وفي عينيها شيء من الندم، تتفقد بعض الصور التي أصبحت ملجأها للهروب من الواقع كلما أرادت نسيانه، لم يعد شيء في حياتها يسير بالطريقة التي كانت تحلم بها، وكأنها أصبحت تشبه خرابًا إثر حربٍ مأسوية انتهت بسحقها من قبل عدوها، تبكي عيناها في صمت وذاكراتها لا تهدأ، ومع آخر أنفاس سيجارتها دق باب غرفتها، بعد أن فتحه، مبتسمًا في وجهها، قائلًا:

ـ اشتقت إليكِ يا عزيزتي.

لتبادله بابتسامة كذبتها عيناها المُحطمة وقلبها المُمزق.

***

هنا عالم آخر لم يدركه العالم الخارجي، عالم غير الذي اعتدته، عالم صنع لكل من أراد الهروب من نفسه!

هنا كل من أراد نفي العالم الخارجي من داخله، وكل من أراد أن يكون ملكًا في عين نفسه، هنا كل من أخفق في الصمود فقرر أن يظل غريبًا وبعيدًا عن المواجهة بالانغماس في حياة بها كل شيء يجعله مغيبًا عن الواقع.

دلفت إلى الداخل وسط كمٍّ من الترحيبات من كل ما كان خلف ذلك الباب، الذي وكأنه يعبر بك من عالم إلى عالم آخر تمامًا، تستطيع أن ترى جشعهم في ترحيبهم بك، الجميع يريدك أن تصبح له فيجعلك ملكًا في ليلتك، فتيات عرفهم الليل فقط، فكانوا له فتيات الليل..

أصبح العالم يحكمه جزءًا كبيرًا من المال، والنصف الآخر تحكمه الشهوة والمتعة، تأتي هنا لتدفع الكثير من المال من أجل الحصول على كل المتعة التي تريد غيابك عن الواقع بها، يجذبنك بإثارة ملابسهن، وعُري أجسادهن، وطريقتهن في التعامل معك، هنا ما دمت تملك مالًا، فأنت ملك في هذا العالم.

تجاهلت كل مغرياتهم، ما أردت الدخول هنا من أجل الحصول على شيء أصبح العالم كله يلهث وراءه؛ الشهوة.. ليس لتميزي أو مثالية زائفة لكن الأمر بالنسبة لي أصبح كشيء غير مرغوب به.

تركت الفتيات ومن يحاول إغرائي منهن بشتى الطرق، اتجهت إلى الصالة الكبيرة بطريقة المستكشفين، لا أعلم كيف تسري الأمور هنا فالمرة الوحيدة التي دخلت بها ملهى ليليًّا أو باسمه الحديث (Nightclub) كان مع أحد أصدقائي الذي لم يعد لهم وجود في حياتي الآن منذ أعوام، لكنني حينها لم أفعل شيئًا سوى أنني شاهدت

كيف يتفاعل مع الأمر فقط، الآن أريد أن أرى بنفسي، وكأنني عثرت على شيء جيد أردت من خلاله أن أحرك أحداث حياتي الراكدة منذ فترة، فاتجهت مباشرة لتلك الطاولة الكبيرة الجالس عليها القليل من الأشخاص الذين يبدو عليهم الثراء من ملابسهم الأنيقة، عكس كل من في الخارج ولم يستغرق الوقت كثيرًا، حتى أدركت أن هذه الصالة ليست للمغيبين، وإنما لمن يريدون الفوز دائمًا، شهوة أخرى، تعرف بشهوة البوكر والمراهنات المبالغ بها.

تجاهلت هذا أيضًا ناظرًا حولي، باحثًا عن مكان يشبه ذلك الشخص الكامن داخلي الذي لم أعد أعرفه ولا يعرفني، بدأت حرارة المكان تتسلل قليلًا إلى جسدي، عكس برودة الخارج، فأردت خلع معطفي ولكني لم أفعل، حتى وقعت عيناي على طاولة في ركن تلك الصالة تحتوي فقط على مقعدين، شعرت حينها فقط أنها تناديني بوحدتها وصغر حجمها وعدم اقتراب أحدًا منها، اتجهت إليها في هدوء ثم سحبت مقعدًا وجلست وأنا أخرج التبغ الخاص بي حتى أصنع سيجارة أردت أن أدخنها في محاولة مني لأنجو ببعض الهدوء، ولكن أزعجني مجددًا شيء لم أتوقع حدوثه رغم تفاهته، فقد تركت قداحتي فوق مكتبي، أحيانًا نصل لدرجة من العصبية بسبب أتفه الأمور، لكننا نعلم جيدًا أنَّ السببَ ليس في الأمر ذاته بقدر تلك التراكمات التي كانت قبله بداخلنا، فنظرت حولي باحثًا، وما مرت لحظات حتى رأيت قداحة امتدت من جانبي إلى السيجارة الموضوعة بفمي تشعلها، فنظرت لصاحبة تلك القداحة الأنيقة وهذه اليد البيضاء،

لتستكشف عيني من خلف نظارتي الرؤية كاملة، فتاة جاءت بعدما أشعلت سيجارتي لتسحب المقعد المقابل لي وتجلس دون أن أدعوها، ترتدي فستانًا قصيرًا أحمر، ذات فتحة تظهر ثدييها من الأعلى بطريقة مغرية واضحة، تبتسم ابتسامة شعرت باصطناعها لوهلة، ولكنني تجاهلت ذلك قائلًا بنبرة جادة:

- أشكرك على القداحة، ولكنني أريد أن أجلس وحدي قليلًا..

لم تختف ابتسامتها رغم تعمدي نفرها، ثم قالت متجاهلة بصوت استطعت سماعه بصعوبة بسبب صخب تلك الموسيقا التي لا تتوقف هنا:

- لم أر من قبل من يفضل أن يصنع سيجارته بيده في هذا المكان، فكل شيء يحبونه جاهزًا هنا!

قلت مُظهرًا استيائي:

- أفضل صناعة سيجارتي بنفسي، أجد المتعة في ذلك مثلما تجدينها أنت في حصد المال الذي تفعلي نكل شيء الآن من أجل الحصول عليه.

قلتها متعمدًا إحراجها، لكنني فوجئت برد فعلها، لم تتغير ابتسامتها المرسومة على وجهها رغم شعوري بألم وقوع تلك الجملة من عينيها التي أخفى ذبولَهما تلك المساحيقُ الخفيفة التي وضعتها، وكأنّ ملامحها بيت جعله الحزن على وشك السقوط، فباتت ترممه بمساحيق التجميل..

ثم قالت بطريقة أنثوية أكثر:

- ماذا إن دعوتك لرقصة تشتاق إليها روحك، رقصة تشعرك بالتحرر من تلك القيود التي لم تعد تستطيع الإفلات منها، والذي حضرت بسببها إلى هنا الليلة؟

حدقت للحظات، وشعرت بأنها غير من هم في هذا المكان، ولكني أخفيت ذلك وأنا أرفض بعينيَّ ناظرًا تجاه الطاولة مراقبًا ردود فعل اللاعبين فوقها، حتى لاحظت نهوضها من أمامي وذهابها بعيدًا مثلما كنت أريد، ولكني لا أعلم لماذا تحرك شيء داخلي وبَّخني لأنني فعلت ذلك، ربما لأنني كنت وقحًا في كلماتي لها، فراقبتها بعينيَّ حتى اختفت من أمامي، لأجدني أنهض خلفها دون إرادتي متبعًا إياها إلى الخارج مراقبًا بفضول ماذا ستفعل، فوجدتها قد سارت إلى منتصف القاعة التي يتراقص الجميع بها وقد اتخذت لنفسها كأسًا احتستها من النادل المار أمامها، ووضعتها فارغة، ثم مسحت بيدها وجهها وفركت عينيها ولا أعلم أكان بسبب أن تساقطت دموعها أم تفعل ذلك لتستعيد وعيها، لكنني أدركت أنها تستعد للرقص حينما وجدتها تبتسم ببلاهة مع تلك الأغنية التي بدأت وأعرفها جيدًا، فشعرت ببعض الندم قليلًا وسرت تجاه البار المزدحم في أول تلك القاعة وأنا أطلب كأسًا للمرة الأولى التي افعل بها ذلك في حياتي، ولم تغب عن عيني لحظة واحدة، حتى بدأت أن تنطلق الأغنية في أولى كلماتها الرمادية..

I’m fighting a battle

أنا أقاتل في معركة

I’m fighting my shadow

أنا أحارب ظلي

بدأت تغمض عينيها وهي تفرد ذراعيها وتهز رأسها بهدوء وكأنها تشرد بخيالها قليلًا في شيء تتذكره، كانت كلمات الأغنية أقرب لوصف ما تفعله، شخصًا يستعد لخوض معركة يائسة، يعلم أنه سيخرج منها خاسرًا..

Herd fears like they're cattle

أحرس المخاوف وكأنهم ماشية

I'm fighting a battle, yeah

أنا أقاتل في معركة

بدأت تتمايل قليلًا، وحركتها تزداد سرعة رويدًا رويدا، أحيانًا تكون الموسيقا هي لغة أرواحنا الأخيرة للتعبير عن كل ما نشعر به داخلنا، حينما تكون قد انتهت الكلمات، ولم تعد الأحاديث تجدي نفعًا، وكذلك هي لم تعد تبالي تمامًا، امتزجت بكلمات الأغنية وكأنها قد أُطلقت لها، ما زالت عيناها مغمضتين، مستمتعة بتمايل جسدها المثير بفستانها، وابتسامتها التي بدأت أن ترتسم أعلى شفتيها بدلالٍ هذه المرة.

I'm fighting my ego

أنا أحارب غروري

Lost youth where did we go wrong

فقدنا الشباب بالسير في الاتجاه الخاطئ

I'm fighting for me though

أنا أحارب من أجلي أيضا

I'm lighting the long way home

أنا أضيء طريقي الطويل إلى المنزل

احتسيت تلك الكأس التي وضعتها النادل أمامي وأشرت بالمزيد وأنا أعتصر ألمًا ولا أعرف ما هذا الذي وضعته في فمي، كل ما كان يشغل عقلي في تلك اللحظة، هي وما تفعله، وأنا أتمعن بها مستمتعًا رغم عينيها الغائرتين بدموع تكونت، والآلام التي تشعر به في حلقها الآن، ورغم تلك الندبات التي بدأت تنغز قلبي، بأشياء بدأت تسري في ذاكرتي مجددًا، فهناك من يتراقص لشدة فرحة وسط الزحام الذي هي به، لكنها كانت تتراقص من شدة الآلام.

Oh, the past it haunted me

الماضي كان يطاردني

Oh, the past it wanted me dead

الماضي أرادني أن أموت

Oh, the past it tormented me

الماضي عذبني

حتى فتحت عينيها وما زالت تتراقص دون أن تبالي بكل من حولها، تدور حول نفسها بطريقه جعلتها تبدو أكثر جمالًا، اختفت ابتسامتها مجددًا، ونظرات إلى الأعلى وما زالت تتمايل باستمتاع شعرت به، ترقص من أجل أن تتحرر من حزنها الذي أظهره ملامحها المتأثرة، وكأنها

ترقص من أجل أن تواسي روحها فقط..

But the battle was lost

ولكن المعركة ضاعت

Cos I'm still here

لأنني ما زلت هنا

بدأت تتسلل الرغبة داخلي بالذهاب إليها، شعرت ببعض الهلاوس للحظات، لا أعرف إن كان تأثير ذلك الشيء الذي احتسيته أم أنها من هواجس عقلي، رقصها يثيرني لأن أتحرر مثلها، لم تكن لدي الجراءة للنهوض، حتى اصطدمت عيناها بعينيَّ فشعرت بشيء قد اهتز داخلي، لكنها لم تبال، فقط استمرت في تمايل جسدها بدلال أكثر هذه المرة حتى شعرت أنها تناديني به، لكنني مثقل، أشير أن جسدي توقف عن الحركة..

I'm winning the war now

أنا أفوز بالحرب الآن

رأسي يتمايل معها وعيناي بدأتا ترتجفان وما زلت راكزًا بنظراتي عليها، روحها التي أشعر بآلامها، تحرك شيء داخلي يشبهني لا أعلم ما هو..

I'm winning it all now

أنا أفوز بكل شيء الآن

لم تتوقف عن الرقص، لكن بدأت أن تهدأ قليلًا، أغمضت عينيها مرة أخرى، كنت بدأت في أن أفقد سيطرتي تمامًا على نفسي، فأغمضت عيني في هدوء معها،

وبدأت دموعي بالتساقط مما تذكرته، وأنا أتنهد ببطء، وكأنني ألتقط أنفاسي بصعوبة، لا أعلم تأثيرها، أم تأثير كلمات الأغنية المؤلمة، أم تأثير الكحول..

Watch tears while they fall down

أشاهد دموعي أثناء سقوطها

ابتدأت أن تبتسم أكثر، أقاوم رغبة عينيَّ في أن تغمض، دلالها أثناء تمايل جسدها جذبني بقوة لم تحدث مسبقًا من أحد، ثم بدأت عيناي في أن تغمض قليلًا، وأنا ثابت بنظراتي عليها، حتى رأتني أتمايل على البار الجالس فوقه مسندًا عليه، وكان هذا آخر شيء أراه بعدما بدأت أفقد السيطرة تدريجيًّا على جسدي حتى بدا خاملًا للحد الذي جعلني لم أعد أرى شيئًا أمامي سوى هلاوس تدور داخل عقلي فأغمضت عينيَّ تمامًا واستسلمت لرغبتها، حتى أستطيع التخلص منها، ولم أشعر بشيء بعدها

I'm winning the war now

أنا أفوز بالحرب الآن.

***

اقترب منها صاحب الرأس الأصلع، واللحية الخفيفة، والجسد العريض قليلًا، مبتسمًا إليها، مرتديًا بيجامته الخاصة، وقبل كتفها العاري قائلًا:

- ماذا كنتِ تفعلين؟

فأخرجت زفيرًا أخفت غضبها به، ثم مدت يدها إلى علبة سجائرها لتدخن واحدة أخرى قائلة بلامبالاة:

ـ كنت سأخلد إلى النوم، ليس هناك ما أفعله.

فنظر إليها بعينٍ عرفت من خلالهما ماذا يريد، ثم أشعلت سيجارة أخرى قائلة:

ـ ليس الآن..

فاختفت ابتسامته قليلًا، ثم قال شاهقًا:

ـ أتفضلين تلك السيجارة التي تلامس شفتيك عني، فأنا الأحق بمداعبتهما..

ثم اقترب منها أكثر وهو يتحسس جسدها بنهم بدأ أن يظهر عليه، وأردف قائلًا برغبة بها:

ـ كان عهدنا منذ البداية أنكِ لي في أي وقت أحتاجك به يا عزيزتي..

ليقترب أكثر بعدما سحب سيجارتها من بين أصابعها ووضعها جانبها في المطفأة الخاصة بها، وهي تشعر بنارٍ حارقة قد اشتعلت بداخلها مع اقترابه منها، وأنفاسه تختلط بأنفاسها ليقبلها:

ـ ولقد اشتقت إليكِ بشدة يا «سارة».

ليسقط الهاتف من يدها بجانبهما، وهي تنظر إلى شاشته التي بدأت في الانطفاء بعينٍ تكونت بهما دموعها، وهي ترى صورتهما معًا مبتسمتين، ابتسامة اختفت كأصحاب تلك الصورة.

3

«ربما الحدث الذي تظنه صدفة كان مرتبًا لك من البداية»

***

بدأت أشعر بخمول جسدي وبعيني التي بدأت أن أفتحها بتكاسل لشدة عمق نومي، تثاءبت وأنا أستفيق حتى بدأت في استعادة وعيي لأنتبه أنني في مكان لا أعرفه، هذه ليست غرفتي، فانتبهت أكثر وهززت رأسي في محاولة لاستعادة وعيي سريعًا إن كانت مجرد تهيؤات لأجدني بالفعل في منزل لا أعرفه، غرفة واسعة زينت جدرانها بطلاء أبيض، عكس ما أحب، عكس طلاء غرفتي الرصاصي المخالط بالأسود، ليس هناك مكتب، فقط صور معلقة على حوائط الغرفة الأربعة بحجم متوسط أعطتها طابعًا مميزًا ودولاب للملابس كبير، وشرفة من الواضح أنها تطل على الطريق لسماعي بعض أصوات ضجيج الطريق، غرفة مضيئة ومبهجة، فنظرت جانبي باحثًا عن شيء يخبرني أين أنا لأجد صورتها موضوعة بابتسامتها الجميلة، وشعرها الأسود القصير، ترتدي فستانَ سهرة وأمام البحر التقطتها، فتأملت ملامح وجهها أكثر، حتى دلفت الغرفة عليَّ بعد أن دقت بابها دون خجل، مرتدية بنطالًا وسترة بيضاء، أقرب إلى ترينج رياضي، ناظرة إليَّ وهي تبتسم، فغمرني بعض من الخجل، وشعرت بأنني قد تورطت فيما حاولت كثيرًا التهرب منه، ثم حدثتني قائلة وما زالت محافظة على ابتسامتها:

- من الواضح أنك لم تنعم بالنوم منذ مدة طويلة.

فصمت ناظراً إليها ولا أعلم بماذا أتفوه، حتى وجدتها تمد يدها بتيشرت أسود أعرفه جيدًا، ولم يستغرق الأمر ثواني معدودة حتى تذكرت أنه الذي كنت أرتديه تحت معطفي، فنظرت لجسدي لأراه، لأجدني عاريًا لست مرتديًا شيئًا سوى بنطالي، فارتبكت أكثر، ثم قلت بتوتر بعدما التقطه منها وارتديته مسرعًا:

- ماذا حدث؟ كيف خلعت قميصي! وكيف أتيت إلى هنا، أنا لا أتذكر شيئًا.

فازدادت ابتسامتها، وقالت بنبرة هادئة وهي تقترب مني:

- اهدأ يا عزيزي، لم يحدث شيء سوى أنك قد فقدت وعيك، فأسندتك حتى الخارج، وفي محاولاتي لاستفاقتك حتى أعيدك لمنزلك لم أستطع أن أفهم منك شيئًا سوى أنك لا تملك سيارة قد أتيت بها، فجلبتك إلى سيارتي وجئت بك إلى هنا.. إن لم تكن بقدر الخطوة التي تنوي اتخاذها فلا تتخذها!

قالتها ساخرة مني لأنني لم أتحمل كثرة شرب الكحول وسقطت مسرعًا ثم صمتت وفردت ذراعها قائلة بنبرة ترحيب:

- مرحبًا بك في منزلي وعالمي الخاص..

نظرت إلى أفعالها بدهشة كبيرة، وبداخلي عاصفة من الأسئلة والتعجب لما يحدث، أنا في واقع أم حلم! فقلت وما زالت دهشتي تعتلي ملامحي:

- وكيف خلعت هذا؟ وأين بقية أشيائي التي كنت أرتديها؟

فقالت وهي تمثل طريقتي بطريقة ساخرة:

- عندما وصلنا إلى هنا أخبرتَني وأنت غائب تمامًا عن الوعي أنك تشعر بحرارة بالغة، فساعدتك في خلع معطفك وقميصك، عندما ألقيت جسدك على ذلك السرير، ثم نظرت جانبها مشيرة إلى علّاقة الملابس العمودية:

- وها هم وضعتهم هناك..

فصمتُّ ولم أستطع الرد، وفي عينيَّ شكٌّ بالغٌ أنه قد حدث شيء بيننا لكني لا أستطع التذكر أبدًا وكأنَّ الأمسَ جزءٌ قد محيَ من ذاكرتي، فأردفت وهي تنظر إلى عينيَّ قائلة بثقة استعجبت لها ولا أعرف كيف عرفت سؤالًا يدور في عقلي فقط لم أتفوه به:

- لا تقلق أيها الكاتب العظيم، فلم يحدث شيء بيننا!

ازداد اندهاشي هذه المرة أكثر من أي وقت مضى، شعرت بأني عارٍ أمامها لأول مرة منذ أن التقيتها، فقالت وهي تضحك بهدوء:

- الكاتب «ياسين الشافعي» صاحب الإنجاز الأول والأبرز والأخير في حياته والذي لم يصمد طويلًا على ساحة المنافسة.

قالت تلك الكلمات التي قرأتها في خبر قد انتشر باسمي بالصيغة ذاتها منذ فترة، فوضعت يدي فوق رأسي بطريقة تدل على ندمي على ما فعلت في تلك الليلة الماضية وخروجي

من غرفتي من الأساس، وظهوري بتلك القباحة أمام شخصٍ يعرفني، فاقتربت مني ثم جلست أمامي وهي تربت على يدي:

- لا تحزن هكذا، فلم يحدث شيء يستحق كل هذا الندم الذي تجحم نفسك به..

فقلت بخيبة أمل:

- كيف لا أحزن وأنا تائه هكذا، كيف لا أندم بعدما فقدت نفسي ولم أعد أعرف من الذي أنا عليه الآن ولماذا أتصرف بهذه الطريقة؟

اقتربت أكثر ثم قالت بنبرة مشفقة وهي تمسح بيدها فوق رأسي مواسية ذلك الشخص المفقود أمامها:

- ولكنَّ الحزن لن يفعل لنا شيئًا سوى أن يجعلنا بقايا روح منهكة، غير قادرة حتى على التقاط أنفاسها، لذا يجب أن نتجاوز الأمر مهما كانت قسوته وتأثيره علينا..

نظرت لها بعينيَّ المرهقة، ثم قلت بصوت هادئ مرتجف:

- حاولت ذلك مرات ومرات، حتى يئست من المحاولة ومن نفسي، ثمة أشياء عندما نفقدها فلن تعود الحياة كما كانت مهما فعلنا، حتى وإن تظاهرنا بأننا قد تجاوزنا ونجحنا في هذا الأمر، ستظل الآلام كامن في أعماق أرواحنا تذكرنا بكل شيء، في كل لحظة نتعايشها، وكل طريق نسير فيه، وكل مكان نذهب إليه، وفي نهاية كل يوم سعيد نذهب به إلى الفراش، ستظل ذاكرتنا تذكرنا دائمًا بأن هناك شيئًا ينقصنا، أننا فقدنا جزءًا منا لم نعد نستطيع تعويضه.

ثم اعتدلت في جلستي، وما زالت تلك النظرة المشفقة التي لم أحب أن أراها في عين أحد لي ثابتة، وأردفت وأنا أنظر تجاه معطفي:

- أريد التبغ الخاص بي، وكوبًا من القهوة إذا سمحتِ حتى أستطيع استعادة تركيزي جيدًا وأرحل من هنا.

ثم وجهت نظراتي إلى الطعام الموضوع جانبي قائلًا:

- وأقدر مجهودك في هذا، لكنني لم أتناوله..

فنهضت من جلستها أمامي، ثم اتجهت نحو معطفي وأنا أتابعها بنظراتي، حتى وقعت عيناي على كاميرا موضوعة على مقعد في زوايا الغرفة، فنظرت حولي بترقب أكثر لأرى تلك الصور التي تملأ الحائط المقابل لي، فقلت لها وعلامات الانبهار على وجهي:

- أنتِ مُصورة!

فابتسمت وهي قادمة نحوي وفي يدها التبغ خاصتي تحرك رأسها في إيجاب، ثم قالت وهي تشير إلى الصور المعلقة أمامي:

- الأمر ليس كذلك تحديدًا، ولكن هذا هو شغفي، كما أنت تهوى الكتابة..

فتأملت بعض الصور أمامي التي أعطت روحًا كلاسيكية لغرفتها، حتى قاطعت شرودي وهي تمد يدها لي بالتبغ قائلة:

- اصنع لي واحدة معك.

نظرت لها بإنكار ثم تجاهلت أمر الصور وقلت:

- ألم تسخري من ذلك التبغ بالأمس، تريدينه الآن!

هزت رأسها وبمراوغة قالت:

- نعم نعم، لكنني سأدخن الآن معك واحدة منه.

- حسنًا، اذهبي لإعداد القهوة أنت، وسأصنع لك واحدة.

فاتجهت خارج الغرفة بدلال أحببته منها، لا أعلم كيف سارت الأمور بيننا هكذا بتلك السرعة، ما هذا الجنون، إنني لا أعرف حتى الآن ما هو اسمها!

أُجالس فتاة منذ ليلة الأمس في غرفتها، عاريًا، لا أعرف اسمًا لها، فنهضت مسرعًا وفي فمي سيجارتي التي صنعتها وأشعلتها فقط لي ناسيًا أمر سيجارتها، قائلًا بلهجة تعجب أمام هيئتها التي نالت إعجابي دون أن أظهر ذلك، جسدها الرفيع، خصلات شعرها وهي تقوم بتعديل مظهرها، طريقة وقفتها الآن، وكأنها فتاة أخرى غير التي رأيتها بالأمس:

- اللعنة، أنا لا أعرف اسمك حتى الآن أيتها الفاتنة..

فضحكت بصوت عال، ثم قالت بنبرة رقيقة كرقة حروف اسمها الذي أحببته منذ أول مره نُطقت حروفه أمامي:

- «آسيا»، ذلك هو اسمي.

- «آسيـــا!!»

رددته خلفها للتأكيد بعدما سحبت نفسًا طويلًا استمتعت به مع حروف اسمها، فهزت رأسها تأكيدًا عليَّ، ثم قالت

بعدما تمايلت برأسها قليلا ورفعت حاجبيها:

- ألم يرق لك؟

فابتسمت ثم قلت بصراحة لأعرف لماذا أطلقتها وأن أخرج زفيرًا خرج معه كل الدخان المعبأ بصدري:

- نعم، وإنما راق لي كثيرًا، أحببت تميزه، يليق بكِ حقًا..

- امم، أتقصد أني مميزة؟

- ربما، هذا ما يبثه ما رأيته منكِ حتى الآن.

نظرت لي بعد كلماتي بثبات، ثم اقتربت مني لتلتقط السيجارة الموضوعة بفمي بيدها وتضعها في فمها باستمتاع ساحبة أول أنفاسها، قائلة بتحذير:

- هذا لأنك لم تصنع لي واحدة كما أخبرتني.

فابتسمت لتلك الجراءة التي أراها من تلك الفتاة منذ رأيتها، ثم تجاهلت ذلك حينما لاحظت غليان القهوة قد بدأ في الفوران، وهي تجذب فنجالين من المعروف تخصصهما للقهوة، لأوقفها معترضًا بيدي قائلًا بصوت واضح:

- ماذا تفعلين!

فردت بدهشة من سؤال إجابته واضحة وهي تسحب آخر أنفاس سيجارتي:

- سأسكب القهوة، أم أنك قد غيرت قرارك في احتسائها؟

قلت وأنا أتقدم خلفها لآتي بكأس موضوع أمامها:

- قهوتي أحتسيها في كأس دائمًا..

فابتسمت متعجبة، وقالت متسائلة بنبرة مرحة:

- أهذا الأمر من طقوس استمتاعك أيضًا؟

هززت رأسي مؤكدًا وأنا أتناول منها الكنكة الخاصة بالقهوة لأسكبها في كأسي الكبير، صاحبة اليد الرفيعة من الأسفل، والقاعدة الدائرية، لتتقدم هي أيضًا وتجذب كأسًا أخرى بفعل جعلني أبتسم لأول مرة، قائلة وهي تنظر إليَّ وتلتصق بكتفي وأنا أقف ليظهر تميزي عنها بالطول وهي بقصر قامتها، قائلة بنبرة غرضها استنساخ فعلي هذا:

- إذن سأستمتع معك أيضًا بهذا الأمر.

فنظرت إليها ساخرًا لتتقابل أعيننا ونضحك في تلقائية...

***

- لم أعد أتحمل يا «ياسين». بهذه الطريقة ستهدم ما أخذنا عمرًا في أن نحققه!

نظرت إليها بكل برود، وتجاهلت كلماتها في لامبالاة واضحة، فما يدور في ذهني لا يوصف بكلمات مهما حاولت فعل ذلك، فازداد غضبها أكثر ثم صاحت:

- أنت لم تعد ذاك الرجل الذي أحببته، فلقد سئمت العيش بهذه الطريقة، حياتنا لم تعد تعرف معنى السعادة، وأنت السبب في كل هذا، تعقيدك للأمر لن يعود عليك سوى بالهلاك..

نظرت لها بعينٍ شاردة، فلا يوجد أقسى من أن تكون غير مفهوم من أقرب الناس إليك، لأنَّ ذلك يعنى ألا فرق بينه وبين شخص لا يعرفك تمامًا، فتجاهلت كلماتها التي أصبحت كالسكين الذي يوضع في قلبي، وأخذت معطفي ورحلت من أمامها..

لتبكي عيناها التي أحبتهما في شدة، وفي الوقت حينه أضاءت شاشة هاتفها بإشعار رسالة جديدة لم أعطها اهتمامًا.

***

قررت الرحيل بعد يوم لم أتعايش مثله منذ فترة ليست بقصيرة، عاهدتها على أن ألتقي بها ثانية، وبعد لحظات من عودتي إلى الواقع، جاءت عاصفة الذكريات بكِ مسرعة، تدق طبول رأسي، سِرت وأنا لا أعلم إلى أين أذهب، حتى أخذتني قدماي إلى ذاك الرجل الوحيد الذي استطيع الإفصاح له، بعدما انقطعت عن المتابعة معه لفترة، الدكتور الخاص بي، فمن الطبيعي أن يكون لي جلسات نفسية مع طبيب نفسي، وإلا كان خبر انتحاري قد انتشر منذ زمن، ولأول مرة أشعر بأنني أريد التحدث معه، بعد هذا اللقاء الذي لن يصدق أحد حقيقته إلا أصحابه، لقاء من الخيال، وبداية لم أردها من الأساس لتفاجئني بأنها قد فرضت نفسها عليَّ..

دلفت بعدما وصلت إلى مكانه، ما كنت أحب الذهاب إلى عيادته الخاصة، كانت جلستنا في منزله دائمًا، لأجده جالسًا مسترخيًا وكأنه في استقبالي، ليبتسم في وجهي قائلًا:

- كنت أنتظرك في كل يوم يمر، وأنا أعلم أنك ستأتي.

***

4

«يتعافى الكاتب بقلمه، لذلك إن توقف عن السرد فتيقن أنه يعاني».

ياسين

***

صوت دقات المنبه الموضوع جانبي قد علَت، فاستيقظت من نومي منزعجًا، حتى ركلته بيدي ليصمت، مسحت عيني بيدي كي أتمكن من الرؤية سريعًا، لقد اقتربت من الثانية عشرة، مرت ثلاث ليالٍ منذ تلك الليلة التي لم أقضِ مثلها من قبل، ولكن بعد تلك المكالمة الهاتفية وكأنَّ العالم أصبح حمله أثقل، فأشدَّ الطعنات قسوة، تلك التي نتلقاها من أقرب القلوب لنا.

***

قبل يومين.

غمرت في نوم عميق كشخص لم تنل عيناه الراحة منذ أعوام، بعدما رحلت عن تلك التي نعتتني بالغريب رغم أنها تعرفني جيدًا على حد وصفها، لتوقظني دقات نغمة هاتفي، لمتصل لم أكن أتوقعه قط رغم أن ذاك الذي كان يجب أن يكون متوقعًا دائمًا، أمي..

شردت لثوانٍ أخذني بهم عقلي لأيام وأعوام تذكرتها في هذه اللحظة التي رأيت بها اسمها على شاشة هاتفي، أمي الذي اخترت منذ فترة كبيرة أن أتعايش بعيدًا عنها في مدينة ظننت أنها كانت الموطن لي، قبلت الاتصال بخفق

قلبي من ذاك الصوت الحزين الذي عاقبتني الحياة بابتعادي عن صاحبته..

- كيف حالك يا بني؟ اشتقت إليك.

أمي هناك خبر أودُّ أن أزفه إليكِ، لقد قاربت روايتي على صدورها، وقد قررت أن أكون بالمكان المناسب والأقرب لها، لمتابعة الأجواء، لذلك سأكون متواجدًا بشكل أقرب خلال الفترة القادمة، وأمور معيشتي مدبرة، سيكون عملي بجانب صديقي هناك، وشقة متواضعة إيجارها بسيط سأتدبره..

كان ذلك السبب جزءًا من حقيقة لا يعلمها أحد سوى «سارة» التي كانت صاحبة الاقتراح، والذي اتخذته من أجل أن أكون بجانبها.. وليس بسبب الرواية كما أخبرت أمي..

- أنا بخير يا أمي، لطالما اشتقت إلى سماع صوتك، وعناقك الذي كان قوة أستمدها لمواجهة قسوة العالم..

- لن أعارضك على طريق اتخذته في سبيل شيء تحبه يا «ياسين»، ولكن يا عزيزي هذا الأمر ليس بالهين على قلبي، أعلم أن الكتابة هي كل شغفك، وأنه طال انتظار هذه اللحظة بالنسبة لك منذ فترة، ولكن ليس كل ما نهواه يستحق المجازفة..

- ألم يحن وقت العودة بعد، طال غيابك يا عزيزي، هذا ليس الوعد الذي قد عاهدتني به، أتذكره؟ أم نسيته كما نسيت كل شيء؟

أعاهدك يا أمي بأنني لن يطول غيابي، سأكون هنا في

عطلة كل أسبوع أو اثنين بالكثير، ولكن من أجلي هذه المرة، ومن أجل حلم طال تحقيقه، اسمحي لي هذه المرة، ثم قبلت يدها في رجاء لرضاها عني، لأنني ومهما كان الأمر لا أستطيع أن أفعل شيئًا لا يروق لها..

- لم أنس يا أمي، ولكني أقسم لك أنني رأيت، وتعايشت ما لم يستطع تحمله بشر..

لمعت عيناي في هذه اللحظة، وتذكرت عهدي بأنني لن أعود إليها إلا وأنا شخص ابتعدت عنها من أجله، والآن.. أصبحت شخصًا غريبًا تمامًا لا أعرفه ولا يعرفني، فاشتدت عيناي بالبكاء في صمت، ولكنني كنت أعلم أنها تشعر بي، حتى جاءني ردها قاطعًا:

- عندما جئتني مصممًا على امتلاك تلك الشقة التي بدأت قصتها بإيجار متواضع كنت على دراية كاملة بما أنت مقبل عليه، ولكنني لم أعارضك أتعلم لماذا؟

دائمًا وأبدًا يا «ياسين»، تذكر أن الرحيل بغاية الأمان يفقد الأمان، الابتعاد عن عائلتك هو ألعن شيء في الوجود، كان أبوك يظنُّ أن الأمر يستحق غيابًا جعله الزمن عمرًا دون أن يشعر، لجلب بما يسمى الاستقرار، والارتقاء لعائلتنا، ولم يشعر أنه قد أفقدنا أهم شيء، الأمان الذي يجعله أقرب إليك، العلاقة التي كانت من الممكن أن تكون أفضل، لولا الغياب الذي شتت كل شيء بتأكل الأعوام من حياتنا دون أن نشعر، والدك ورغم انفصالنا أحبكم، وطال غيابه في بلاد الغرب، ظنًا منه بأن باستطاعته تعويضكم عن الحب الذي لم تستشعروه من خلال تواجده، ولكن هناك أشياء كثيرة يا عزيزي

أهم من جلب المال. لقد أفنى عمره، وضحى بعلاقاته وحياته في سبيل ألا يشعركم بالاحتياج، ولكن لكل حرب ضحاياها، وكانت الضحية هنا أنتم أيضًا، كانت الضحية هي أسرتنا لأنه لم يدرك أن احتياج شعور الأمان بتواجده في معظم تفاصيل حياتكم، كان أهم من جلب المال.

بقيت ساكنًا بعدما تذكرت كلماتها فقط هززت رأسي وكأنني أمامها وعيناي تبكيان في ندم واضح، فتنهدت وقالت:

- لم أعارضك لأنني لم أكن أريد أن تعاد قصة والدك أمامي مرة أخرى، كنت أخشى أن تأتيني يومًا ما لتخبرني بهوسك في مغادرة البلاد، مثل الجميع الآن، تترك كل شيء وترحل، ذهاب يعني فيما معناه أنه بلا عودة، حتى لو كانت لك عودة مرة أخرى في حساباتك، فلم أردك أن تصبح غريبًا في وسط أقرب الناس إليك.. لذلك باعتقادي غير الناضج حينها وافقت.

انتهت من جملتها وهي تخرج زفيرًا شعرت بغليان قلب صاحبته، ثم استطردت كلمات خرجت من فمها وكأنني أتعرف على أمي لأول مرة:

- ولكنني لم أكن أعلم أن رؤيتك غريبًا يومًا ما، ليست أشد قسوة مما أن أراك مهزومًا يا بني.

وكأن آخر كلمات العالم قد قيلت، صفعة على وجهي لم أتلق في شدتها من أمي منذ أن كنت طفلًا صغيرًا كذب حينما قال أنه قد أدى فرض الصلاة فعوقب، ساد الصمت بيننا، ولكن اشتد بكائي الصامت، تنهمر

دموعي بدون صوت، بدون توقف، لأتذكر كل شيء كيف كان، وما أصبح عليه الآن، هناك أخطاء لا تغتفر، وكذلك ليس هناك عودة بالزمان، ومن ثم انتهت المحادثة دون إضافة أي شيء آخر، لأترك الهاتف، وخرجت من غرفتي إلى الشرفة ألتقط أنفاسي، كأنني ألهث من ركض لأميال، يدور كل شيء في عقلي، حتى استندت على سور الشرفة عاجزًا تمامًا، وأنا أمسح عينيَّ كطفل صغير تُرك لحالة؛ بعدما كان الجميع معه. اللعنة على الذكريات التي لا تموت، في بعض الأوقات وكأنَّ العالم مكان لا يناسبنا، نفقد عقولنا بالكامل، كل ما نريده هو الهروب من تلك الحروب المشتعلة داخلنا بأي ثمن، حتى وإن تنشق الأرض وتبتلعنا، المهم أن نستطع الهرب، ولكن ذلك لا يحدث..

دقائق من الهذيان مرت عليَّ في الحالة ذاتها..

يضيق العالم في عيني ببطء رغم اتساعه، يتمايل جسدي وكأنني أفقد صوابي، صخب المدينة بالأسفل يتلاشى شيئًا في شيئًا، وفي عيني دموع جعلتني أرى كل ما هو أمامي في ضباب تام، أصبح الجميع يعلم بخيبتي، تفاقمت رغبتي فيما فكرت فيه في ليالٍ طوال، ولم تتوقف عيني التي تحترق، أنظر من أعلى الشرفة، هدأت عيناي قليلًا ولكنَّ هناك شيئًا في عقلي قد اشتدت ثورته، لم تعد هناك جدوى لتلك الحياة، أتمعن تلك الشوارع التي أحببتها أمامي بعين ذبلت، شرفتي صاحبة المشهد الرائع باتت كئيبة، كيف لشخص واحد، قادر على أن يجعل الجنة في عينيك تبدو وكأنها الجحيم، اللعنة على الحب، القيد الوحيد الذي

يقيدك وتتقبله بكل صدر رحب، ولكنك لا تعلم مدى سوء ذلك فيما بعد، أشعر بأنني أريد التحرر من كل تلك القيود الحزينة، اعتدت على أن أكون حرًا بكتابتي، أحب أن أُحلق عاليًا، لطالما كرهت القيود تحت مسمى المنطق والواقعية، لذا اخترت أن أُحلق في السماء عاليًا بقلمي، حتى أتت إلى حياتي وجعلتني أعتقد أن بتواجدها أستطيع التحليق عاليًا أكثر في أكثر، ولكنني اكتشفت أن لعنتها كانت أكبر قيد قد كبَّلني، القيود التي كسرت أجنحتي ولم تكتفِ بامتناعي عن التحليق فقط.

يمر كل شيء من عقلي سريعًا، يخبرني عقلي أنه قد حان وقت الانتهاء الآن، ذاك الحلم الذي راودني لأيام، أستطيع أن أراه قد يتحقق الآن..

استندت بيدي على سور الشرفة بجسد منهك.

«ياسين» لن أترك يديك مهما حدث، تبتسم، تُشعرني بسعادة عارمة ليس لها مثيل في العالم، وكأنني بالفعل أمتلك العالم، ترى ما الذي يجب فعله بعدما يتعرض شخص لفقد عالمه، لأن يفتقد نفسه...؟

أتحسس سور الشرفة وكأنني لأول مرة أتعرف عليه..

المشهد من هذا المكان مبهر أثق في أنها ستساعدك على إتقان كتابتك أكثر.

يبتسم قائلًا: قد اتخذتها هنا من أجلك.

أنظر بعينيَّ لكل شيء من حولي وكأنني أودعه وداعًا حقيقي، وداعًا من طرف واحد..

لن تمضي وحدك أبدًا يا «ياسين» بعد الآن، فنحن معًا.

رفعت قدميَّ لأصعد ببطء، أتحسس لحظاتي الأخيرة، في عالم لم يكن رحيمًا بي..

صديقي «ياسين» أنا أثق بك، أثق بأنك ستفعل الأفضل دائمًا، مهما كانت الأمور معقدة، لا تترك شيئًا يؤثر بك، سأكون بجانبك، كما تعاهدنا منذ الطفولة، عناق.

أحانَ وقت الرحيل حقًا، وإن كان كذلك فأين رسالة وداعك؟

كم مرة دونت رسالة انتحارك ومزقتها، لذلك لم تكن هناك رسالة اليوم لكي تُمزق، فمن يترك رسالة خلفة يعني أنه ما زال يملك ما يجعله يثني على البقاء، وربما في رسالته كان يتوسل بأن ينقذه أحد بين سطوره الحزينة، ولكن ما من أحدٍ استوعب استغاثته..

أفرد قامتي فوق سور شرفتي في لحظة لم أشعر بمثلها من قبل، أُعلن هزيمتي، أُعلن وداعي، رحيلي..

«رحبوا معنا بأفضل كاتب لهذا العام»

أنا أحبك يا «ياسين»!

أسوأ عدو للمرء هي ذكرياته، انتصاراته التي تحولت إلى هزيمة، سكاكين في قلبه تنهشه دون رحمة كلما حدث ما يذكره بما ما لم ينسه من الأساس، أغمضت عينيَّ، سارت قشعريرة بجسدي، ولأول مرة أغمض عينيَّ عن أكثر المشاهد التي أحببت رؤيتها من شرفتي..

ابتسامة من العدم في مخيلتي قد ظهرت قبل أن يتمايل

جسدي للأمام لشخص لم ألتقه سوى ليلة واحدة فقط.

ثم...

«آسيا»، ذلك هو اسمي.

علا صوت ارتطام جسدي، بعدما سقطت متراجعًا للخلف.

***

يحدث كل شيء في حياتي بغرابة، وعشوائية سخيفة، أعرف سبب تلك النغزة في قلبي الآن، مددت يدي لتلك الزجاجة الموضوعة جانبي لأرتشف بعض الماء ثم اعتدلت واقفًا من فراشي، ونظرت حولي لوضع غرفتي السيئ، أنظر لكل شيء حولي كدت أن أودعه قبل ليلة، لولا أن زارتني بابتسامتها في لحظة أخيرة، لتجعلني أتراجع في قراري دون أن أفهم ما حدث، أوراق مبعثرة في كل مكان، رسائل كتبت لم تلقَ هدفها من الإرسال فكان مصيرها الإلقاء أرضًا ودفنها بما فيها من مشاعر، وطلب العون، واستغاثة شخصٍ كان على وشك الغرق تُرك حتى أصبح في قاع المحيط، صورة وحيدة بالغرفة، هشم إطارها لتذكرني بما حدث مرارًا وتكرارًا كلما نظرت لها، فأردت الانتقام على طريقتي بركلها بكأس القهوة الذي كان في يدي حينها، ومكتب وحيد كصاحبه، امتلأ بالكتب والأقلام المتربة بتركي وإهمالي لها، ولم تكفِ أماكن الاحتفاظ بكلمات أرادت الانبعاث من قلمي فكان مصيرها كتابتها على الحائط، حتى أصبحت حوائط غرفتي الأربعة تتألم لأجلي، اتجهت نحو المطبخ الخاص

بتلك الشقة المتواضعة الكئيبة، كي أصنع كأسًا من القهوة استغاث به عقلي، ثم عدت لمكتبي الذي ظهرت عليه أثر الأتربة من إهمالي له..

تتذكر متى آخر مرة أمسكت بها قلمك؟

مسحت يدي فوق سطح المكتب، راغبًا بعد فترة كبيرة من الابتعاد، في أن أكتب شيئًا، فأتيت بورقة موضوعة أمامي ظهر عليها الملل من ركنتها، ثم بدأت بكتابة أول حروفي بعدما أغمضت عينيَّ للحظات متأملًا فيما أريد أن أقوله..

«تُرى ما هو الأسوأ..

الموت، أم الحياة دون أمل..

أصبحت حياتي كسرابٍ بلا ملامح نهاية، حاولت أن أضع النهاية كثيرًا، ولكن ما من جدوى لذلك، كيف يجعلنا رحيل أحدهم مهشمين بتلك الطريقة، أم كثرة تلقى الصدمات هي من تجعلنا غير صالحين للتعافي.. حتى وإن كنا لا نبدو كذلك في بداية الأمر، فليست كل الأعراض تظهر حينما تحدث الإصابة، وكذلك كان رحيلك..

«تذكرت تلك الوعود التي تعاهدنا عليها يومًا ما، تذكرت رحيلك الذي كان هزيمة مريرة لي، وكلماتكِ التي كنتِ دائمًا ترددينها في كل مرة اجتاحتني بها نوبات اليأس، والإحباط، والاكتئاب، والإيمان التي لم تتوقف عن إشعاله بداخلي حتى لا أستسلم، أتذكر كل شيءٍ رائع كان بيننا جيدًا، ولم أنسَ قط الطريقة التي تخليتِ عني بها بعدما وثقت بكِ، لم يرحل ذلك اليوم من ذاكرتي مطلقًا،

بل ظلَّ خالدًا بداخلي يأتيني في كل لحظة وكأنه كابوس مفزع، وكأن الأمر أشبه بوضع سكين صغير في قلبي اللحظة ذاتها التي كنت مُقبلًا بها على عناقك، وفي أشد الأوقات احتياجًا إليكِ.. هممت بالرحيل!

تُراودني الذكريات التي تكاد أن تخترق عقلي من قسوتها، وابل من الأسئلة التي لم أستطع الحصول على إجاباتٍ لها تُهدِئ من حرب عقلي حتى الآن، كيف فعلتِ ذلك، لم أتوقع ولو للحظة أنَّ الشخص الأقرب إلى قلبي سيُصبح غريبًا وكأنه لم يكن، ودومًا ما كنت حريصًا على إخبارِكِ بما مررت به من ندباتٍ وآلام، حتى أصبحتِ أكثر من يعلم بهشاشة قلبي، ولكنك لم تُقدري ذلك..

كنتِ ملجأي الوحيد الذي أفرُّ إليه هربًا من هذا العالم الرمادي، ولا أعرف الآن كيف أصبحت أفرُّ منكِ أنتِ في ذاكرتي هربًا إلى العالم، أي قسوة تلك التي تجعلنا نختار الآلام بإرادتنا..

إن رحيلك لم يُحزني ولم يؤذني لأنَّك من قررتِ ذلك، ولكن ما يؤذيني تلك الأشياء التي كنا نفعلها سويًّا، والتفاصيل التي ترتبط بكِ والتي أصبحت مختلفة تمامًا الآن، وما يحزنني هو انطفاء قلبي عن رؤية العالم بنظرة وردية مرة أخرى، فلم أنسَ كلماتك بأنك لستِ مثلهم، ولكنك لم تُخبريني بأنك ستصبحين الأسوأ!

في النهاية يُترك للجميع ذكرى رائعة يعتزون بها، وكنا دائمًا أفضل من الجميع، ورغم ذلك.. تركتِ لي أسوأ ذكرى بداخلي قد تعرضت لها على الإطلاق.»

أخرجت زفيرًا مع آخر أنفاس سيجارتي ورشفة ارتشفتها من كأس القهوة الذي انتهى أمره مع آخر حروفي، أمسكت الورقة، ثم نظرت إليها، شاعرًا ببعض الراحة، عواقب أن تكون كاتبًا تكمن في أنك لن تحصل على بعض الهدوء الداخلي الذي ترغب به حتى تتمكن من سرد ما يحدث داخلك من اضطرابات.

فالكاتب يتعافى بقلمه، لذلك إن توقف عن السرد، فتيقن أنه يعاني، ثم تحسستُ حروف قلمي فوق الورقة، وبعصبية اجتاحتني طبقتها في يدي وألقيتها أرضًا غاضبًا من كل شيء، ثم أخرجت التبغ الخاص بي وصنعت سيجارة أخرى سحبت أول أنفاسها بشراهة، وأنا أنظر تجاه خزانة ملابسي التي تتكون من درفتين فقط، ذهبت إليها وفتحت أبوابها لأنظر داخلها، تشعر عندما ترى ما بداخلها أنك قد وقعت داخل جالون طلاء أسود، جذبت بنطالًا أسود، وكذلك جاكت ثقيلًا يحمل نفس اللون، وابتسمت حينما رأيت سترتي الجلدية السوداء التي أفضل ارتداءها دائمًا، وقبعة دائرية الشكل بهتت ابتسامتي عندما رأيتها، لا تشعرها باشتياق إلى من أهدتها إليَّ في ذكرى يوم ميلادي، ثم سحبت نفسًا آخر نفس من سيجارتي ثم اتجهت لمرآتي من أجل ارتدائهم بعدما قررت الخروج.

***

كنت قد قررت ألا نلتقي مرة أخرى، رغم وعدي لها بأننا سنلتقي مجددًا ولكنني أصبحت شخصًا ينفر ممن حوله بسرعة قصوى، لم أعد أفضل مرافقة أحد، حتى وإن كان ذلك غريبًا على طبيعة غريزتي البشرية، لكن شعوري

بالملل وثقل الوقت الذي تحول وكأنه ثلج لا يذوب جعلني أريد مخالفة قراري، وراودتني الرغبة بلقائها أكثر، خاصّة بعدما زارتني ابتسامتها الجميلة من العدم لتجعلني أعود عن ما كنت سأفعله، فاتجهت إليها بعدما أردت في قرارة نفسي أن أرى تلك الفاتنة التي منعتني ببسمتها عن الرحيل الأبدي دون أن تدري، غلبني اشتياقي وكأنني التقيت بقشة منقذ الغريق.

فضلت السير على الأقدام، أحبُّ القاهرة ليلًا، تبدو مبهجة ورائعة للغاية، شعرت ببعض الصداع يتدفق داخل رأسي، ولكني تجاهلت الأمر حينما تذكرتها بدلال رقصها وخصلات شعرها القصير المتناثر وهو يتطاير من سرعة تمايل جسدها، عينيها البنيتين اللتين كشفتا لي عن مدى عمق حزنها؛ رغم اجتهادها لإخفائه، وكأنهما مرآة، رأيت بها ما تعكسه داخلها، لا أعلم هل كانت هذه الحقيقة، أم أنها مجرد انعكاس لما بداخلي أنا، فقررت الذهاب لأراها مرة أخرى، وأنا أفكر فيما قد أقول مبررًا سبب غيابي في الليالي الماضية، وأتذكر كيف دارت الأحداث بيننا في ذاك اليوم، حيث شخصيتها العجيبة، والغريبة، والتي جذبتني رغم استيائي منها في البداية..

***

5

«الحياة أقصر من أن نهدرها في حزننا.»

آسيا

***

- لنحتسها بالشرفة.

قلت جملتي تلك وأنا أتجه نحو شرفة منزلها الواسعة، والتي أعجبت بها بشدة حينما دلفت إليها، حيث طلتها على النيل ومشهد ساحر من أمامي، فابتسمت وقلت مداعبًا:

- هل ما زال هناك شيء آخر قد أندهش من اكتشافه؟

ثم وجهت نظراتي إليها وهي تجلس على المقعد المتواجد مبتسمه لي، فأردفت:

- أنتِ تملكين موقعًا ساحرًا.

ازدادت ابتسامتها وقالت مازحة:

- كونك كاتبًا، هو ما جعله ساحرًا في عينيك.

فبادلتها الابتسام، حتى بردودها تبهرني، وأنا أصنع سيجارة لها بعدما انتهت سيجارتي وسحبنا أول أنفاسنا باستمتاع ورشفة من كأس القهوة، ثم قلت وأنا أزفر دخان سيجارتي ناظرًا لعينيها التي جعلهما ضوء الشمس عسليتين بعدما كان اللون البني هو لونهما في انعدام الضوء:

- الآن أريد أن أعرف من أنتِ، وما تلك الحياة التي تعيشينها وأين أهلك، أصدقاؤك.. لماذا أنت وحدك هنا؟

فارتشفت رشفة أخرى من قهوتها، ثم قالت بابتسامة

صفراء:

- وهل سيشكل هذا فارقًا معك؟

- بالتأكيد، فكيف عرفتِ هويتي، وكيف لا تخشينني لهذا الحد الذي تكوني به من الحرية أمامي في منزلك، داخل غرفتك، ألا يبدو شيئًا غير منطقي!

قلت جملتي الأخيرة مستفسرًا بتعجب واضح، ثم سحبت نفسًا آخر وأنا أنظر إليها بترقب، فتنهدت وقالت وهي تنظر إليَّ:

- إن كنت أخشاك فلمَ أتيت بك إلى هنا من الأساس، ولكنني أعرفك جيدًا، فأنا لا أعرفك من صدفة ما حدث البارحة فقط وإنما لم تصدق عيناي عندما رأيتك بالأمس في هذا المكان، قلت في نفسي ربما اشتبهت بك، لكنني بعدما اقتربت منك تأكدت من أنك هو، وكان يبدو عليك أنك لا تروق لهذا المكان.. فكل منا يذهب إلى ما يشبهه، لكنك كنت تبحث عن شيء تهرب من عالمك خلاله.

لم أتوقع ما سمعته، فآخر شيء كان من الممكن أن يجول في خاطري أن هناك من يعرفني في ملهى ليلي، استمعت إليها وعيني ثابتة عليها وهي تكمل قائلة:

- حتى أتيت إليك.

طال صمتي منتظرًا أن تكمل، فسحبت هي آخر نفس متبقٍ من سيجارتها ثم قالت والدخان يتطاير من فمها:

- أعرف الكاتب «ياسين الشافعي»، الذي لم يستمر

طويلًا على الساحة بعدما كان متنبئًا له بمستقبل باهر، لا تظن أن كل من هم في ذلك المكان بهذا السوء الذي رأيته في عينيك بالأمس، ربما قد يكون من بينهم من هم مثلك بغزارة، ولكن الحياة لا ترحم أحدًا يا كاتبي المفضل، فلكل شخص منا معاركه الخاصة، انتكاسات قد أدت به إلى الهلاك، حتى لم يعد يستطع تحديد ماذا هو فاعل، مثلك تمامًا..

طال صمتي، أردت أن أستمع إليها أكثر قبل أن أهاجمها بسؤالي الأخير، حتى أردفت وهي تنظر إليَّ محدقة:

- أتعرف لماذا كاتبي المفضل؟

فرفعت كتفي وأنا أنظر لها في علامة مني بأني لا أعلم:

- لأنك مثلي، ليس لأن كتاباتك أعظم شيء، لكنك تشبهني كثيرًا، فقد تعايشت ذلك الشعور الذي مررت به، عرفت كيف يكون ألم الإخفاق بعد النجاح الكبير، معنى أن تعود لنقطة الصفر أو ما قبلها، بعد كل تلك الخطوات التي اتخذتها، تابعت قصتك وقصة اختفائك تدريجيًّا من فوق الساحة، أعلم كيف كان الأمر مريرًا معك..

ثم أشارت إليَّ بيدها في علامة منها بطلب الانتظار، وبعد ثوانٍ عادت مرة أخرى تخرج يدها من وراء ظهراها حاملة في يدها رواية أعرفها جيدًا، تحمل تفاصيل كتبتها وتعايشتها، روايتي.. فحدقت لها وروايتي في يدها وابتسمت نصف بسمة تعبر عن خيبة الأمل التي أشعر بها الآن، لتردف كلماتها:

- تلك روايتك.. حتى وإن نسيتها، ونسيت ما وصلت إليه من خلالها، على الأقل هي ما زالت حلمًا ملموسًا، ثم وضعتها أمامي، وطالت نظراتي لأسمي الذي يعلو غلافها، وكأنني نسيت من أكون، وكأنني أتذكر ما محته الأيام من ذاكرتي، فنظرت لها لأجدها تبتسم لي أمام نظراتي التائهة، وأكملت قائلة:

- أمَّا عن حضورك هنا، وحريتي الكاملة التي أتمتع بها أمامك فلا خوف من هذا، لأنني رأيتك بالأمس أنك شخص يسعى لمداواة روحه، وليس للبحث عن إرضاء غرائزه، لذلك لم ينتبني الشك بتاتًا تجاهك أنك قد تفعل شيئًا، ولو أن أي رجل غيرك كان قد حاول فعله، خاصَّة بعدما رأيتني بالأمس في أكثر حالاتي إغواءً ولكنك لم تبال بهذا..

نظرت لها وتساؤلات كثيرة دارت في عقلي ثم سألتها بفضول:

- «آسيا» من أنتِ، وكيف أصبحت هكذا؟

صمتت هنيهة لثوانٍ.. ثم تنهدت وكأنها تخرج زفيرًا محملًا بالأعباء على قلبها:

- الحياة دائما أقصر من نهدرها في حزننا..

كانت تلك مقولتي وكأنه شعاري الذي قررت اعتماده من بعد ما حدث ومررت به من انتكاسات قوية كانت سببًا في تغير مسار حياتي تمامًا، منذ صغري في عائلتي بيني وبينهم فجوة كبيرة، أخان ولدان كانا لبعضهما، كان اهتمام أبي الأكبر بهما، رغم أن ما يحدث بالفعل في

العائلات الأخرى هو عكس ذلك، لم يجبني أحد منهم قط على أسئلتي التي طالمًا راودتني، نمت ليالي كثيرة ابكي في سريري، لماذا أنا وحدي دائمًا رغم أن جميعهم كانوا حولي، كانت الشدة في بيتنا مطالبة من أب وأخين، وأمي تكمل معهم، بدافع أننا نحميك، فكان خصوصيتي مستباحة بشكل يؤذيني في كل يوم يمر، غرفتي لا تغلق، حياتي كانت عبارة عن اقتحامهم لي، ولأنني كنت الضعيفة بينهم ما كان عليَّ سوى الاستجابة والبكاء كل يوم في غرفتي دون صوت، أذكر أنني في مرة رأى أخي ولدًا من سني عندما كنا في الطفولة حاول التحدث معي فأجبته عابرة دون القصد لشيء ليصفعني بمجرد أن عدت إلى المنزل حتى كادت أن تنفجر الدماء من وجهي، فانهرت بشدة ولم تعانقني سوى أمي الطيبة أما أبي عندما أخبرته فشعرت بأنني لا أعني له شيئًا بعدما أخبرني بلامبالاة أن أخاك خائف عليك، ليتكون شعور الكره في قلبي حينها تجاههم شيئًا فشيئًا، ومع كل موقف كانت صلابتي من شدة إهانتهم لي تزداد أكثر، حتى ذهبت للجامعة وكانت المرة الأولى التي أحمل بها هاتفًا محمولًا وبالتالي كثرت المخالب التي تريد نهشي منهم، فكانت كل حساباتي الشخصية مسجلة عند أشقائي، وأبي يشجعهما على قسوتهما تلك، وما كان لي بينهم سوى أمي المغلوبة على أمرها، ولم يعلموا بجهلهم أنه إذا أراد الإنسان ارتكاب الخطأ فسيفعله وإن كان مقيدًا بحبل من المشنقة، ومع مرور الأيام صرت أقف أمامهم وأتحمل إهانتهم وتطاولهم أحيانًا كي لا يعتقدون أنني لا زلت ضعيفة مثلما مضى، نتج عن ذلك سحب هاتفي في بعض الأوقات، وحبسي في غرفتي

لبعض الأيام وتسبب ذلك مرة في إخفاقي وإعادة السنة مرة أخرى، كنت أتعلم المهارات وأطور من نفسي كي أستطيع جلب المال وأتحمل مسؤولية نفسي وعدم الاحتياج لذئب منهم، نعم إنهم ذئاب وليسوا إخوة، يرجمونك بالجفاف وبعدما يموت قلبك وتصبح مثلهم يتهمونك بالعار والخيانة..

وذاك ما حدث بعد أول علاقة قد خضتها في حياتي وتعتبر الأخيرة لأن من بعدها كل شيء تغير، فمع كل يوم كانوا يتمادون في منعهم للأشياء عني كانت رغبتي تجاهها تزداد، فتاة لم تعرف معنى العلاقة إلا من الأفلام والقصص والروايات، كان دائمًا أي شعور داخلي أواجه بالكتمان حتى صرت لا أعرف كيف يكون الحب الذي يتعايشه المرء..

لتأتي أول فرصة لي بمعرفة «كريم» ذاك الشاب المختلف والجذاب، صاحب العلامة الكاملة لجذب الفتيات نحوه، بالفعل كفتاة ساذجة خبرتها عبارة عن قصص قرأتها كانت لا تعلم شيئًا، انجذبت إليه ومن وسط كل فتيات الجامعة كنت أنا من أشغله، سعادتي كانت لا توصف، فقد حصلت على قلبه، تعايشنا أجمل عامين من الحب والتفاصيل في الخفاء، كان أول عناق، أول قُبلة، وأول مشاعر ودقات تسري بداخلي كانت له، لم أستطع التحكم في مشاعري أمامه، تعلم أنْ بالحب وحده يصبح القوي ضعيفًا، كانت حياتنا قد ارتسمت وفي انتظاره ليتقدم لي بعد التخرج مباشرة، كنا سعداءَ حقًّا، وكان هو ملجأي الوحيد من هذا العالم الذي لم أعرف به شعور

الاطمئنان سوى معه، كنت أفعل كل شيء كي أحافظ على علاقتنا تلك، حتى جاء الموعد بعد التخرج وبعدما قام بالتقدم لي وبطلب الزواج مني رفض والدي قاطعًا، وأخبرني بأنه ليس مناسبًا لي، بكيت حتى كدت أفقد عينيَّ، لماذا تقررون لنا ما المناسب وما غير مناسب، لماذا يجب أن نتعايش حياتكم، أنا أحبه، سنتجاوز كل شيء معًا وسيكون لي أمانًا، ولكنني وُوجهتُ منهم بالعنف كما اعتدت فقررت الانتقام منه جميعًا بأن أفعل من وراءهم ما قرروا منعي من فعله أمامهم وبالفعل تزوجت من «كريم» سرًّا دون ضمان أي حقوق لي، كل ما كان يدور في رأسي حينها أن أكون معه، ثم بادرته بفكرة الهروب بدلًا من ذلك الحال الذي نحن عليه، كي أكون معه في لحظاتٍ نختطفها من الزمن، ولكنه رفض لأنه غير مدان بشيء كي يطارد حياته، لتكون أول صدماتي به، ولكنني كنت أحبه فما شغلني شيء سوى أن أكون معه، مارسنا الجنس كثيرًا خاصَّة بعد أول مرة كنت خائفة بها ولكنه كان مبهرًا فلم أشعر بشيء وعرف كيف يحتويني، وأحببت ذلك معه مثلما أحببت كل شيء، تعايشنا على ذاك الحال لأكثر من ثلاثة شهور أتردد على بيته، بالطبع كان زواجنا عرفيًّا لا يعرفه أحد، أعرف أن ما ارتكبته كان خاطئًا، فربما كنت أنتقم من نفسي قبل أن أنتقم من عائلتي ولكنني في نهاية الأمر كنت مجبرة على ذلك، حتى حدث ما كان في الحسبان وظهرت أولى علامات حملي، ومن هنا بدأ كل شيء يتضح أكثر، كنت مجرد نشوة له بعدما رفض، أخبرني أنه انتقم منهم من خلالي أنا، فقد حطموا قلبه وكانت فرصة أن ينتقم

منهم من خلال تلك التي أحبته وضحت بكل شيء من أجله، واجهني بكل قسوة مثلهم، حتى ظننت أنه ذئب منهم متنكر في صورة إنسان، ثم أخبرني أن أبحث عن والد ذلك الجنين الذي أحمله في جوفي، بالفعل انهرت وأحكمت قبضتي على عنقه ولكنه كان أقوى مني فصفعني بقوة ثم قام بطردي وأخبرني بأنه إن ظهرت له مرة ثانية فسيفضحني أمام عائلتي والجميع، لأنهار باكية في الطريق، «كريم» وعائلتي كانوا يستحقون القتل لأن أمثالهم هم من يجعلون الحياة سيئة، فكرت في الانتحار ولكنني قررت مقاومة كل ذلك بتحديهم جميعًا، فالخاسر الوحيد سيكون أنا، بالطبع أسقطت الجنين وهربت بعيدًا عنهم جميعًا واتصلت بأمي في ذات ليلة أخبرها بأنني اشتقت إليها وألا تقلق عليَّ قبل أن يختطف أخي منها الهاتف ويخبرني بأنني إن عدت فسيكون القتل مصيري، لأبصق في وجهه بعدما أخبرته بأنني أكرهه أكثر من الشيطان نفسه ناهية الاتصال وكانت تلك المرة الأخيرة التي أستمع فيها إلى صوت أمي.

سرت في أنحاء المدينة كثيرًا حتى كان هنا أول قرارتي بأنني سأبدأ من هنا، لطالما أرادتني الحياة أن أستثمر في وحشيتها، فمرحبًا بذلك.

انتهت «آسيا» من كلماتها وحكايتها ونظراتي إليها ثابتة، وأنا أشعر بالحزن داخلي لما استمع إليه منها، ثم وقفت واستندت على سور الشرفة، وأردفت وهي ناظرة أمامها، بنبرة مهزومة:

- لم أستطع التأقلم والتعايش هنا، فتاة وحيدة، فاتنة في

منتصف عمرها، كيف ستتعايش هنا وسط هذا المجتمع الذي يركض وراء أي فتاة مثلي قليلة الحيلة، حتى ذهبت لملهى غير الذي رأيتني به، ومن هنا بدأت رحلتي به، وصناعة حياة أخرى مجددًا لم أرَ بها يومًا من الراحة، لكنني رأيت ظلًا يحميني من ذلك المجتمع الموحش، ترددت عليه باستمرار حتى عملت به كنادلة، طلب مني صاحبه ذات ليلة أن أكون من تلك الفتيات التي تعطيك ما تشتهيه من أجل المال، لم أوافق على هذا فقط عملت كنادلة، ولكن لم يستمر الأمر طويلًا حتى قام بطردي، فقررت ألا أعمل في مكان ثابت مرة أخرى، ولن أعمل كنادلة، كانت قد تكونت داخلي الخبرة الكافية التي تمكني من إخراج المال من هؤلاء الذين لا يملكون أكثر منه، فأصبحت أتردد كل ليلة على مكانٍ مختلف، أعرف رجلًا هنا، أجعله يتشبع بجمالي وفتنتي، حتى أحصل منه على المال الذي أريده وأتركه سكيرًا لا يعرف مع من كان يجلس، بقيت على هذا الحال حتى كونت مبلغًا جيدًا، أستخرج منه إيجارًا لتلك الشقة، واقتنيت هذه السيارة المستعملة التي معي، بعدها أصبحت أتردد على هذا الملهى الذي رأيتني به، فقط لأنني أدمنت وجودي وسط الصخب، ولأتهرب من حالي..

توقفت عن الحديث فجأة ثم نظرت إليَّ بأعين تكونت دموعها داخلها:

- مثلك تمامًا، أتهرب مني..

ثم عاودت النظر أمامها، لأجدني أنهض رغم عني، وأتجه ناحيتها، حتى وقفت جانبها ملتصقًا بها، ثم مددت

يدي لأمسك رأسها وأقبلها في هدوء.

***

سِرت حتى وصلت إلى المكان الذي أراني أبدأ طريقًا آخر من خلاله، لا أعلم كيف ستكون نهايته، لكنني أردت الهروب فقط.

كيف للمرء أن يهرب من نفسه؟

أيقنت أنني أهدر وقتًا لا أكثر، ولكنني تمنيت لو أن يساعدني هذا قليلًا على تغيير شيء، لقد سئمت كوني شخصًا ضائعًا، وضلَّ طريقة الذي ضحى بالكثير من أجل الحصول عليه، فعلت كل شيء ممكن للخروج من هذه الحالة التي وكأنها ابتلعتني، وحش مفترس سيطر عليَّ ولم أعد أعرف كيف التغلب عليه بالفرار منه، حاولت أن أكتب مرارًا وتكرارًا، حتى أيقنت أن نهر الكلمات الذي كان من المستحيل جفافه، قد نضب، رأسي تتأكل، لا أستطيع إنقاذ نفسي منها، فأشد الحروب حمية هي التي تقوم بين شخص وذاكرته، كنت أرغم نفسي على الجلوس على مكتبي، أمسكت القلم لأيام متعددة في محاولة لمواصلة مسيرتي الكتابية، ولكني لم أستطع كتابة جملة واحدة في روايتي الجديدة، التي هددتني دار النشر خاصتها إن لم انتهِ من كتابتها وأرسلها في نهاية ذاك العام ستلجأ لاتخاذ الإجراءات القانونية معي، فما يحدث داخلي أصبح أكبر بكثير من كونه شعورًا في إمكاني تحويله إلى كلمات والتعافي منه، أراكِ في كل شيء، لا أعلم بماذا تسمى هذه الحالة، هل أنتِ لعنة، أم كانت علاقة جميلة وانتهت، فترة كفترات الحياة التي نمر بها وتنتهي على أي حال، أتساءل

كل ليلة لماذا أنتِ لا تنتهي في عقلي رغم انتهاء كل شيء بيننا، حتى أنني تفاجأت بحالي وأنا أفكر بكِ قبل أن أخلد إلى النوم من شدة اشتياقي لكِ، على أمل رؤيتك في أحلامي، بعدما أصبح الواقع لا يسمح بهذا، أريد إخبارك أن لهيب اشتياقي لم يعد هناك ما يهدئه غيرك، تتآكل روحي، أنطق حروف اسمك في كل ليلة بتنهيدة نابعة من قلبي، مترقبًا شعورك بكياني الذي تحطم فوق رأسي، رغم إدراكي المفرط بأن لم تعد هناك فرصة أخرى قد تجمعنا، بكيت، وبكيت كطفل تائهٍ لم يعد يستطع ماذا يفعل كي ينقذ نفسه من ورطة لا يستحق أن يضعه القدر بها في هذه السنّ الصغيرة، يقال أنَّ في البكاء نجد التعافي أحيانًا، كانت تلك المقولة صادقة معي في كل وقت بكيت به، إلا عندما رحلتِ فأدركت أنها كاذبة، فلن يعافيني سوى عناقك، وقبلة فوق جبهتي بشفتيك الصغيرتين تخبرينني بعدها أنكِ لن تذهبي مرة أخرى.

حاولت السيطرة على نفسي مرة أخرى، عاودت رأسي إلى واقعي، لم تعودي معي وانتهى الأمر، نظرت أمامي بعين ملؤها الحسرة على خسارة صاحبها، حتى انتهى الطريق دون أن أدري، لأجدني واقفًا أمام ذاك الملهى، فدلفت إلى الداخل دون أن أفكر هذه المرة، كل ما كان يشغل تفكيري فقط هو رغبتي في رؤية صاحبة تلك الابتسامة التي أنقذتني مرة أخرى، الترحيبات والأجواء ذاتها، ما زال الرقص مستمرًا، ومحاولات الهروب لهؤلاء الناس لا تنتهي، كانت عيني تعرف عن ماذا تبحث، حتى وجدتها بطلتها الأنثوية الجامحة..

كانت هادئة هذه المرة، تجلس على الطاولة ذاتها وحدها، تدخن سيجارتها الرفيعة، وأمامها كأس من النبيذ الذي كانت أول مرة أضعه في فمي كان هنا، فاتجهت إليها، لتصطدم أعيننا من بعيد وترتسم ابتسامتها وهي جالسة في هدوء، حتى اقتربت منها لتترك سيجارتها وتفتح إليَّ ذراعيها وكأنها تشعر أنني في احتياج لهذا بشدة، فركضت نحو حضنها، وعانقتها في هدوء اجتاح عقلي عندما رأيتها مجددًا لتخبرني هامسة في أذني:

ـ كنت في انتظارك، اشتقت إليك كثيرًا أيها الغريب.

انتهيت من عناقها وجلست مواجهًا إياها، وأنا أبتسم من كلماتها، ثم رددت بهدوء:

ـ أراكِ الآن أجمل من المرة الماضية.

- هذا لأنني أعرف أنك لم تحب مساحيق التجميل كما كنت تميز شخصية روايتك دائمًا.

فابتسمت لشعوري بأنها تهتم حتى بأدنى تفاصيلي، رغم أنني لم أتحدث عن نفسي كثيرًا، فلكل شخص في كشف ما بداخله طريقة، ما يحبه، ما يكرهه، ما يتمناه، ما يريد فعله وكانت طريقتي هي شخصيات رواياتي، أخلق في كل شخصية تفصيلة من روحي، دون أن يلاحظ أحد أنني في تلك التفصيلة لشخصيتي الخيالية، لكن في حقيقة الأمر أتحدث عن نفسي.

مختلفة في كل شيء، حتى في انجذابي إليها، تبهرني بما لم أتوقعه، فنظرت في عينيها، وصمتُّ هذه المرة مكتفيًا بنظرتي لها بتمعن، لتداعبني هي بنبرة أنستني ما كنت غارقًا

به منذ لحظات، وأردفت:

- أتفكر الآن في تجسيد شخصيتي في إحدى رواياتك الجديدة؟

بالطبع فكرت في الأمر، لا أعلم كيف هي بتلك الجراءة، يكمن سر انجذابي إليها كان بسبب تلك الصفة بها، ثم حزنت مرة أخرى عندما تذكرت أن مصير كاتب مثلي ينحصر في رواية واحدة لم يستطع بعدها كتابة شيء، فقلت مراوغًا:

- ألم تشتاقي إلى متعة تبغي..

ثم أخرجت علبة التبغ الخاصة بي، وأشرت بها في يدي إليها، لتبتسم في حماس وهي تطفئ السيجارة التي كانت تدخنها قائلة:

- بل اشتقت إليها..

ثم مدت يدها بسرعة لتختطفها مني، وأردفت بدلال وهي تمايل رأسها:

- واشتقت إلى صاحبها أكثر أيها الغريب..

صمت وأنا أبتسم لأفعالها التلقائية، ثم بادرتها متسائلًا:

- لماذا تنعتينني بالغريب حتى الآن، ألم يكفِ كل ما تعرفينه عني؟

فابتسمت قائلة:

- أنت غريب في كل شيء تفعله، ولست غريبًا عني أنا، حتى في طريقة حزنك، واستمتاعك، وتمردك على الحياة، وسقوطك، غرابتك تتمثل لي بأنني لم أر مثلك من

قبل، ولست لأني لا أعرفك أيها الغريب.

ثم بدأت في صنع سيجارتها بالطريقة التي رأتني أفعل بها ذلك، فصمتُّ وأنا أتأمل إجابتها التي لم أعرف إن كانت حقيقة، أم مبالغة منها لا أكثر، ثم تحولت عيني شاردة إلى ذلك المكان الذي كانت ترقص به وأنا تذكر لحظة سقوطي مغشيًا عليَّ وأنا أشاهدها، بعدما أخرجت زفيرًا يعبر عن الملل الذي أشعر به، لتلفت انتباهي مرة أخرى، قائلة وهي تشعل سيجارتها التي انتهت من صنعها:

- ماذا بك، ألم يعد يروق لك هذا المكان؟

ابتسمت ببلاهة، ثم قلت وأنا أشعل سيجارتي ساحبًا أول أنفاسها:

- لا أعرف.

- إذًا لنغادر يا عزيزي من هنا، إن كنت ترغب في ذلك.

شعرت أن الفكرة تروق لي أكثر من البقاء هنا، فوافقت مكتفيًا بتحريك رأسي لتمد يدها وتسحبني إلى الخارج بهدوئها المثير الذي أحببته.

***

6

«فسلامًا على من كانوا كل شيء، وأصبحوا الآن لا شيء..»

***

- اليوم هو عيد ميلادك السادس والعشرون، لا أعلم كيف مرت ثلاثة أعوام منذ أول يوم رأيتك به، كان لطلتك سحر مبهر، حتى قررت حينها أن تلك الابتسامة التي اختطفت قلبي لن تكون لأحد سواي..

قلتها بنبرة هادئة بعدما قبَّلتُ رأسها المتكئة على كتفي مطمئنة وهي تبتسم، وأنا أشعر بتلك القشعريرة الدافئة التي تسري في جسدنا معًا الآن ثم أردفت قائلًا:

- حتى نجلك هذا عندما تستمعين إلى كلمات أداعب روحك بها، أحببته..

فازدادت ابتسامتها أكثر، لتحتضنني كطفلة مُدللة في حضن أبيها وقالت هامسة:

- في مثل هذا اليوم، فيما مضى، لم أكن أُبالي قط بذكرى يوم مولدي، حتى جئت أنت ليتغير بك كل شيء في حياتي إلى الأبد..

- إذًا تعترفين الآن أنني من يستحقك عن جدارة.

- أنا أعترف بذلك منذ أول عناق بيننا يا «ياسين»

فابتسمت وأنا أنظر للسماء الواسعة من فوقي، شاعرًا بأجمل لحظات عمري، شاعرًا بحريتي لأنني معها، ثم قلت

لها بنبرة مداعبة:

- هيا بنا يا صغيرتي.

فردت متعجبة:

- إلى أين!

- إنه يوم لا يتكرر، لنجعله مختلفًا.

لتبتسم في خجل وتنهض معي، سرنا كثيرًا في شوارع القاهرة الحبيبة، أحبَّتْ «سارة» القاهرة من عشقي لها، شهدت الطرق على حبنا في ذاك اليوم، تشاركنا كل شيء من طعام، ثم الحلو، حتى كوب القهوة الشهير بمنطقة وسط البلد، حتى ضوء القمر في السماء والنجوم فوقنا، فسحبتها من يدها واتجهنا نحو منزلي لأرى علامات التساؤل على وجهها، حتى أجبت قبل أن تتفوه بكلمة واحدة:

- حان موعد الهدية.

لتبتسم، وفي ابتسامتها شعرت أنها أنارت الشوارع من حولي، ثم أمسكتها من يدها لنتخطى الطريق كطفلة صغيرة أخشى عليها، لنصعد معًا بالبناية التي أسكن بها، ودلفنا إلى شقتي لتفاجئ بحالٍ لم تكن تتوقعها.. ولأشكر «خالد» في نفسي مبتسمًا الذي قام بتجهيز كل ذلك وبطريقة أجمل مما أخبرته بها.

إضاءة باهتة من النوع الذي نحبه، طاولة صغيرة زُينت بقطعة كبيرة من الكعك تتوسطها شموع شكلت رقم السادس والعشرين، ومقعدين على كل طرف منها،

وصورة جمعتنا، بجانبها رسالة مغلقة في شكل مظروف، لتلتف إليَّ وأنا أقف خلفها وأرى لمعة عينيها، وفستانها الهادئ الذي ازداد لمعانه، وكانت مثل الأميرات وهي ترتديه، وفجأة احتضنتني بقوة دون أن تقول شيئًا، شعرت بما يسري داخلها من شعور لا يوصف بكلمات، وإنما العناق أحيانًا قد يكون خيرًا من ألف كلمة وألف معنى، قبلتها في رأسها ثم قلت هامسًا في أذنيها:

- كل عام وأنت معي يا «سارة»، كل عام وأنت أنا..

لأشعر بدفء أنفاسها هذه المرة وهي تبتسم وتتساقط دموعها، ثم قلت لها ها هي رسالتك وأنا أشير إليها، لتنظر إلى صورتنا وتبتسم ثم نظرت إليَّ غير مصدقة فضحكت لحالتها المبهجة، لتتناول رسالتي لها وتبدأ في قراءتها..

«عزيزتي..

أتذكر جيدًا أنه قيل ذات مرة وما الحب إلا للحبيب الأول..

ولا أنسى أبدًا مقولة وما الحب إلا للحبيب الأخير..

ولكنني ما رأيت صادقًا منهم..

فمعكِ أيقنتُ أن الحبَّ ليس إلا لذلك الصادق الذي يُنير طريقكَ المُعتم، ويُرشدك عندما تضل الطريق، وأول من يُبادر بإنقاذك حينما توّشك على الغرق..

لذلك الذي لا يمل مهما بدوت مملًا ويائسًا، لمن يأخذ من نور قلبه ويصنع لك طريقًا جديدًا بعدما فقدت جميع آثار طرقك..

لذلك الذي عندما يراك يخبرك بشغفٍ يغمره كم تبدو جميلًا ومبهرًا وكأنه لم يرك من قبل..

وفي كل أفعاله تشعر مدى عُمق حبه وامتنانه إليك، حتى عندما تتشاجران سويًّا..

لذلك الذي كلما تراه يبتسم قلبك رغمًا عنك، ومهما كنت ضعيفًا مقبلًا على الاستسلام، لا يسمح لك إلا بخلق فرصة النهوض مجددًا..

فأدركت حينها أنه ليس لأحدٍ منهم.

فما الحب إلا لكِ أنتِ؛ لأنكِ الأولى، والأخيرة، وبالعالم أجمع.»

كانت تقرأ وأنا أتابع ملامح وجهها البريئة، وجنتيها التي ازداد احمرارهما أثناء قراءتها لكلمات كتبتها بقلبي، وابتسامتها الجميلة ككل شيء بها، انتهت «سارة» من قراءة رسالتي لها، ولم تحرك ساكنًا، تملك الخجل منها تمامًا فمددت يدي لأمسك يدها بهدوء وأقترب منها، وسحبتها تجاه نافذتي ثم قلت لها بهدوء، انظري إلى السماء، وأخبري نجمة من هؤلاء بما تتمنين تحقيقه، فنظرت إلى السماء ويدانا متشابكتان، ثم عاودت النظر إلى عينيَّ، وقالت بنبرة خفيفة كروحها:

- أنت ذاك النجم الذي أود أن أخبره ألا يختفي من سماء حياتي أبدًا.

ليرتجف قلبي، وأسحبها بقوة إليَّ ضاحكًا في عناق عميق.

***

سِرنا كثيرًا ندخن سجائرنا التي قاربت على الانتهاء، ونحن نتحاكى في كل شيء عنَّا، في شوارع غلبها السكون، ولحظة تحبها روحي لتلك الحالة من هدوء الطرق، أستمع إليها، وتستمع إليَّ، ولكنني كنت حريصًا على أن أعرفها أكثر، ففتاة مثلها قد مرت بالكثير من المصاعب حتى أصبحت بهذه الصلابة، وكيانًا لحالها دون الاعتماد على أحد، كان كل شيء مميزًا فيها، ولكني لم أستطع التوقف عن رؤيتك بها في معظم تصرفاتها، ربما لهذا السبب كنت منبهراً بـ«آسيا»، وفي الوقت حينه أتألم، لأنني أدرك ألا يوجد أقسى من أن يستخدمك شخص لمحاولة نسيان شخص آخر عالق بداخله، أعلم مدى وقاحتي في هذه الحالة إن كانت هذه حقيقتي معها الآن، رغم قصتها، ولقائنا، وعلاقتنا الغريبة مثلما تنعتني، التي قد تكون محقة في رؤيتي هكذا، تجاهلت كل شيء دار في عقلي، وما زالت هي تداعبني في محاولة منها لإخراجي من هذا الشرود المستمر التي اعتادت أن تراه في عيني، كانت قد قاربت على الثانية ونصف ليلًا، حتى بادرتني قائلة:

- من الجيد أنك لا تختار وقتًا مبكرًا تسير به، وإلا كنا رأينا المارين يلهثوا خلفك لالتقاط بعض الصور، والتوقيعات.

ضحكت لسطحية كلماتها، ثم قلت:

- لا، ذلك الأمر لا يحدث إلا مع أصحاب الظهور كثيرًا، وليس مع الكاتب، فالكتبة هنا هم أقل فئة تُعرف في هذه البلدة، من الممكن أن تكوني تقرأين روايتك المفضلة، التي سحرتك ونقلتك من عالم إلى عالم آخر، تتغنين

بأبطالها، وتتمنين لو أن تلتقي كاتبها، وببساطة يكون كاتبها يجلس بجانبك في ذات المكان على سفح القطار التي أنت به أو ربما في المقعد المجاور لكِ في سيارة الأجرة، ولا تعرفينه، وربما تنظرين له بوقاحة لأنه ابتسم على روايته المحمولة أمامه منكِ وتتفاعلين معها، وأنتِ تحسبين أنه شخص أبله يغازلكِ.

فنظرت لي ضاحكة من واقعية كلماتي، ثم قالت:

- ربما تفتقد إلى هذا، إلى أن يعرفك الجميع، فذلك يساعدك كثيرًا على أن تستمر في التحرك كي لا تفقد بريقك..

سحبت نفسًا طويلًا، ثم قلت وأنا أزفره باستمتاع:

- حقًا لا تعلمين حقيقة شيء، يبهرك المظهر، ملاحقة الناس بمعجبيهم، شهوة الشهرة تحجب العين عن الرؤية الكاملة، والحقيقة لها، لم أحب يومًا أن أكون في مكان يعرفني الجميع به، أن تكون الأنظار متسلطة عليَّ، يتحول الأمر من شهرة إلى قيود لصاحبها، الجميع يراقب تصرفاتك، الجميع يعرفك فيتحتم عليك أن تكون تصرفاتك مثالية دائمًا، تفعل كل شيء بحرص، بالتأكيد تلك أمور مزعجة تمامًا بالنسبة لي، فأنا أحببت الكتابة لأنها تشعرني بأنني حر، أفعل بها ما أشاء دون حساب لأحد، فلا خوف من ترقب ونظرات الجميع، ولا انتقادات في أمور شخصيَّة بحتة مثلما يحدث مع الفنانين المعروفين مثلًا، ولا أحد يستطيع إسكات لساني عما أريد قوله، لذلك أفضل الذهاب للأماكن التي لن يعرفني أحد بها تمامًا، أريد أن أشعر بحريتي دائمًا، ولست مقيدًا من أجل نظرة أحدهم لي..

هزت رأسها وهي تنظر إليَّ مباشرة بعدما انتهينا من سجائرنا معا، وفي عينيها الجميلتين شعرت بكلمات أرادت نطقها، ولكنها لم تفعل، حتى فاجأتني برغبتها في هذا التوقيت بزيارة منزلي، فنظرت إليها صامتًا، ثم قلت بتعجب:

- في هذا التوقيت المتأخر!

هزت رأسها بثقة، ثم قالت:

- نعم، أريد أن أحتسي كأسًا من القهوة خاصتك الآن.

فنظرت لعينيها لثوانٍ، وأخفق قلبي لتذكره بما لم ينسه، وأجدني أوافق دون أن أنطق بكلمة واحدة، فقط اكتفيت بإمالة رأسي مستجيبًا ثم اتجهنا حيث الطريق الذي يقرب من عنوان شقتي، حتى وصلنا بعدما سيرنا لمدة ليست قصيرة، ولكننا لم نشعر بها لانشغالنا في الحديث معًا، حتى وقفت أمام بيتي، وقلت لها بحياء بدا على ملامحي:

- تفضلي.

صعدنا، وكلما ابتسمت، فرحت لرؤية ابتسامتها، دلفنا إلى شقتي المبعثرة، والتي لم يعد بها شيء في مكانه الطبيعي، فمضت إليها وهي تتأملها ببطء، ما كنت أريد أن يراني أحد من الداخل، فلقد أصبحت مثل منزلي هذا، كل شيء به أصبح تائهًا عن مكانه، باهتًا مثل إضاءته، ووحيدًا كالأغراض المتواجدة به، ومهشمًا كالرسائل غير المعدودة الملقية أرضًا والمتواجدة في كل جانب من حيطانها، التي طليتها باللون الأسود ممتزجًا بالرصاصي بعض الشيء في

الآونة الأخيرة، فنظرت إليَّ ثم قالت بنبرة بدا عليها الحزن قليلًا:

- ما تلك العشوائية الجميلة يا «ياسين»، من الواضح أنك صادق حتى في أدق تفاصيل حُزنك!

لم أرد بشيء، فقط اكتفيت بصمتي، وفي عينيَّ تلك اللمعة التي تدل على خيبة أمل صاحبها، فما كنت أعرف من قبل أن يكمن الجمال في حزني، وليست سعادتي، ثم تركتني وركضت إلى داخل غرفتي لتستكشف ما بها من عشوائية أكثر، لم أحرك ساكنًا، أو أبدي تعليقًا، فقط تركت لها الحرية مشاهدًا لها وهي تأتي بأوراقي ورسائلي المهملة، وتتأمل كتاباتي وصورنا المعلقة في كل جوانب غرفتي، وأنا أراقب تعبير وجهها الذي يزداد حزنه مما تراه، وتكتشفه، ثم جلست على ركنتي الوثيرة المقابلة لصورتنا المهشمة بالصالة وأنا أصنع آخر سيجارة متبقية، ناظرًا إليها، حتى انتبهت لخطوات قدمها قادمة نحوي مرتبكة، وهي تحمل رواياتي وتلك الرسالة الأخيرة التي كتبتها قبل أن أغادر منزلي لمقابلتها، لتجلس على طرف الأريكة، وتحدثني وهي تنظر إلى كلمات «سارة» التي وثقت بها أولى طبعات رواياتي قائلة بصوت على وشك البكاء:

- من الواضح أنها كانت علاقة لا تستحق تلك النهاية المأسوية..

نظرت لها بخيبة أمل، أخرجت زفيرًا عبَّر عن مدى اليأس الذي تملك من روحي، ثم قلت دون أن أنظر إليها وفي عيني دموع تكونت أحاول كتمها:

- سلام على من أصبحوا لاشيء، بعدما كانوا كل شيء.

لتقف أمامي وتنظر إليّ بعينٍ دامعة شعرت بمرارة ما يسري داخلها، وأردفت:

- وأيضًا ولا أنت كنت تستحق أن تكون نهايتك هكذا يا ياسين.

لتتلاقي أعيننا في حسرة، بعدما ألقيت بسيجارتي أرضًا، واكتفيت بابتسامتي اللامبالية التي تعبر عن هزيمتي، لتقترب مني بعدما سقطت رسالتي ومعها روايتي من يدها من شدة ارتجاف جسدها، وعانقتني بقوة وهي تبكي بصوتٍ مكتوم، على ذلك الشخص الضائع أمامها.

***

7

«مـا وراء الكواليــس»

علاقتي بطبيبي كانت ليست كعلاقة عمل كما هو معروف، وإنما كانت صداقة من الدرجة الأولى، لم أشعر ولو لمرة أنني أمام شخص يمارس عمله معي، وإنما صديق التقيته، السند الذي أتكئ عليه كلما ضاقت الأمور بي، أتردد عليه بشكل منقطع، منذ أن بدأت خلافاتي مع «سارة» التي لم أعد أستطيع السيطرة عليها كما كنا في السابق..

- لماذا أنت جالس هكذا؟

- كنت في انتظارك مثلما قلت لك.

- ولكني لم آتِ منذ فترة!

- كنت على يقين بأنك مهما انقطعت عن القدوم فستأتي لا محال.

صمت لثوانٍ، أعرف أنه يحبني مهما افتعلت من تصرفات كان ينصحني دائمًا بعكسها، فابتسم برفق، ثم بادرني بعدما جلست أمامه:

- ماذا بك.

- أتعبتْني كثيرًا، وأتعبني كوني أحبها بطريقة لم يعد داخلي ذلك الشغف لأن أشعرها به، ولكنني لا أستطع المواصلة دونها، فلا يسعني أن أخسرها مهما حدث بيننا..

لم أدرك أنَّ للنجاح أيضًا ضريبة، وخوفًا دائمًا يجعلك قلقًا

من كل خطواتك القادمة خوفًا فقط من أنك لن تستطيع أن تصنع شيئًا على ذات المستوى الجيد مرة أخرى، وما يزعجني منها أنها أقرب إليَّ من نفسي، ولكنها ليست على دراية كاملة بما أشعر به، فالإنسان مهما كان في النهاية لا يُقدر شعور من أمامه طالما هذا الشعور لا يسكنه هو، ولكن في حقيقة الأمر التجاوز ليس بهذه السهولة الذي نحكم بها على غيرنا.

ثم صمت لثوان، وأردفت بعينٍ شاردة:

- لم أعد أعلم شيئًا، ولكنني لا أريد خسارة «سارة»، فرحيلها عني، يعني نهايتي الحقيقية، أريد أن أوضح لها أن ذلك الأمر ليس بيدي، أحاول في كل يوم تجاوزه ومحاولة المواصلة، ولكن في داخلي هناك سد بيني وبين نفسي، ولا أعلم كيف للخوف أن ينتابني لتلك الدرجة..

وما يهزمني في كل ليلة أن «سارة» لم تعد تشعر بي مثلما كانت فيما مضى، فأصبحت لا ترى سوى الركض في الحياة حتى نحصل على ما نريد، متجاهلة كل شيء حولها، حتى شعوري بأنني غير قادر على اتخاذ أي خطوة حتى الآن!

ربَّتَ على كتفي برفق، ثم قال:

- يجب أن تتجاوز خوفك يا «ياسين»، صحيح أننا بعد النجاحات الكبرى التي نمر بها، نخشى من أننا لا نستطيع القيام بذلك مرة أخرى، لكن يجب عليك إدراك الأمر واتخاذ تلك العقبة تحديًا بينك وبين نفسك، أعلم أن الأمر ليس سهلًا، لكن أراك تدع للخوف مساحة أكبر

من حجمه، وذلك أكبر خطأ من الممكن أن يرتكبه في حق نفسه، فالخوف إن منعك عن التقدم فهذا يعني أنك شخص ضعيف، لا يقدر على مواجهة شيء.

استمعت إلى كلماته التي رأيت بها شيئًا من العقلانية ناظرًا لابتسامته الهادئة، وبداخلي الكثير الذي لم أستطع البوح عنه إليه، ثم رحلت.

***

استيقظت من نومي متأخرًا في حالة هذيان انتابتني، جلست قليلًا على سريري ولم أنهض، أتذكر ما حدث في ليلة أمس بيني وبين «آسيا»، بالطبع لم يتجاوز الأمر أكثر من عناق يواسي أصحابه، ثم بكينا في صمت حتى خلدت في نومي وأنا ما زلت عالقًا في حضنها، لتتركني نائمًا وترحل وحدها في هدوء تاركة قبلة خفيفة فوق جبيني، لم أفكر كثيرًا أمسكت هاتفي كي أتصل بها، وبداخلي رغبة لأن أخبرها بأنني اشتقت إليها، ولكن في ذلك الموقع الذي أصبح الجميع لا يكتمل يومه إلا بالتصفح عليه (فيسبوك)، لاحظت إشعارًا من أحد أصدقاء أيام كنت أظنها لن تنتهي، «عبد الله سالم» صديق من ضمن أصدقاء عدة جمعنا هدف واحد ومرحلة واحدة، تأدية الخدمة العسكرية لحماية هذا الوطن، كانت مرحلة ليست من السهل تجاوزها، فترة استيعاب الكواليس الرمادية لكل مشهد وردي مكتمل المثالية في أذهاننا، كنا نتمنى مرورها من فرط صعوبتها ولكننا أدركنا فيما بعد أنها كانت -ورغم مرارتها- ليس بذاك السوء الذي نعتقده، فالحياة ومعاركها التي لا تنتهي لا يوجد أقسى منها، كانت المداهمات في

سيناء هي أكثر ما عرفناها وعرفتنا في تلك الأيام، سقط منا الكثير من الأصدقاء، حتى أصبحنا أشخاصًا جافين بقدر ما كنا نراه من قسوة ليالٍ هذه الفترة، نتعايش يومك وأنت تحمل سلاحك وربما يكون يومك الأخير، أيام حكم النفس على النفس، وتحمل ما كنت تظن أنك غير قادر على حمله لحظة واحدة، تجعل منك الحياة العسكرية بجفافها شخصًا حادًّا الشعور، وكأنك أصبحت جمادًا في تقبلك لأحداث الحياة من حولك، ومثل الآلة في تحركاتك التي تصبح روتينية مع مرور الوقت، كنت دائمًا أخبر «عبد الله» بأنني أشعر بأن تلك الأيام لن تنتهي إلا بنهايتنا، كأصدقائنا الذين رحلوا وتركونا نتألم، مفتقدين غيابهم، كانت رغبة الثأر لهم تجعلنا كالمغيبين عن العالم، لا نريد شيئًا سوى رؤية دماء كل من أطلق رصاصة واحدة علينا، كان الموت يؤلمنا، وكانت الحياة تؤلمنا أكثر، وجملتي الوحيدة التي كنت أتفوه بها دائمًا لجميع من حولي، نحن مجبرون على التجاوز، والآن قد تجاوزنا، ولكنني علمت الآن كم كانت هذه الأيام بقسوتها أرحم مما أراه الآن، أفتقدني، وأفتقد ذلك الشخص القوي الذي عاد ضعيفًا مرة أخرى بمجرد انغماسه في معركة الحياة، عدت من شرودي بعدما تذكرت بعض من تفاصيلها مع صديقي الذي لم أعد ألتقي به مرة واحدة ولو صدفة بعدما كنا في وجه بعض دائمًا، قد أشار إليَّ في منشورًا بخبر يحمل وقوع شهداء إثر اشتباك قوي مع التكفيرين، انتابتني نغزة في قلبي، لشعوري بأن هناك صدمة في هذا، فلماذا يذكرني «عبد الله» بالتحديد في ذلك الخبر بذاته..

خبر عاجل: استشهاد المقدم/ رؤوف البنا وملازم أول وثلاثة جنود خلال مداهمة خلية إرهابية بسيناء وأعلنت وزارة الدفاع أن القضاء على الإرهاب هو العزاء الوحيد، وجاري التنفيذ.

تشتت انتباهي لوهلة بعد سماع هذا الخبر بعد استيقاظي بثوان، فالحوادث تلك أصبحت وبكل أسف معتادة حتى لم نعد نتأثر عند سماعها، أما عن من عاش في تلك الحياة، يعلم مرارتها، وتفاصيل آلامها جيدًا، لكن لم يوقفني هذا، فتلك ليست المرة الأولى التي أستمع بها عن استشهاد أحدهم، فلقد تعايشت بينهم، وكان من الممكن أن أكون أحد منهم خلال فترة مدتي العسكرية التي قد قضيتها بسلام في الماضي، ولكن ما أوقفني هو شعوري بأن هناك شيئًا أعلمه، فنظرت بتساؤل حاد على ملامحي إلى شاشة التلفاز المتواجد بغرفتي لأرى بشكل أوضح، حتى ارتجف جسدي عندما رأيت ما كنت أتمنى ألا أراه، ذاك الرجل الذي قضيت معه لمدة ثلاث سنوات من عمري كضابط احتياط، عندما كانت رتبته رائدًا، وأول من علمني كيف أتعايش أيامي في الحياة العسكرية، قد سقط على يد من قضى أعوامًا من عمره يطاردهم ويسقطهم بكل شجاعة وفدائية..

***

- على ماذا تنهمر دموعك يا «ياسين»؟

نظرت في تعجب من وقع السؤال، ثم نظرت إلى صاحبه الذي أقدره كثيرًا، وقلت شاهقًا:

ـ ذهبنا كاملين العدد، وعدنا بدون أصدقاء لنا كنا نتبادل المزاح سويًّا الأمس، وتسألني على ماذا أبكي، هل الموت من أجل الوطن، وترك من أحببناهم خلفنا، شيء لا يستحق حتى البكاء، فنحن هنا منسيون تمامًا، لا يذكرنا أحد، ولا يهتم لنا أحد، فقط يتذكروننا عند استشهادنا وبخبر صغير في أسفل ركن من شاشة عرض فيلم درامي يتعاطفون مع موت أبطاله أكثر منا، لم أعد أعرف على ماذا أبكي، على من غادرونا اليوم، أم علينا نحن لأن معاني الحياة قد غادرتنا ونحن ما زلنا نتنفس، وفي نهاية المطاف، يُكرَّم بطل الفيلم الذي لم يصب بخدش واحد، ولم يرَ شيئًا مما نعاني منه في الواقع، بعدما كان يمثل دور رجل فقد عمره، وعاشت أسرته في ألم لا ينتهي.

فلم ألق ردًا منه، ولم أعِ أنني أتكلم مع قائدي بهذا الأسلوب، ولكنه لم يُبال، فقد راعى حالتي، وأحببته من أجل ذلك في بداية تعارفي به، ثم قال رافعًا يده أمامي أنا ومن تبقى منا على قيد الحياة..

ـ أريد أن أقول لك شيئًا لن تفهمه الآن، ولكنك ستتفهمه فيما بعد، وليس إلى «ياسين» وحده، بل إليكم جميعًا..

فنظرت إليه وما زالت عيني تذرف دموعًا صامتة، أنا ومن حولي من جنود، ورجال كان طريق الشهادة هو مجمعنا، فانتبهنا جميعًا إليه، ولكن بنصف وعي، فحزننا كان له النصيب الأكبر علينا، ثم أخرج زفيرًا بعد صمت دام لثوانٍ وقال بصوت حاول إخفاء ألم صاحبه لما يشعر:

ـ في الحياة خلق كل شخص منا حاملًا فوق أعناقه رسالة

قُدرت له، ووضع القدر أمامنا اختيار إما أن نؤمن بها، أو نكفر، وللجميع حرية الاختيار، ولكن ما يجعلك تتمسك برسالتك، فقط شيء واحد، قيمتك..

ثم نظر إليَّ وكأنه يحدثني أنا وحدي دون أن يكون معنا أحد، وأردف:

ـ أعلم يا «ياسين» أن العالم الذي نعيش به، أصبح منصفًا للبعض وناسفًا للبعض، الصادقون به قد هُدرت حقوقهم، وعلت أصحاب المظاهر المزيفة، ولكن تبقى القيمة الحقيقية في النهاية هي من تجعلنا لا نلتفت إلى كل هذا، فمن مثل دور صديقنا الشهيد قد يكافئ بأجر في الدنيا أضعاف أجره، من حيث الشهرة، والإشادة، والمال، وربما الذكر، ولكن عند الله الأمور تختلف، وليس هنا فقط، بل على الأرض، فقيمتك كرجل ضحى بعمره من أجل حماية وطنه تبقى وسامًا معلقًا على سيرتك إلى يوم الدين، وتاجًا يفتخر به كل من كنت قريبًا منه، من أهل، وأصدقاء، وأحباء، لذلك ليس كما تعتقد أن دم كل من استشهد منا قد ذهب هباء، بل هي قمة التميز يا «ياسين» أن تفوز بالدنيا والآخرة في عين الله، وهذا يكفي، لذلك لا تبكي يا صديقي، لا تبكوا أيها الرجال، فوالله إن كنا سنبكي فليكون هذا من شدة الفرح، لأن الله اختصنا نحن، ووضع تلك الرسالة التي لا يقتدر على حملها إلا الرجال، لكي نكون فائزين بالدنيا والآخرة، وإن كنت سأتمنى شيء، فأتمنى أن أكون من الذاهبين للدفاع باستماتة عن ذلك العهد الذي اتخذته دون أن أعود، بل أذهب لملقاة ربي شهيدًا، راضيًا، وبكل فخر هامسًا أنني قد أتممت

رسالتي بنجاح

***

عُدت من شرودي، وسقطت دموعي رغمًا عني، بعدما تذكرت تلك الكلمات التي غيرت كثيرًا مني، ومترحمًا على ذاك الرجل، الذي كافأه الله بما كان يتمناه، فلترقد روحك في سلام أيها العظيم، وكل اللعنة على تلك الحياة التي جعلت من الرجال أن يلقوا مصرعهم على يد هؤلاء الحثالة، ثم أطفأت شاشة التلفاز، وعدت إلى سريري بعدما ذكرني هذا الخبر بما لم أستطع تجاوزه حتى الآن، في محاولة يائسة لأنْ أهرب من ألمي مرة أخرى، فالنومة التي ينامها المرء بعد فقدان شخص عزيز على قلبه، هي الأصعب على الإطلاق.

***

8

«لك أن ترفض كل شيء، حتى يقع قلبك في حُبِّ أحدهم».

***

تجلس «آسيا» على سريرها تفكر في ذاك الرجل الذي احتلَّ كيانها، وقلب حياتها رأسًا على عقب..

لم تشعر بهذه الحالة من قبل، عانت ليالي طوالًا حتى فقدت الأمل في أن تلتقي شخصًا يخفق له قلبها، تبتسم عندما تتذكر ما حدث بينهما، كيف كانت بدايتهما درامية بكم هذه التفاصيل الغريبة، تتذكر نظراته المتوسلة لها أثناء رقصها، كيف يرتشف قهوته، ويدخن سجائره، طريقة تحدثه الفاترة، ونظراته الثابتة الكئيبة، فتحت هاتفها لتأتي بالصور التي التقطتها لهما سويًّا في شرفتها، وبرغم أنه رفض ذلك لكنها أصرت على أن تكون لها صور خاصة معه، ترى تجاعيده في الصور التي معها، لحيته التي أحبتها كثيرًا، تنظر إلى شاشة هاتفها وتتمعنه باشتياق، تريد أن تقبله، أن يبقى معها ولها دائمًا، يخفق قلبها كلما نظر إليها، تريد أن تخبره ألا ينظر سوى إليها، فعندما نقع في حب أحدهم، لا نفكر في شيء سوى أن يكون هذا الشخص لنا فقط، نحبه دون شروط، دون انتظار مقابل، دون إذن بذلك، فقلبك يدفعك حينها رغمًا عنك، وتفاجئ نفسك مغرمًا بأحدهم دون سابق إنذار، ويا لها من حيرة، عادت «آسيا» من شرودها وهي تتمعن في ملامح «ياسين» ثم خرجت من ملف صورهما وهي تفتح المحادثة الخاصة

بهما ثم عادت لتغلقها دون أن ترسل له شيئًا وهي تفكر في ذاك الأمر الذي راودها أكثر من مرة، تريد أن تتخذ القرار ولكنها تخشى رد فعله، حتى استجمعت شجاعتها المعتادة، وأرسلت رسالة إلى منصة دار نشر ليست غريبة بالطبع لأنها كانت هي الذي يتعاون معها «ياسين»، انتظرت قليلًا حتى أتاها الرد بعد صياغة رسالتها بأنها مديرة أعمال كاتب لديهم وتريد استشارتهم في بعض الأمور، لتبدأ بأول كلماتها فيما تريد فعله، بعدما ذهب التردد من عينيها، وبدأت في الابتسام.

***

«أولًا أعتذر عن الغياب الذي طال لـ«ياسين» عن تقديم ما اتفق عليه، لأنَّ كان هناك ظروف جعلته غير مؤهل لإكمال ما بدأه معكم.. ولكن أصبحت الأمور مهيئة الآن لأعلن عن عودته قريبًا..

لكنَّ هناك طلبًا أتمنى أن يُلبى لي، فبعد تلك الفترة الذي مر بها وذلك الغياب الطويل، تفقد حساسية الأجواء الأدبية، وكيف حب الجمهور إليه، فمن مصلحة الجميع أن نقيم حفلًا بسيطًا ولو على سبيل مناقشة روايته وإعلان عودته مرة أخرى بعمل جديد قريبًا، حتى تكون دفعه رائعة له، فأتمنى أن توافق وتعطيه تلك الفرصة التي في احتياجها «ياسين» ليستطيع النهوض من كبوته مرة أخرى».

كتبت «آسيا» تلك الكلمات بعد أن بعثتها لحساب آخر حولتها الصفحة الرسمية لدار النشر إليها بعدما عرفوا بأمر الحدث الذي تريد مناقشته، ألا وهو حساب مدير دار

النشر.

***

- سارة..

ناداها صاحب الرأس الأصلع واللحية المنمقة، لتنظر إليه «سارة» بعدم اكتراث من مكانها الذي تتابع منه شاشة التلفاز..

فاقترب منها بودٍ مصطنع، في محاوله منه لأن يجعل الأمور بينهم أهدأ قليلًا، ثم بادرها وفي عينيه لمعة رجاء صادقة قائلًا:

- لقد أحببتك يا «سارة» ليس لي ذنب في كل ما حدث بعد ذلك، لو كانت سارت الأحداث بالطريقة التي رسمتها، ما كانت حدثت كل تلك الاضطرابات في علاقتنا..

تبتسم بسخرية، وفي قلبها عدم اقتناع بتلك الكلمات التي تُلقى على مسامعها، لأنها تعلم الحقيقة جيدًا، فاكتفت بالنظر إليه، ليقترب أكثر منها، ثم أمسك يدها وقبلها برفق قائلًا:

- أعدك أن كل ذلك سيتغير وستعود الابتسامة إلى شفتيك مرة أخرى مثلما كنا في السابق.. بعض الأمور قاربت على الانتهاء وسيعود كل شيء هادئًا مرة أخرى.

القلق يزداد بداخلها، على ماذا ينوي فعله ذلك الرجل الذي تغيرت حياتها بسببه منذ ظهوره، ما الذي يقصده في كلماته بهذا الهدوء الماكر الذي تعرفه جيدًا! شردت

وهي تتذكر كل ما حدث، ليبتسم في وجهها بعدما قبل يدها مرة أخرى واستدار ليرحل، بعدما فتح هاتفه وبعث رسالة كتب فيها..

- أوافق على إقامة الحفل يا «آسيا».

***

9

«كيف يواصل الفرد منا، إذا فقد طوق نجاته في ذاك المحيط!»

***

استيقظت على صوت نغمات هاتفي الهادئة التي أيقظتني منزعجًا من نومتي، لأرى بأعين غلبها النعاس أن المتصل في ذاك الوقت الباكر «آسيا»، فلم أُبالِ ورددت بصوت نائم:

- ماذا هناك!

ردت بفرحة بالغة ظهرت في نبرة صوتها جعلتني أتعجب لأستفيق بعض الشيء وهي تقول:

- هناك مفاجأة رائعة لك أيها الكسول.

- مفاجأة ماذا!

لتضحك بمرح قائلة بنبرة مبتهجة:

- لقد وافقت دار النشر المسئولة عن روايتك بأن تكون متواجدًا في حفل لمناقشة روايتك، وتوقيعها لكل الحاضرين من قرائك..

اعتدلت من نومتي جالسًا، بعدما تطاير النعاس من عيني مسرعًا، وصمت لثوانٍ استرجع بها ما سمعت من كلمات، ثم قلت بغضبٍ اتضح في نبرتي:

- لمَ فعلتِ هذا!

شعرت بتعجبها من كلماتي، كانت تتوقع سعادتي عند سماعي هذا الخبر، ولكن الأمر بالنسبة لي ليس بهذه

البساطة، ولا تحسب الأمور بهكذا طريقة، فأنا أبغض المفاجآت وأن يحدث شيء ليس في الحسبان ولست مستعدًا له، فشخص قد سقط بتلك الطريقة في أعين كل من كانوا يثقون به، ليس من السهل عليه مواجهتهم بوجه شاحب بعدما خذلهم، ردت بعدما اختفت سعادتها مسرعًا بسبب ردي:

- الأمر ليس كما تعتقد، الجميع في انتظارك منذ أن اختفيت، الجميع يريد مساعدتك يا «ياسين»، وذاك الأمر سيشكل فارقًا كبيرًا معك، أنت في احتياج لمن يمد إليك يد العون والدعم مرة أخرى، أن تشعر بأنك ما زلت لم تفقد كل شيء، ذاك الموعد من أجل أن نذكر «ياسين» بما نسيه..

أقدر كلماتها، وما تعنيه جيدًا، لكنني لست مستعدًا نفسيًا لذاك الأمر تمامًا، فقد نسيت تقريبًا كيف يكون التعامل مع الناس، أتقبل كلماتهم، أبتسم في وجه من حولي، وتكون ردودي لطيفة دائمًا، ولكنها لن تتفهم هذا الأمر، فلم أرد بشيء حتى استجمعت شجاعتي رغم رفضي الواضح من قلبي وعقلي معًا، قائلًا بتردد:

- أوافق يا «آسيا»، أوافق.

لتصرخ في الهاتف في فرحة عارمة اجتاحتها قائلة:

- إذن سأكون في انتظارك في أي مكان تريده لنناقش تفاصيل ما سنفعله في هذا اليوم..

لأقول لها مبتسمًا على رد فعلها الطفولي هذا:

- لم أخطئ عندما قلت أنكِ مجنونة..

لتضحك بصوت عالٍ هذه المرة، فمن أجمل الأشياء في الحياة أن يصرَّ أحدهم على مد يد العون لك دائمًا من أجل المضي قدمًا، انتهيت من المكالمة مع «آسيا»، ونظرت لشاشة هاتفي لأترقب إن كان هناك شيء جديد، لأرى رسالة كان محتواها عبارة عن نقطتين فقط، فلم أهتم لذلك كعادتي، إلا عند إرسال نقطة أخرى، فتفقدت الإيميل الشخصي لصاحب هذه النقاط الثلاث، لأجد أن الحساب قد أنشئ فقط منذ ساعة، فلم أبالِ فلو كنت مشهورًا بعض الشيء على مواقع التواصل الاجتماعي ستعرف أن هذا شيء طبيعي بالنسبة لما يرسل لك من رسائل دائمة، منها ما يحتوي على مدحك، وهناك من يذمك ويسيء إليك بأفظع الألفاظ لمجرد أنك قد كتبت شيئًا هو لم يتفق معه، وهناك من يحب أن يداعبك بمثل هذه الرسائل، فتجاهلها أفضل حل، ثم وضعت الهاتف جانبي بعدما أغلقته، وأنا أفكر فيما أخبرتني به «آسيا» منذ قليل..

***

- لم تكن في انتظاري هذه المرة..

لم ينظر إليَّ وكأنه لم يستمع كلماتي، فعلمت أنه حزين لانقطاعي عن زياته منذ فترة، فقلت بخجل:

- أعلم أنني مُقصر في ذلك لكنني أحاول دائمًا أن أقاوم كل شيء وآتي واستطعت اليوم..

- ماذا حدث؟

رفع رأسه وقالها بتساؤل ناظرًا إليَّ، لأقترب وأجلس

أمامه، قائلًا بتردد:

- لا أعلم، إن كان ذلك لأنني أشعر بأنَّ هناك شيئًا جديدًا يحدث أم أنني اشتقت للجلوس معك.

- رغم أني لن أسامحك على ذلك الغياب الطويل، لكنني أتطلع لمعرفة ما يحدث في حياتك الآن وخصوصًا الذي تقصده في كلماتك تلك..

ابتسمت دون أن أنظر إليه، ثم قلت وفي عينيَّ لمعة سعيدة:

- قد التقيت شخصًا أشعر أنه يحررني من قيودي كلما أكون معه.. وأعود حبيسًا مرة أخرى كلما تركته.

فنظر لي ضاحكًا، ثم قال:

- على مهلك يا رجل، ألا زالت لم تتعلم من خطئك الأول!

فضحكت معه ثم قلت:

- لا أعلم، لكن هذا ما أشعر به.

- لن أعارضك في ذلك، فنحن في احتياج لأي سبب يساعدنا الآن على النهوض من جديد.

فنظرت له مبتسمًا باشتياق ثم قلت بنبرة حزينة بعض الشيء:

- كان هو من يمد يده ليدفعني للأمام دائمًا..

فهدأ ضحكا سويًّا، ثم أردفت قائلًا شاردًا أتذكر:

- دائمًا منذ الصغر اعتدت على أن أكون أنا وخالد

فقط، حتى أصبحت لا أطيق أن يكون لي صديق مثله، أو في مكانته.

فابتسم نصف ابتسامة بخيبة أمل قائلًا:

- أحترم ذلك كثيرًا يا «ياسين»، ولكن هذا أسلوب خاطئ، فلقد جعلت حياتك معلقة بتواجد شخص واحد..

نظرت له وبثقة قلت:

- كان خالد الصديق الذي يستحق ذلك التعلق..

تحولت لمعة عينيَّ عندما تذكرته، ثم أخرجت زفيرًا يعبر عن مدى ضيقي، وأردفت:

- كنت مكتفيًا بذلك، لم أكن أشعر بأن هناك شيئًا ينقصني، فقط هناك خالد معي، بجانبي، ولم أدرك عواقب ذلك في الوقت ذاته..

مسحت عينيَّ التي تكونت بهما دموعي، ثم أكملت بنبرة مرتجفة:

- حتى أثناء انقضاء فترة خدمتي العسكرية، المرحلة التي يلقبونها بمرحلة الصداقة الحقيقية، لم أعرف أن أتخذ صديقًا لي بها، والتي من الصعب أن تعيشها وحدك، كانت كلها مجرد صداقات عابرة أكونها من أجل تعايش تلك الأيام فقط، أراهم أصدقاء لبعضهم، وليس لي، لا أعرف إن كان عيب بمن كنت ألتقيهم أم عيب بي أنا، ولكني لم أشعر بأنَّ أحدًا يحبني مثله، يتذكرني في غيابي، يكون معي مثل أول مرة كنا بها سويًّا منذ الصغر على فطرتنا، شخص لم يتغير مهما أرهقته الحياة، ننسى كل

همومنا عندما نلتقي، لا يعنينا شيء ما دُمنا سويًّا، ظلت أرواحنا طفولية ولا نخشى شيئًا سوى ألا نكون معًا، لم أشعر بأنني في احتياج لوجود أحد غيره، وتلك هي الميزة التي كانت في علاقتي بأعز أصدقائي، والتي سرعان ما تحولت إلى أكبر عقبة أواجهها الآن..

- كيف!

قالها متأثرًا، فهززت رأسي غير مصدقًا لما أصبحت أتفوه به، ومسحت دموعي التي تكونت في عينيَّ مرة أخرى، الشخص الوحيد الذي كلما تذكرته، يبكي كل شيء بي، روحي، وقلبي، وعيني، ثم أخرجت سيجارة كانت جاهزة، أشعلتها وأنا أسحب أول أنفاسها قائلًا:

- لم أعرف بعد رحيله كيفية التأقلم على هذا، وكأني فقدت نفسي، وليس صديقي، لم أر أحدًا يصلح لأن يكون صديقًا لي مثله، لم أبحث عن «خالد» في أحد، لست بهذه الحماقة لأنني أدرك أن لن يكن هناك مثله، وحتى إن كان هناك، فلم أسمح لأحد بأن يأخذ قدر مكانته في قلبي، ولكن ما أعنيه هو أنه لم يعد هناك متسع لأن تعطيك الحياة فرصة لتلتقي بصديق حقيقي مرة أخرى، الجميع أصبح مؤقتًا الآن، كل منهم يلهث خلف مصالحه الخاصة، وحينما تنتهي لا يتذكرك إلا بمحض الصدفة، لم يعد في العمر متسع لصناعة صديق حقيقي من جديد..

ربَّتَ على كتفي ذلك الطبيب الذي لم يعد يتحملني غيره في تلك الحالة، وأنا أخرج زفيرًا خرج معه كل دخان سيجارتي، ثم أردفت بنبرة كان صاحبها مهشم تمامًا من

داخله:

- في هذه الحياة التي كانت بحراً عميق، كان خالد بالنسبة لي هو طوق النجاة الوحيد، وبعد رحيله، لم تتخذ مراسم غرقي وقتًا طويلًا، حتى اصطدمت ساقطًا بالقاع.. فهنيئًا لكل من كان له صديق حقيقي في حياته، هنيئًا لكل من كان يمتلك «خالد» ولم يفقده.

***

10

«دائمًا هناك فرصة للبدء من جديد»

***

في الشرفة جلسنا كعادتنا، اتفقت معها أن نلتقي في منزلها، فلم أحب صخب الأماكن إن كان هناك قرار سأتخذه، ابتسمت عندما رأتني واقفًا أمام باب شقتها كما اتفقنا بالأمس لنناقش أمر ذاك الحفل الذي قد حددته لي دون علمي، لأنها على يقين تام بأنها إن كانت أخبرتني فلن أوافق مهما حدث..

فتحت لي ودلفت إلى الشرفة آتية ورائي وعلى وجهها سعادة لم أرها قط منذ التقيتها، حتى بادرتني قائلة:

- الكاتب الذي سيتلاحق الجميع للحصول على توقيعه غدًا، جاء ليقضي مع «آسيا» ليلة ما قبل البداية في العودة لطريقه الصحيح مرة أخرى..

لأبتسم وأنا أنظر إليها، وفي عينيَّ تردد واضح لهذا الأمر، فأردفت وهي تنظر إلى عينيَّ مباشرة:

- أعلم أن الأمر صعب يا «ياسين»، ولكنك لديك القدرة على مواجهته، أنا أثق بقدراتك..

نظرت أمامي إلى الطريق الذي يليه نهر النيل، مشهد أحببت أن أراه من شرفتها دائمًا، أتذكر المرة الأولى التي كانت بها «سارة» معي، دائمًا ما أشعر بأن الزمن يكرر نفسه بطريقة سخيفة معي، دوامة لا نهاية لها، فهززت رأسي في حيرة وهي ما زالت ناظرة لي، حتى ربتت بيدها

فوق يدي دون أن تتفوه بشيء آخر، تعلم ما أشعر به الآن، أحبُّ صمتها التي تمنحني إياه حينما تراني أمامها صامتًا، أعشق تفهمها لي، وعدم انزعاجها من صفاتي التي أبغض معظمها، فازدادت ابتسامتها ثم قالت في محاولة لأن تهدئ من روعي:

- حسنًا اجلس هنا حتى تهدأ يا عزيزي، سأعد كأسي القهوة خاصتنا وسآتي على الفور، لنرتب ما سنقوم به غدًا..

ثم استدارت لي وقالت مداعبة بعينيها:

- ولا تنسَ أن تصنع لي سيجارة معك، لا تكن أنانيًا..

فهززت رأسي في إيجاب بابتسامة عابرة ثم انصرفت هي من أمامي، أفكر في الأمر، صنعت سيجارتين، وأشعلت سيجارتي تاركًا لها واحدة، بعد أن سحبت أنفاسها بشراهة ناظرًا لمسار للنيل الهادئ أمامي، أزفر دخان سيجارتي الممتزج بأنفاسي حتى رأيتها تدلف إليّ بطلّة أنثوية جامحة هذه المرة، تحب أن تكون أمامي جميلة دائمًا ومُبهرة، تحب أن تعطيني كل شيء دون مقابل تستغل أننا في فصل الصيف بارتدائها ملابس مثيرة تجعلها تبدو أكثر أنوثة، ارتدت هذه المرة فستانًا قصيرًا أسود، تعشق الأسود كما أعشقه أنا، لم تضع شيئًا من مساحيق التجميل التي تملأ غرفتها، باتت تعرف أنني لا أحب هذا، فقلت لها مداعبًا وأنا أسحب آخر أنفاس سيجارتي:

- انظروا لقد أتت سمو الأميرة بطلتِها لا ينقصها سوى التاج فوق رأسها..

فضحكت، ثم وضعت أمامي كأس القهوة خاصتي، وأخذت السيجارة التي وضعتها أمامي على المنضدة لأصنع واحدة مرة أخرى لي كي تساعدني علِّي أهدئ من روع نفسي، ثم مددت يدي مستجيبًا منها الكأس وأنا أقول مبتسمًا:

- تبدين أجمل من القهوة يا «آسيا».

فاحمرت وجنتاها هذه المرة ببسمة خجول، ثم قالت بنبرة هادئة:

- أنت من أعدت إليّ «آسيا»، لذلك فهي ستعيدك إلى «ياسين» كذلك..

ثم ضحكت وهي تشعل سيجارتها وتسحب أول أنفاسها قائلة:

- ماذا سترتدي غدًا؟

- لا أعلم، ولكن مبدأيًّا الأمر لا يستحق أن تنصحيني بارتداء بذلة.

ضحكت على جملتي، فأدركت أنها كانت ستخبرني بذلك، فضحكت معها وأنا أهز رأسي رافضًا، لتقول وهي ترتشف من قهوتها:

- بالفعل هذا أول ظهور لك منذ غياب يا «ياسين»، فالأمر يحتاج لأرقى مظهر يليق بك.

- حسنًا، سأرتدي قميصًا وبنطالًا، وحذاءً كلاسيكيًّا، لا عليكِ لن يكون حاضر هناك الكثير كما في مخيلتك.

- كان من الممكن ذلك إن لم تكن الدار قد فعلت

كل هذه الدعاية لك، سيكون الحاضرين أكثر مما تتخيل يا عزيزي.

فتوسلت إليها بعينيَّ قائلًا:

- أرجوكِ يا «آسيا» اتركيني على راحتي في ذلك الأمر.

لتبتسم قائلة:

- لا عليك يا كاتبي المفضل.

قالتها ثم أخرجت زفيرًا ومعه دخان سيجارتها، وأردفت قائلة:

- سأكون متواجدة غدًا أمام منزلك بسيارتي، لنذهب سويًّا، أريد منك أن تتذكر تفاصيل روايتك، كي تستطيع الإجابة على جميع الأسئلة..

نظرت إليها غير مبالٍ، بعدما سحبت نفسًا طويلًا من سيجارتي وقلت:

- لا أحد ينسى تفاصيل آلامه.

***

من وسط رسائل ملأت البريد الإلكتروني وكل الإيميلات التي تخصني، وقعت عيني على رسالة شخصًا أعرفه جيدًا، لقد كان سببًا في ظهور عملي الأول والأخير للنور، أستاذ «زياد الصباغ» منذ عدة أيام، لم ألاحظ لانعدام اهتمامي الذي بات عادة فيَّ، فقررت فتح رسالته لأرى ماذا أرسل، ولكن فوجئت هذه المرة على غير المعتاد منه، فكانت كلماته دائمًا في صالحي ودعمي والعودة سريعًا كي لا أفقد مكانتي عكس هذه المرة التي بات بها

بغضيًا للغاية، وكلماته التي أشعرتني بأنه ليس صديقًا كما كنت أعتقد، ولكنها مجرد علاقة عمل، بالنسبة لي أصبح الأمر كذلك الآن، قرأت رسالته وأعدت تمتمتها مرة أخرى في نظرة غير مصدقة مني لما أقرؤه:

«ياسين كيف حالك، هذا المعرض الثالث للكتاب ولم تفِ بالعهد، وافقت على إقامة الحفل لك، ولكن لا تخذلني في هذا الأمر، لأنني لن أتوقف هذه المرة عن اتخاذ الإجراءات القانونية ضدك، عملت بصداقتي معك وافعل الآن للمرة الأخيرة، فقد حان دورك.»

يقدم المساعدة بعدما فات أوان احتياجها، وبعد ذلك يلومك على إهمالك لها، الجميع يلهث خلف مصلحته أولًا في النهاية، لأتذكر كيف أوقع بي ذاك الرجل في مصيدته، بدأت معرفتي به من خلال فترة الخدمة العسكرية، كان ما زال في مقتبل عمره ويهتم بمجال الثقافة وصناعة السينما، وبحكم أن أكثر أوقاتي كنت أقضيها مع قلمي فقرأ لي ذات مرة وأخبرني بمدى إعجابه الشديد بموهبتي، بعدما أخبرني أنه يريد أن يكون الواجهة لي في المستقبل، دارت الأيام سريعًا، وعلاقة صداقتنا أصبحت أكثر تماسكًا، حتى جاء ذلك اليوم الذي كنت أنتظره طوال عمري، في مكتبه كنَّا نجلس وحدنا، كانت تجربتي الأولى في إمضاء عقد، لذلك كنت معدوم الخبرة في أمر كذلك فكل ما كان يشغلني أن ترى روايتي النور ولا يهم أي شيء آخر، ساورني الشك للحظات عندما أخبرني أنه يريد أن يمضي عقدًا ممتدًا معي، وأن تظل دار النشر الخاصة به هي المتبنية الوحيدة لأعمالي في المستقبل، مواظبًا على رواية كل

عام، وشرط جزائي على بياض لمن يعود في ذلك، أبدو أحمق في هذا الأمر، لكنني كنت في هذا الوقت تحديدًا لست ضامنًا نجاح اسمي، وأعمالي، فما توقعت أن أحتاج لفسخ هذا التعاقد يومًا ما، ولأنني إن فشلت فسيكون هو مضطرًا إلى نشر أعمالي، فكانت القيمة المطلوبة خمس روايات في خمس سنوات، شرط أن تعجبه الرواية، وليس الأمر يقتصر على أي كتابات والسلام، لكنني وضعت في الاعتبار أنه صديقي، فبند إعجابه لأعمالي لن يكون عائقًا، ووافقت بكل بلاهة مني، إما بالنجاح الفريد أو الفشل الذريع، ولكن ما حدث كان عكس المتوقع تمامًا، لعنته سكنت في نفسي، بعدما اتضح الأمر أمامي أنه أشبه بعقد احتكار، وسهم آخر صوب تجاهي وأنا من سمحت بذلك..

عدت من شرودي وأنا ما زلت في خانة الرسائل، ليهتز هاتفي بإشعار جديد، لأفتحها في اللحظة ذاتها وأتلقى صدمتي الثانية..

***

«في انتظارك الليلة، الرابعة عصرًا، أول مكان كان لقاؤنا به بوسط البلد..»

كانت الرسالة عجيبة للوهلة الأولى، من نفس الإيميل الذي أنشئ جديدًا وتفقدته البارحة، ليرتجف جسدي كاملًا بعدما قرأت تلك الرسالة، لأعيد قراءتها للمرة الألف وقلبي غير مصدق أن «سارة» ظهرت من العدم، ومن الممكن أن أراها ثانية بعد اختفائها الغريب، لأنَّ تلك الذكرى في ذلك المكان لم أشارك أحدًا غيره سواها، لم تعطني حق الرد لأنها قد حظرتني، وهذا الأمر ما جعلني

أشك بأن هناك شيئًا مريبًا قد حدث لها، وفرصة من الممكن أن لا تتكرر، ما هذا الذي يحدث، تظهر الذي أنتظرها منذ عامين في ذلك اليوم الذي قررت أن أتجاوزها به، اشتعل عقلي بالتفكير طيلة الليل حتى أنني لم أستطع النوم جيدًا، جاء اليوم التالي واستعددت جيدًا بنصف عين بدا عليها الإرهاق، وعقل منهك من شدة التفكير مما حدث، فتحت الهاتف لأعيد قراءة الرسالة مرة أخرى، وأعيد قراءة رسالة «زياد» في الوقت حينه متصلبًا مكاني بالشارع في انتظار «آسيا» للذهاب، وتراودني فكرة التراجع الآن بعدما حددنا كل شيء، والذهاب إلى حيث طلبت مني تلك الرسالة، لأعود من شرودي سريعًا بعدما رأيت سيارة «آسيا» قادمة نحوى وتلوح إليّ بيدها من داخلها في أشارة بأن أتقدم إليها، فوضعت الهاتف في جيبي، وفي الوقت حينه تصاعدت دقات قلبي لما أفكر به الآن من كم الأفكار المتضاربة في عقلي..

***

11

«في هذه الحياة.. يؤخذ كل شيء بالقوة»

زياد

***

منذ أن وعيت على الدنيا اعتدت دائمًا على المنافسة بحكم طبيعة عمل والدي الذي تربيت به منذ صغري وكبرت على قوانينه، التجارة والتحدي دائمًا على أن أكون الأول في كل شيء، حتى اعتدت على أن يكون اسم «زياد الصباغ» لا مثيل له، بدأت أول منافسة لي في الثانية عشرة، حينما كنت أنا وأعز أصدقاء طفولتي نتنافس على من ينهي السباق أولًا بالدراجات، حينها كنت أعلم أنني سأخسر، لذلك أضعفت قلب بدال دراجته بعدما تسللت في عمل ذلك ولم يرني أحد، لأفوز عليه باكتساح ولم يعلم أحد سري، بدأت شخصيتي تتكون من يومي هذا، بطبيعة أي شخص يحب الخير لمن حوله.. لكن إن كان ذلك التفوق سيعيدني للخلف فلن أسمح بحدوثه، تفوقت في مراحل عمري الدراسية وفي بعضها كنت أحصل على المراكز الثانية حتى حصلت لي الدبلومة والسفر للخارج أراني الكثير وكون لي الخبرة اللازمة في ريادة الأعمال وإدارتها، وصنعت اسمي لأكون الرجل الأول صانع المواهب، كانت فكرة دار النشر هي هوية عائلتنا بالطبع، فمنذ القدم كان يمتلك جدي مطبعة في الثمانينات وعبر السنين وتطور أمر نشر الأخبار حتى أصبحت الجرائد اليوم في عالمنا وظيفتها فقط تطويق الزجاج، ومع مرور

الزمن تطور الأمر معنا أيضًا حتى أصبحت المطبعة دار نشر، صاحبة إصدارات لأشهر الكتب التي تغزو سوق الكتب وعالم الأدب والثقافة، لم أحب الكتابة قط، القراءة فقط كنت أمارسها بين كل حين وآخر، لأكمل أنا مسيرة والدي كابنه الوحيد، وبمهارتي وخبرتي التي اكتسبتها، وكيفية التسويق بالطريقة الحديثة استطاعت رفع اسم إمبراطوريتنا إلى القمة.. لم يشغلني قط فيما سبق أي شخص من العاملين بها، سواء من كتّاب أو عمال لهم واجبتهم تجاه جميع تخصصاتهم، كنت أُشرف فقط، ولكن بخبرة رجل تربى في بيئة كتلك لم يكن لي رفيق عمر مثلما تلقبون.. رفيق يشاركني الطريق، صديق أصاحبه ويصاحبني في كل الأوقات، فقد اعتدت الوحدة، والنجاح كان هو كل ما يشغلني، أنافس نفسي بعدوانية شديدة أحيانًا حتى لا أسقط، وأوضحت هيئتي الضخمة شراستي تلك فيما بعد، رأسي الصلعاء ولحيتي التي أحب أن أنمقها دائمًا، ملابسي التي أصبحت كزيّ تقليدي الذي يتكون من بذلات فخمة وغالية دائمًا، أملك من كل شيء ما أريد في عمر ليس كبيرًا، حققت كل ما يطمح له أي شاب في هذه الحياة وهناك رجال لم يحققوا نصف ما حققته، لم يكن لي سوى والدتي بعدما توفى والدي منذ أعوام، وكانت مشكلتي الكبرى دائمًا في ذلك الملل الذي يجتاحني إذا لم أفعل شيئًا مثيرًا، يشبع رغبتي بشعور الانتصار، وكأن الأمر معي تحول إلى شهوة أريد أن أنتشي بها من كل وقت لآخر، حتى أنني أقدمت على لعب القمار في فترات متقطعة لأستمد شعوري بالانتصار كلما أردت ولا يهم نتائج ما أخسر، أصبحت أريد امتلاك

الأشياء فقط، وتحول الأمر معي أنني أحب الأشياء لمجرد أن الآخرين يحبونها وعندما أمتلكها، يتسلل الملل رويدًا، حتى أشعر بالاختناق، ثم أنفر منها لأبحث من جديد عن شيء أتملكه، لم أترك العنان لروحي كي تكون مختارة من قبل شخص بإرادته ذات مرة، بل أنا الذي كان يختار دائمًا، لأنني أراه شيئًا من قوة الشخصية..

كانت تدور حياتي بذلك النمط الممل حتى ظهر «ياسين» بعد غياب من معرفتنا، لكني كنت أعلم أنَّ هذا الظهور قادم وسيحين وقته، بالطبع ما كان يشغلني شيء سوى مساعدته مثلما أخبرته فيما سبق، حينما التقيته صدفة لأول مرة في سنوات حكم النفس على النفس، الخدمة العسكرية، فقد أخبرني بحبه وشغفه بالكتابة حينها، كانت جلستنا دائمًا تتشكل في الحوارات عن الأفلام وقصصها، ولم أنسَ قط طموحه بأن يصير كاتبًا كما يتمنى، وبالطبع أخبرته أنني سأساعده على فعل ذلك في يوم ما في المستقبل، انتهت فترة خدمتنا وأصبح تواصلنا عابرًا عن طريق الاتصال بالإنترنت وشبكات التواصل الاجتماعي، كنا نلتقي في كل شهر مرة تقريبًا يحدثني بشغف ماذا ينقصه ومتى سينتهي من كتاباته، كنت أحبُّ ذاك الرجل لإقباله ورؤيته للحياة، وحبه وشغفه اللذين طالما كانا متضادين عندي بالمنافسة والتحدي، فكل منا له منظوره الذي يرى العالم منه، لم أعرف معنى السلام يومًا مثلما كان يخبرني أن هناك دائمًا حلولًا ترضي الجميع، ولكنني كنت أخبره دائمًا أن الحربَ هي القوة.. ومثل كل مرة كان يعارضني.

حتى قرر زيارتي في مكتبي لأول مرة لإمضاء العقد وهنا كانت بداية الشرارة بداخلي..

- أهلًا أهلًا صديقي العزيز.

- «زياد» كيف حالك ؟

عناق يجمعهما لتدخل فتاة يبدو على ملامحها أنها تبدو في منتصف العشرينات خلف «ياسين» مبتسمة..

- هذا صديقي الذي أخبرتك عنه يا «سارة» وكيف كان لقاؤنا صدفة وها نحن نخطط للمستقبل معًا..

لم يسعني شيء سوى أن تعلقت نظراتي بها، وابتسامتها التي علقت بي، ولكني اختطفت نظراتي لها دون أن يشعر «ياسين» أو حتى هي، انتهت المقابلة بتحديد موعد إمضاء العقد، بالفعل كانت آتية لتشارك «ياسين» سعادته وفرحه بخطوة كهذه وبعدها اتفقنا على إمضاء العقد في خلال الأسبوع القادم..

انتهى يومي وصعدت إلى شقتي لأتسلل لغرفتي وأنظر لنفسي باستنكار بالمراءة، ثم تزورني ابتسامتها مرة أخرى، أخشى من الذي أشعر به الآن، أحزن على حالي تارة لماذا لم يكن هناك من يشاركني انتصاراتي أيضًا، براءتها جذبتني لأن أفكر بها طوال الليل، رغم علاقتي المتعددة بنساء لا تعد، لكنني لم أشعر بتلك الرغبة تجاه إحداهن بقدر ما أشعر تجاه تلك التي رأيتها اليوم.. رغبة الامتلاك!

***

عدت من شرودي بعد تذكري كل ما حدث كأنه كان

بالأمس وليس منذ قرابة الثلاثة أعوام، وفكرت في أمر موافقتي على ذلك الحفل، لا أشعر بالذنب تجاه ما يواجهه «ياسين» بالفعل، فهو سبب كل ما يمر به، ولكن موافقتي فقط كاعتذار غير مباشر إلى «سارة» ليقف من جديد على قدميه إن استطاع مرة أخرى، وليستعيد حياته حتى تتوقف هي عن الشعور بذنب كبوته وتعود لي رائقة البال كما كانت في بداية علاقتنا، لنرى كيف ستكون عودتك اليوم يا صاحب الكبوة.

***

رغم إدراك الإنسان لتوسع العالم من حوله، لكنه عندما يغرم بأحدهم يصبح العالم في عينيه متمحورًا حول ذلك الشخص الذي أحبه فقط، وربما لا يرى غيره، هذه هي الحقيقة الحب يجعلك لا ترى سوى من تحبه أنه أفضل شخص بالوجود، شخص لا يعوض، وإن امتلأت حياتك بآخرين، فلن يكون في نظرك الأفضل غيره، لذلك عليك أن تحرص حين يأتي الوقت الذي تغرم فيه بأحدهم، تأكد أنه يستحق حبك أولًا قبل أن تمنحه قلبك كاملًا حتى لا تضع نفسك في يد شخص سيتركك عالقًا في منتصف الطريق ويتخذ الرحيل طريقًا له، لأنك ستراه دائمًا رغما عنك في كل شيء، سيذكرك قلبك به، وستقع فريسة لهوس التفكير في كل وقت تنفرد به وحدك لا تعافيَ منه.

صعدت إلى السيارة بجانب «آسيا» قائلة بمرح:

- مرحبًا بكاتبي المفضل..

فابتسمت دون أن انطق لتقول اطمئن يا عزيزي، وربتت على يدي ثم انطلقت بنا في طريقنا إلى دار النشر، وفي عينيَّ اجتمعت كل تساؤلات الدنيا، فكرت في أن أخبرها، فقد أصبحت أغلى ما أملك الآن، ولكني لا أريد أن أتسبب ولو بنسبة ضئيلة بألم تشعر به، ولكني كيف أصارحها بحقيقتي.. حقيقة أنني ما زلت عالقًا في الماضي وأنني لست قادرًا على مواجهة ما نحن متجهين إليه الآن، خاصة بعد كل ما قد وصلت إليه علاقتنا..

تنصب الحياة دائمًا لنا معارك انتحارية من حيث لا ندري، وعلينا خوضها دون رفاهية الاختيار، فقط مجبرون على القتال، فوضعت رأسي مسترخيًا على مقعد السيارة ناظرًا للطريق بعدما سرت داخلي قشعريرة عندما تذكرت هذا المكان الذي كان به أول «بحبك» تُقال إليَّ من شفتيها، كنت أجلس وحدي بتلك القهوة الكلاسيكية بوسط البلد، بالقاهرة الجميلة مثلها، كان دائمًا جلوسي هناك يحدث في ذلك التوقيت المتأخر ليلًا، في ركنٍ خاص بطاولة عُرفت في هذه الفترة بأنها لي في كل ليلة أذهب إلى ذلك المكان، ساحبًا معي قلمي، وأوراقي، وبعض كتبي، توقيت قد خصصته لي حتى أهرب به من ضجيج العالم في هذا الهدوء، وفي ذات ليلة ذهبت مبكرًا عن موعدي الذي اعتدته أنا وميزني به العاملون بالمكان، لأدخل متجهًا نحو الطاولة خاصتي، لأجدها بطلتها البهية، تجلس عليها وحدها، بكوب من القهوة الفرنسي مثل هيئتها حينها، شعرها الأصفر القصير قليلًا، وجسدها الرفيع الذي أخفته ملابسها الأنيقة الواسعة قليلًا، بنطالًا من النوع

الجينز الواسع، وكوتشي أبيض صغير، وشيميز لونه أبيض كوجهها الدائري الطفولي، وترتدي نظارة طبيَّة، كنظارتي الذي لم أكن مرتديها حينها، ومن خلفها ترتكز عيناها في هاتفها وكأنها تستمع إلي شيء هام، وفي لحظات قليلة، انتبهت إليَّ أنني أتمعن وأتأمل لكل شيء بها، فابتسمت في تلقائية متعجبًا لنفسي، حتى رفعت رأسها لترتشف رشفة من كوب القهوة الموضوع أمامها لتراني أبتسم محدقًا لها بعدما اصطدمت أعيننا، احمرت وجنتاها قليلًا، ثم نظرت خلفها لتتأكد إن كانت نظراتي المحدقة تلك إليها أم لغيرها، فلم تر سواها لأن ذلك هو الركن الأخير بالمكان، فازداد احمرار وجنتيها أكثر خجلًا، وهمست قائلة بتساؤل:

- ماذا هناك؟

لم أتوقع كلمة منها، ليهتز قلبي بعد سمع صوتها الرقيق كنظرات عينيها الضيقة قليلًا موجهة كلماتها إليَّ، ازدادت ابتسامتي في تلقائية، ثم اقتربت قليلًا وأنا لا أبالي بأي شيء بالمكان، وكأني لوهلة أصبحت لأرى غيرها بالمكان قائلًا:

- ليس هناك شيء أيتها الجميلة، فقط هذا مكاني الذي اعتدت أن أجلس به.

اختفت ابتسامتها لمداعبتي لها، ثم قالت بنبرة مترددة بعدما شعرت بأنها في موقف محرج:

- أعتذر عن هذا، لم يخبرني أحد هنا بأن هناك من يحتجز تلك الطاولة..

ثم همت بالوقوف، لأقترب من الطاولة مسرعًا ساحبًا

المقعد المقابل لها، قائلًا بنبرة كانت هي الأجرأ في حياتي:

- تفضلي بالجلوس، فلنعتبر أنني حجزتها لنا معًا..

ابتسمت هذه المرة والخجل يملأ وجهها أكثر بعدما نظرت حولها هاربة بعينيها مني، فأردفت قائلًا وأنا أشعر بأن قد اشتعلت داخلي رغبة أكثر بمعرفة تلك الحسناء:

- حسنًا لا عليكِ، سأقول لكِ شيئًا في مقابله تقررين سحب الكرسي والجلوس، أو تتركينه وترحلين مثلما تريدين..

فقالت بترقب:

- تفضل.

فتنهدت ثم قلت وأنا أنظر في عينيها مباشرة:

- أتعلمين، أؤمن جدًا بأن ليس هناك شيء يحدث في هذه الحياة من محض الصدفة، فكل تفصيلة تحدث مرتب لها، كلقائنا هذا الآن..

فبدا عليها عدم الاقتناع بما أقول، ثم ردت بتعجب:

- كيف؟

فاستجمعت قوتي بداخلي في محاولة أخيرة لإنقاذ ما قد أهدره من فرصة الآن برحيلها، وقلت وأنا أنظر إليها بثبات هذه المرة:

- لأنني دائمًا ما آتي متأخرًا إلى هنا، تلك هي المرة الأولى منذ أن عرفت هذا المكان الذي يكون قدومي إليه مبكرًا وليس متأخرًا كعادتي، وذلك ببساطة لأن القدر أراد أن نلتقي الليلة..

ثم صمتُّ لأستنشق نفسي وأخرجته بهدوء وأردفت بنبرة حانية:

- لو لم يكن القدر يريد هذا لما ألهمني بالمجيء الآن إلى هنا.

فابتسمت مرة أخرى، وتراقص قلبي فرحًا عندما رأيت يدها تسحب الكرسي مرة أخرى وتجلس أمامي، فجلست وأنا في قمة سعادتي بعدها ولكنني كنت حريصًا أن لا يبدو ذلك على وجهي حتى لا تشك في شيء، ولأول مرة أشعر بأنني قد انتصرت في أمر أردته، وبأنَّ الحياة قد قررت أن تبتسم لي في هذا الموقف، حقًّا في البدايات لا نفكر، لا ندري ما تلك الأفعال التي نقوم بها التي تكاد أن تصل إلى حد الجنون، حينما نرى ما نشعر بأننا نريده، نقوم بأفعال لا يصدقها منطق، ولا نتوقعها من أنفسنا، نفاجئ بها مثلنا مثل الشخص الذي قررنا أن نفعل ذلك من أجله، وحينما نعود بذاكرتنا لنتذكر سرعة الأحداث والسيناريوهات، نبتسم تعجبًا لتهورنا، وجنوننا، ونتمنى لو أننا لم نتهور، لو أننا كنا أكثر إدراكا ووعيًا، ولكنَّ هناك أشياءً مهما كنت حريصًا تقع بها لا محال، وكأنك لأول مرة تُفاجئ بوجودها، كان لقاؤنا الأول مثاليًا للحد الذي جعل عينيَّ تدمعان بعدما تذكرته دون أن تلاحظ «آسيا» لتركيزها بالطريق الذي نسير به، دارت كل التفاصيل في عقلي مسرعًا، حتى أعادتني «آسيا» إلى الواقع بسؤالها:

- قاربنا على الوصول يا كاتبي المفضل، أم تحبني أن أناديك بالاسم الذي يليق بك أيها الغريب..

نظرت لها والندم لا يخلو من تعابير وجهي، هذا العام الثالث الذي لم أكن أتوقع أنني سأكون به متراجعًا بذلك الشكل المأسوي وسأصبح من قراءه، وليس من كُتابه، فقلت لها وأنا أنظر أمامي:

- «آسيا» أريد أن أعود، أشعر بأنني لست على ما يرام..

فهدأت السرعة قليلًا، ثم قالت بنبرة غاضبة بعض الشيء:

- لا يا «ياسين» لن أتركك تمضي وراء هلاوس عقلك مرة أخرى، الكثير مما يحبونك في انتظارك هناك، الكل يعلم ما تمر به، وقادم لدعمك ومساعدتك

صِحت بها بصوت عالٍ قائلًا:

- لم أسمح لنفسي بأن أرى نظرة شفقة من أحد.

لمعت عيناها بدمعة تكونت داخلها، تعبر عن بكاء قادم من تلك الفتاة التي أحبتني أكثر من أي شيء، وبنبرة حزينة قالت:

- هذه ليست شفقة يا «ياسين» وإنما إحياء روح ذاك الشخص الذي غطَّاه الغبار، الجميع يحمل روايتك، ويتمنى توقيع منك فوق غلافها بكلماتٍ لطيفة منك، الجميع يعرفك، تلك ليست شفقة، وإنما تذكرة لنجاحك الذي صنعته ونسيته..

صمت دام لثوانٍ، أريد أن أطاوعها، أريد أن أخبرها أنها على حق، ألا تستمع إلى وساوس عقلي وتجبرني على إكمال الطريق معها، فأنا في هذه اللحظة في أمسِّ الحاجة لمن

يجذبني من يدي بكل قوة، ويرغمني على التقدم، اللعنة.. كل اللعنة على قلوبنا التي ما زالت تفكر في من كان سببًا في حرقها، ولكنني رغم تلك الحرب المشتعلة في عقلي، هُزمت كعادتي، لأقول لها مستسلمًا أمام فضولي في رؤية «سارة» التي تراودني في ذاكرتي منذ غابت، والآن عادت في واقعي بعد كل ذلك الغياب:

- أقدر مجهودك يا «آسيا»، أقدر حبك إليَّ، ومحاولاتك التي لا تُحصى لمساعدتي على الوقوف مرة أخرى، ولكنني غير مستعد اليوم، أرجوكِ عودي بي، أريد أن أبقى وحدي الآن.

نظرت إليَّ نظرة أعلمها جيدًا، لماذا يقول الإنسان دائمًا عكس ما يدور داخله، أرى خذلاني لها في عينيها التي لم تحتمل فبكت في صمت دون أن تقول شيئًا، ولم أستطع مساعدتها ولو بكلمات تهون عليها مرارة ما تشعر به بسببي الآن، فقد خيبت ظنها بي، كم أنا وقح، يدمرنا الخذلان، وسرعان ما نصبح مثل من خذلونا، فندمر من أحبونا بكل بطء، ودون رحمة، أردت أن أُقبلها، أُعانقها بكل اعتذار ولكني لم أجرؤ على فعل شيء سوى النظر بعيدًا عن عينيها، لم تتحمل روحي فكرة أنني أفعل هذا بـ«آسيا»، التي عادت في طريقها، دون أن تتفوه بشيء أو تُبدي أي اعتراض منها، في بعض الأحيان يكون الصمت أقوى ما يعبر عن ما نشعر بها آلام، دائمًا الصمت كان لغتي في التعبير عن احتراق قلبي، وليس دليلًا عن رضاي كما يُقال دائمًا، وكذلك شعرت بحرقة صمتها، ولأول مرة أرى «آسيا» مهزومة أمامي وكان الفاعل أنا!

لتتركني في المكان الذي أخبرتها بأن توصلني إليه، وترحل يائسة من ذلك الشخص الذي وقعت في حبه رغمًا عنها، شارع طلعت حرب بوسط البلد.

***

12

«ليست دائمًا الضحية مجني عليها، بل هناك أيضًا ضحية جانية».

سـارة

***

نظرت «سارة» إلى شاشة هاتفها بعدما استمعت إلى صوت إشعار استقبال رسالة جديدة، لتراها من شخص تعرفه جيدًا رغم أن لم يحدث بينهما أي أحاديث من قبل، فحدقت بتردد إلى الرسالة المكتوبة والتي كان محتواها عن تلك الفترة التي تتعايشها مع «ياسين» ثم أغلقت هاتفها دون رد، لتشرد بخيالها لثوان ناظرة في تلك الصورة الموضوعة أمامها التي التقطها «ياسين» تجمعه بكل معارفه في ذاك الحفل، والتي كانت «سارة» بجانبه أيضًا بها، ثم ارتكزت عيناها بالنظر إلى شخصٍ كان يقف على يسار «ياسين»، وحدقت لثوانٍ به، ثم أمسكت هاتفها مرة أخرى وهي تعيد قراءة الرسالة المرسلة لها..

«بما أنني لا أعتبر «ياسين» مجرد صديقًا لي جمعتني به علاقة عمل فقط، ولكنه يكون لي أخًا صغيرًا، فإني أعتصر ألمًا لما أراه يمر به ولا نستطيع فعل شيء لإنقاذه، فكرت كثيرًا قبل إرسال تلك الرسالة إليكِ، ولكنك الأقرب إلى قلبه، فبمساعدتك لي نستطيع سويًّا مساعدته في تجاوز تلك المرحلة الصعبة والوقوف مجددًا»

أكملت قراءة الرسالة، ثم نظرت إلى اسمه مرة أخرى الذي كان مكتوبًا باللغة الإنجليزية، والتي عرفته بحكم

كلمات «ياسين» عنه، لتضغط على زر قبول الرسالة بعدما كتبت:

- نعم أوافق على هذه الفكرة يا أستاذ «زياد».

***

عادت سارة من شرودها وهي تتذكر تلك اللحظة التي كانت سببًا في قلب حياتها رأسًا على عقب، وما مرت ثوان حتى رأت «ياسين» قادمًا من بعيد متجهًا نحوها، لتبتسم فور رؤيته، وتتمعن النظر به وكأنها تتعرف على ملامحه لأول مرة، تلك اللحية التي زادته أكثر وقارًا وجمالًا، عيناه الباهتتان واللتان لا تستطيعان تزييف حقيقة حزن صاحبها، نجله التي اعتادت أن تراه على ملامح وجهه بعدما تحول إلى ثبات استعجبت له، وسيجارته الغريبة عليها الذي أخرج آخر أنفاسها قبل أن يقترب منها، فـ«ياسين» ما كان يكره شيئًا قدر كرهه إلى كل أنواع الدخان، ولكن لا شيء يبقى على حالة، فبعد صدمة معينة في مرحلة ما، وكأنك تولد حينها من جديد، تصبح رغمًا عنك شخصًا آخر غير الذي كنت تعرفه تمامًا، تتضح الرؤية الحقيقية لكل شيء أمامك، تواجه العالم وكأنك تتعرف عليه من جديد، تتغير رغبتك تجاه معظم الأشياء، ربما تحب ما كنت تبغضه ولا ترى به إلا راحتك، وتنسى من الأساس ما كنت تعتقد أنك لن تتقبل غيره، وتدرك حينها أنك لم تكن تفهم شيئًا حين كما كان في اعتقادك، فمن أسوأ الأحداث التي تحدث للمرء على الإطلاق هو الرحيل دون أي وداع مسبق، اقترب «ياسين» ثم سحب المقعد المقابل لها، كانت هذه

أول طاولة جمعتهما، المكان الذي كان شاهدًا على سلامهما وحبهما، الآن شاهد على فراقهما وغرابتهما عن بعضهما البعض، ومن المؤلم أن تُشوه الذكريات هكذا، فالحياة لا تترك شيئًا على حاله، لم يتفوه بشيء، رغم غليان قلبه..

إنها «سارة» يا «ياسين» حقًّا، كيف بعد كل هذا الغياب، تغيرتِ كثيرًا، لم تعد تلك الفتاة التي كنت أعرفها، لم تعد «سارة»، لا يظهر أي تعبير لما يسري داخله من مشاعر متضاربة على وجهه في محاولة منه للتماسك، فقط كان قلبه يخفق بشدة، وفي عينيه كل شيء أراد قوله والصراخ به، وفي برود مصطنع جلس أمامها، ليرتجف قلبها للوهلة الأولى بعدما اختفت ابتسامتها متعجبة، مبادرة بتردد:

- ظننت أنك لن تأتي بعد كل هذا التأخير، كنت سأرحل بعد لحظات معدودة..

كيف لإنسان أن يختفي لثلاثة أعوام كاملة، ثم يظهر فجأة وكأنه لم يفعل شيئًا، ما هذه المأساة، ما زالت عيناي تتمعن بها رغم قراري بأن لا أُظهر أي مشاعر لها، لم تعد تلك الجميلة التي أحببتها، أين ذهبت «سارة» اشتدت صراعات عقلي التي لم تهدأ قط منذ وصول رسالتها، تلك العينان اللتان كانتا هما أكثر ما أحب النظر إليهما، خصلات شعرها البُنية التي اشتقت إلى ملمسهما وأنا أتلاعب بهما، ابتسامتها التي صارت مصطنعة بعدما كانت أجمل ما بها، كل شيء ذهب هباءً، وأصبح بلا معنى الآن، فإن أردت رؤية الوجه الحقيقي إلى شخص تحبه، توقف عن حبه، كلا توقف عن عشقه، وستدرك حينها

أنه عادي حقًا، وأنك فقط كنت تُبالغ، أخرجت زفيرًا وأنا أُدير وجهي عنها:

- لماذا طلبتِ مقابلتي بعد اختفاء كل هذه الأعوام..

ثم ابتسمت بسخرية، وأردفت متصنعًا السؤال وأنا أنظر إليها قائلًا:

- أتذكرتِ بأن هناك شيئًا قد فقدتِه، فعُدتِ لاسترداده..؟

بداخلي الكثير من الأسئلة، الكلمات، اللوم، العتاب، الاشتياق، ولكن لم يعد هنالك لأي شيء قد يقال قيمة، فأصعب اللحظات التي يمر بها المرء، حينما يشعر بالغربة تجاه من كان موطنًا له، حينها يصبح كل شيء عديم الفائدة، قد فات أوانه، وانتهى الأمر ببساطة.

تنهدت وفي لمعة عينيها شيء من خيبة الأمل، والندم، وتساؤلات لا حصر لها عن ذاك الشخص الجاف أمامها وقالت:

- هناك الكثير من سوء التفاهم قد حدث، وأُدرك أن ليس لك ذنب في هذا يا «ياسين»، ولكنني كنت ضحية لهذا الأمر مثلك تمامًا، ولست جانية كما تعتقد أنت..

نظرات ثابتة من عيني، وصمت وخيم اجتاح أرجائي رغم كل ما أردت قوله، فلم يعد هناك يقال ما يجدي نفعًا، سقطت تيتانك في المحيط، لا مجال لإنقاذها، وكذلك كان سقوطي، شعرت بيديها تقترب من يديَّ الموضوعة فوق الطاولة في لحظة أحببناها معًا فيما مضى، اشتقت إلى لمسة يديها، وعناقي لها بيديَّ، ارتجف قلبي

رغم ثبات جسدي، ثم قالت بعدما استقرت يدها فوق يدي:

- اشتقت لك يا «ياسين» ولو كان هناك ما فقدته فهو أنت..

كلمات بسيطة منها قادرة على إحياء ما ظننت أنه قد مات منذ زمن، يدور كل شيء في عقلي بسرعة بالغة، ذكريات ظننت أنني نسيتها عادت تدق أبواب عقلي، شخص قد تركته تمامًا شعرت بوجوده مرة أخرى، راودتني ابتسامة «آسيا» ليرتجف قلبي هلعًا هذه المرة، سحبت يدي بهدوء، ثم قلت بنبرة هاربة:

- لم أعد ذلك الشخص الذي تركته بكل برود ووقاحة، أنتِ أنانية يا «سارة».

ثم تحولت نظرتي لها بعدوانية، بعد أن هممت واقفًا بالرحيل، وأنا أقاوم بكل شدة رغبتي في العودة لها وعناقها بكل اشتياق:

- إن خطأي الأعظم الذي اقترفته في حياتي هو أنني أحببتك.

أن يتفوه الإنسان بعكس ما يريد قوله فتلك أصعب الصادمات التي تحدث بين القلب والعقل بداخله، تركتها ورحلت دون انتظار منها رد، وأنا ما زلت أحبها، وبداخلي حنين مشتعل لها، ورغبة قاتلة في أن أعود راكضًا نحوها لأعانقها باكيًا كأسير حرب قد عاد إلى موطنه بعد سنين لا تحصى من الغياب فقد بها الآمال في أن يعود مرة أخرى.

***

تجلس على سريرها، تغير ملابسها، وفي عقلها تتذكر كلمات «ياسين» القاسية لها، وفي عينيها دموع تجاهد لإخفائها وما إن انتهت حتى استمعت إلى خطوات حذائه قادمة نحوها، حتى وصل إلى باب غرفتها بابتسامته التي أصبحت تبغضها قائلًا:

- أين كنتِ أيتها الجميلة، لقد اشتقت إليكِ يا عزيزتي.

نهضت من مكانها مقاومة ألاعيبه الماكرة التي باتت تعرفها، ثم ردت بلامبالاة:

- كنت أتمشى قليلًا، أردت تغيير بعض الروتين، فلم تخبرني أين أنت ذاهب، لذلك قررت أن أستنشق بعض الهواء.

اقترب منها ليقف خلفها، ثم وضع يده على كتفها قائلًا:

- أعتذر عن هذا، لقد كان هناك موعد هام لكاتب بدار النشر خاصتي، وكان يجب أن أكون متواجدًا.

شعرت بندبة قوية في قلبها، لا تعلم إن كان قاصدًا التلميح لها بتذكرتها به، أم أنه لا يُبالي حقًا، فلم تريد أن يظهر عليها شيء لذلك صمتت، حتى أردف بنبرة هادئة:

- ولقد انتهيت من ذلك الأمر وعدت لكِ يا عزيزتي، ما رأيك في أن تقبلي طلبي بأن نرتشف بعض القهوة في أي مكان تريدينه..

أصبحت تشعر باشمئزاز غير طبيعي كلما حاول لمسها، أو شعرت بأن أنفاسه تقترب منها، فابتعدت عنه قائلة بنبرة

حادة:

- ليس الليلة، أشعر بالأرق من إرهاق الطريق وأريد أن أحصل على بعض الراحة.

ثم تركته ذاهبة نحو سريرها لتنفرد بذراعيها عليه دون انتظار ردًا منه، ليأتيها الرد من خلفها بعدما أعطته ظهرها:

- كما تشاءين يا صغيرتي لنكمل حديثنا لاحقًا، وفي عينيه نظرة تحمل الكثير من الشكوك.

تسري بداخلها ذكريات لا حصر لها، كيف بدأ هذا الرجل في أن يلتف حولها كالأفعى السامة حتى أصابها بلدغته فقضى عليها وعلى حياتها مع «ياسين»، كان لقاؤهما بناءً على مساعدة حبيبها والرجل الذي لم تعشق غيره، ولكنها لم تكن تعلم أنه فخ يُنصب لهما ليكون سببًا في إغراق «ياسين» أكثر وليس لإنقاذه، بدأت الحكاية بإعجاب «زياد» بـ«سارة» في زيارتها مع «ياسين» في مقابلة توقيع عقد روايته، وفي حفل توقيعها وحفل تكريمه بدا ذلك أكثر بنظراته إليها، لم تكن تتوقع أن صديقة هو أكثر من أراد القضاء عليه، بدت «سارة» تشعر في البداية بارتياح تجاه علاقتها بـ«زياد» في البداية، فرجل بثقافته، وفهمه، كان يملك مفاتيح كثيرة لإقناعها بأنهم على الطريق الصحيح، ورغم أن ما كان هناك تقدم يحرز، كانت تشعر حينها أنها تريد الهرب من كل تلك الهموم مع الاكتئاب الذي اجتاح «ياسين»، فما كان هناك سوى «زياد» الذي أعد نفسه صديقًا مقربًا في تلك الفترة وحكيها له كل ما يحدث بينها وبين «ياسين» في علاقتهما، حتى لاحظت إعجابه الذي بدا أن يظهر لها مرة

تلو الأخرى، ومحاولة اقترابه منها، وعندما رفضت مباشرة كانت المواجهة الأصعب لها حينما أخبرها بأنه قد يتسبب في إلقاء «ياسين» بالسجن إن لم تستمع إليه وتتركه وتختفي تمامًا من حياته، ولم تكن تملك شيئًا سوى إنقاذ حبيبها بذبحة ألمًا، فاختارت أن تكون هي رصاصة الرحمة في قلبه دون أن يدري، ولكن سرعان ما ندمت على أنها لم تخبر «ياسين» منذ البداية وأن وجهة نظرها كانت خاطئة، حتى وقعت ضحية لمصيدة «زياد» ولم تدرك تلك الحقيقة إلا فيما بعد، حقيقة أنها كانت أسوأ أنواع الضحايا، ضحية جانية على أقرب شخص كان لها، وبسبب فعلتها دمرت كل شيء ثم فتحت عينيها بعدما استطردت تلك الذكريات التي تهاجمها بكل قوة في كل ليلة، لتمسك بهاتفها الموضوع جانبها وهي تفكر في أمرٍ ما.

***

13

«وما كان هناك أسوأ من رحيلك».

***

الثانية عشرة بعد منتصف الليل، وبعدما وصلت إلى منزلي، تفقدت هاتفي، لأكتشف أن رسائل «آسيا» قد تجاوز عددها العشرين، ورسالة وحيدة من الحساب مجهول الهوية «سارة» التي لم أتردد في فتحها..

رغم قتلهم لنا بكل برود، وتركنا نعاني في ظلمة الوحدة بدونهم، وكل ألم يسرى في داخلنا كانوا هم المتسببين به، لكننا ما زلنا لا نستطيع التوقف عن حبهم، حتى لو كنا نسعى دائمًا لإظهار ذلك، تبقى الحقيقة واضحة في النهاية:

«لم ينتهِ حديثنا بعد، حينما تسمح لنا الفرصة، سأخبرك بالمكان الذي سأكون في انتظارك به، ولا تتأخر مثل هذه المرة، هناك ما يجب أن تعرفه».

لم أُبالِ لكلماتها بعدما قرأتها بفضول، فلو كان هناك شيء هام لأخبرتني به، كل فضولي كان يرتكز حول اختفائها، ولماذا عادت الآن بحساب هكذا مجهول الهوية، تساءلت في نفسي إن كان هناك سبب مرتبط بهذه الأفعال الغريبة لكن بسبب اندفاعي لم تستطع أن تفسر لي، بسبب رغبة الانتقام التي سيطرت عليَّ حين رأيتها ولو بكلمات تؤلمها، ثم استطردت الأمر برمته من عقلي، وألقيت الهاتف فوق سريري، وفي صدري ضاقت الدنيا بي..

لقد سئمت حياتي بدونك..

سئمت اصطناعي وتزييف الحقيقة، لم أعد أمتلك الطاقة التي تجعلني أُكمل في طريق لا أرغبه، فقط أسير به لأن هذا هو المنطق، أرغب بشدة في مخاطبتك، أن نتحدث معًا حتى لو لم يُجدِ هذا نفعًا، أراكِ مرة أخيرة وتبتسمين في وجهي، لقد تجاوزتك، لم أعد أفكر بكِ بشراهة كما كنت في الماضي، تأقلمت على غيابك، ولكنني ما زلت اشتاق إليكِ، معادلة صعبة لا أفهمها بين أنني تجاوزتك وأنني ما زلت عالقًا بكِ، أُدرك أن لم يعد هناك سبيلٍ للعودة، وأن ما قد تحطم بيننا فمن المستحيل ترميمه مجددًا، لكن هذا لا يمت بصلة لذلك الشخص الذي يراكِ في كل شيء، يساومه عقله في كل ليلة على أن يحدثك، حيرة بين الاستسلام لرغبته، والصمود أمامها، ورغم انشغالي الدائم في حياتي التي تغير نمطها كثيرًا، وأصبحت على علاقة بمن يراني كل أحلامه، لم أستطع رؤية أحد سواكِ كلما حاولت التفكير به..

تظنين من نظراتي أنني أراكِ عادية كما حاولت أن أقنعك بهذا، فعيناي كانتا هي أشد من تخبرك بلمعتها أنكِ أوحشتيهما، ثباتي أمامك كان مصطنعًا أعترف بذلك رغم أنكِ صدقته، حتى في رحيلي تمنيت لو أن تمسكي بيدي وتثني عليّ..

كان كل ما داخلي لكِ عكس ما أظهرته، تبكي عيناي، على شخصي الذي بات لم يعد يعرف ما يتوجب عليه فعله، أطاوع قلبي أم عقلي، فـ«آسيا» لا تستحق أن أكون معها بتلك الوقاحة، وما يؤلمني حقًا هو أنني لا أستطيع البوح إليها عما يحدث داخلي حتى بعدما أصبحت أقرب الناس

إليَّ، لأنني إن فعلت هذا ربما نعود غرباء حينها كما كنا، وهذا ما أخشاه، فكيف لي أن أعترف لمن يراني عالمه الخاص، بأني لا أستطيع رؤيته بل أرى شخصًا آخر غيره تمامًا في مكانه!

اكتفيت بهزيمتي داخلي، التي لا يعلمها سواي، أتعايش وأنا ينقصني جزءًا مني قد فقدته معك، ولا أعلم كيف مرت كل هذه الفترة دون أن نعرف شيئًا عن بعضنا بعدما كان يومنا لا يكتمل إلا بوجودنا معًا.

استجبت إلى وساوس عقلي، وأخرجت هاتفي بيدٍ ترجف قليلًا، ثم فتحت صفحتي التي أصبح يعرف بوجودها عدد كبير من المتابعين، والتي أصبحت كل تعليقاتهم تنحصر بين مطالبتي بشيء جديد فقد طال غيابي عن الساحة في الآونة الأخيرة، لا يدركون أنني قد أصبحت مغيبًا عن نفسي بالكامل، لتتوجه نظرتي تجاه خانة البحث وأجدني أكتب حروف اسمك، لتكوني أول المقترحين أمامي، حتى انتابتني ندبة في قلبي حينما رأيت ملامحك التي أحببتها في صورتك الشخصية، لقد تغيرت أشياء كثيرة، فلم أعرف كيف أصف شعورك عندما رأيتك، بعدما كنت لا أتوقف عن ممارسة هذا معكِ، عجزت عن قول شيء، ثم ضغطت فوق زر المراسلة بعدما قررت أن أفعلها، متجاهلًا كل شيء، فظهرت أمامي تلك المحادثة التي باتت رمادية، وبدأت في كتابة كلماتي دون مراجعتها، فقط تركت لروحي هي من تخاطبك:

- لقد أرهقني الاشتياق إليكِ، أود أن نتخاطب ولو قليلًا، عدنا غرباء بعدما كنا الأقرب، ولا أعلم كيف، أرغب

في أن أشكو لكِ كل ما يؤذيني، ويكون ردك هو عناق طويل بيننا أتعافى به، كيف حالك يا كل حالي..

ثم نظرت إلى كلماتي التي أشفقت على صاحبها الذي لم يكن بهذا الضعف يومًا ما، ثم وبدون تردد مسحتها بالكامل، كما فعلت دائمًا برسائلي التي مزقتها ولم تصل، فكم من رسالة دونت إن كانت قد أرسلت إلى أصحابها، فربما كان الرد عليها يعفي مدونيها، ويعثرون على حل يرضي حيرة قلوبهم، ولكن للكبرياء والخوف حكم آخر، فخرجت بعينٍ دامعة وأنا أتأمل صورتك مرة أخرى، ومسحت بيدي فوق ابتسامتك بها، وكأنك صغيرتي مثلما كنت أفعل معك دومًا، وغادرت إلى الصفحة الرئيسة لتغريني بها تلك الخانة التي أصبحت منبرًا لكل من يريد البوح بما يريده، بعدما شعرت أن فيضانًا من الكلمات قد انهال داخل رأسي وأراد الخروج، بعد كل هذه الفترة التي عانيت بها جفاف الكلمات، وكطبيعة حالي كلما أردت أن أنعم ببعض الهدوء أهرب إلى الكتابة فما عرفت وسيلة لهدوء ينعم به عقلي غيرها من بعدكِ، لأجدني أكتب في إطار رسالة مجهولة، بعدما كانت تعرف صاحبها، وبدأت دون خوف هذه المرة:

«أقف عاجزًا أمام ذكرياتنا، لا أعرف ما يجب قوله عندما تسألني ذاكرتي عنك، من المؤسف أن تضعنا الحياة أمام حقيقة أن النهاية كانت مؤلمة لنا، دون أن يستطع أحد منا التمرد عليها.

أقف وأبتسم بخيبة أمل غمرتني، بعدما أيقنت أن ما بيدي حيلة سوى أن أقول لنفسي هذه إرادة الحياة..

فقررت يائسًا أن أزور صفحتك الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي، بعدما أصبح لا يربطنا أي تواصل سوى ذكريات الماضي.

لا أعلم هل تغيرتِ كثيرًا، أم أنني الذي تغيرت..

ما زلتِ محتفظة بهدوء ملامحك، وابتسامتك الصافية، ولكن ثمة شيء في عينيكِ قد تغير، أشعر بهما جيدًا، صحيح أننا نبتسم، نتحدث، نتجاوز، نلهو، نتظاهر أننا قد تناسينا، نقول بكلماتنا ما نشاء ونظهر ما نريد من ثبات وقوة، ولكننا مهما امتلكنا من المهارة التي تجعلنا نصطنع السعادة على وجوهنا، فأعيننا تبقى عاجزة عن تزييف الحقيقة..

هاتان العينان التي عندما رأيتهما لأول مرة لقيت بهما رشدي ونفسي.

تصفحت بحرص منشوراتك وتعليقاتك كي أرى كيف سارت أمورك، ولوهلة شعرت بتغييرٍ مؤسف، منشوراتك اليائسة، نصوص قصيرة مكونة من سطرين بالكثير، لم تعودي تهتمين بنشر شيء لكِ، حتى شعرت بهجرة صاحب هذا الحساب.

ضغطت فوق الخانة المختصة بالرسائل، لا أعرف كيف تحولت المحادثة التي كانت بيننا لا تنتهي من الكلمات، والمرح، ولحظات لا تُنسى، أصبحت بهذا الانطفاء، تصفحت رسائلنا الماضية بحرص وأنا ابتسم لما أراه من شخصين متحابين لا يسع بهجتهما العالم بأكمله، حتى استقرت عيني على آخر رسائلنا التي مر على إرسالها أكثر

من عامين..

أكثر من عامين، وربما ثلاثة أعوام لا أعرف عنكِ شيئًا، ثلاثة أعوام من المضي وحيدًا بدونك، ثلاثة أعوام من الجفاف الذي كان كفيلًا بتغيير كل شيء بنا.

أردت مراسلتك باشتياق، تمنيت في تلك اللحظة لو أن يعود كل شيء كما كان بيننا، ولكنني أُدرك أن ما يموت من المستحيل أن نمده بالحياة مرة أخرى، وأن الفجوة التي تحدث في أي علاقة مهما كانت قوتها.. تُهدم ولا يبقى سوى آثار حطامها، فكتبت كلماتٍ لكِ مسحتها دون مراجعتها، ودفنت اشتياقي لكِ في رسائل كتبتها قد حُذفت ولم ترسل، وغادرت المحادثة، لأنظر مرة أخيرة على صورتك، قبل أن أتحسسها بأعين نادمة على ضياع أجمل ما كنت أملكه، وأخرج تمامًا دون أن تشعري بشيء، غالقًا هاتفي، جالسًا وحدي في أول مكانٍ اجتمعنا به سويًّا.»

ولم تمر إلا بضعة دقائق قليلة ليصبح هاتفي عبارة عن رنة إشعارات متواصلة بخصوص نصي الذي لن يدرك أحد ما وراء كواليسه، فقررت أن أغلقه لأنعم ببعض الصفاء والسكوت وحدي، لكن قبل أن أفعل سقطت عيني على رسالة من ذاك الشخص الوحيد الذي سمحت له بالدخول إلى عالمي «آسيا»، متسائلة عن مكاني بعدما ذهبت إلى منزلي ولم تجدني، فأخبرتها أنني أمام منزلها، صاعدًا إليها.

***

14

«كنت أنا السيئ في رواية أجمل من كان في روايتي».

***

رغم غضبها لما فعلته معها اليوم وتركي لها، وهدم ما حاولت بناؤه، لم تستطع إلا أن تكون في استقباله بكل الحب الذي يوجد في العالم، أصبح بطلها وشغفها وحلمها الذي تريد تحقيقه، فتحت قفل الباب وركضت إلى غرفتها مسرعة لترتدي الفستان الذي يحبه «ياسين»، تفكر في ذلك الشخص الذي لم تعد تعرف كيفية التصرف معه، ولكنها على يقين بأنها عشقته بالتأكيد..

استمعت لرتاج باب شقتها يُفتح، فارتجف قلبها وابتسمت رغم غضبها الشديد منه، وبخطوات واضحة الصوت اقترب «ياسين» بعينيه المنكسرتين وفتح غرفتها دون استئذان، ليفاجئ أنها على تسريحتها ولكنه لا يُبالي، فحزنت أكثر فور رؤيته، وبفستانها القصير قامت من فوق كرسيها، وخصلات شعرها المتناثرة فوق كتفيها..

ثم جلست بجانبه على طرف سريرها ورتبت على كتفيه، ثم قالت بمواساة لقلبه المنفطر:

- لا عليك يا «ياسين» أنا بجانبك، سنحاول مجددًا مرة أخرى يا عزيزي..

ثم صمتت وابتسمت وهي تكمل كلماتها بدلال:

- رغم ما حدث وأغضبني منك اليوم لكنني لست غاضبة الآن.

فبكى لأنها لم تعلم ما يحدث معه، وما جاء ليقرر فعله.. فنظر لها منهزمًا ثم قال وكأنه يلقي كلماته الأخيرة:

- لا أريدك في حياتي يا «آسيا»، لن تكوني معي أبدًا، هذا الأمر ليس بيدي، ولأنني أحببتك لا أريد خداعك.. وتوريطك في شخص لا يستحقكِ مثلي.

فاحمر وجهها مما يلقى على مسامعها وحدقت بعينيها إليّ، فأكملت دون رحمة مني عليها:

- تمنيت أن تكوني أول فتاة التقيتها في حياتي، ولكن الواقع ليس بتلك النظرة الوردية، صدقيني ما كنت أتمنى نهاية لعلاقتنا تلك، ولكنني لم أحتمل بعد الآن.

لا تعلم حقيقة أنني أحبها حقًا، ولكنه حب ناضج خالٍ من المشاعر التي قد تتحكم بصاحبها في إطاره وإنما تقاس الأمور بعقله فقط، وهذا أسوأ ما يكون في العلاقة، فالحب إذا فقد جنونه، تهوره ومرحه، يصبح رسميًّا مملًا وقاتلًا، لا أريد أن أكون معها وفي قلبي غيرها يراودني، لا أريد خداعك يا «آسيا» ولكنك لن تتفهمي ذلك، ولن تريني سوى نذل يتخلى عن من مد إليه يد العون.. لكنني فوجئت برد فعلها ودموعها الباردة التي تنهمر على خديها بابتسامة غريبة بدرت منها.. ثم قالت:

- ارتديت فستاني الآن لك عندما علمت أنك آتٍ..

ثم شهقت وأخرجت زفيرًا طويلًا بعدما قامت من جانبي، وكأني أرى شخصًا غريبًا تمامًا وبنبرة بها شجن دموع حارقة مكتومة في عنقها شعرت بها قالت:

- إذًا هو اللقاء والوداع الأخير، لأنك لن تستطيع أن

نتغلب على يأسك وما حدث لك..

- صدقيني يـا «آسيا» الأمر ليس بتلك ال...

وضعت يدها فوق فمي في إشارة منها بأنها لا تريد أن تستمع لشيء مني، وبين دموعها التي تتساقط أردفت بنبرة مرتجفة:

- لا تقل شيئًا، فقط لي الحق في طريقة وداعي بك طالما قد قررته أنت..

هززت رأسي في ذهول وما زالت يدها فوق فمي، ثم نهضت واستدارت وأنا أتابع بعينيَّ ما تفعل لأرها تتجه نحو السماعات المتواجدة بغرفتها، ثم فتحت هاتفها وقامت بتشغيل أغنية في تعجب تام مني لما تفعله، حتى استدارت لي مرة أخرى ناظرة إليّ بأعين قد قتلتها تناديني، لأذهب لها هذه المرة معانقًا إياها لاحتياجي لذلك العناق بشدة أكثر منها، نعالج جروحنا بجروح أعمق دون أن ندري، فارتمت داخلي مع أول كلمات أغنيتها الحزينة..

Is everybody lonely?

هل الجميع وحيد؟

Is everybody scared?

هل الجميع خائف؟

Is everybody worried

هل الجميع قلق

thet no one really cares?

لا أحد يهتم حقًا؟

تهتز أجسادنا بنمط هادئ حزين كأغنيتها، اختارت أن يكون الوداع برقصة لروحها كما كان لقاؤنا، ولكن هذه المرة بين ذراعي، مغمضة عينيها، مستندة هي هذه المرة برأسها فوق كتفي، يهتز جسدها بخفة معي، ممسكًا يدًا، وواضعًا الأخرى حول خصرها الرفيع، ولم أعترض على تلك الطريقة التي اختارتها لتودعني، فكان حزنها أقوى من أي شيء، أقوى من أن يقاوم..

See I'm afraid to love, but afraid to be alone

أخشى الحب، ولكنى أخشى من أكون وحيدًا

Still, I wonder why my heart is always broke

ما زلت أتساءل لماذا قلبي دائمًا محطم

What a way to live, let the fear take all control

يا لها من طريقة للعيش، ترك الخوف يسيطر على كل شيء

Oh, this ain't life, no

هذه ليست حياة، لا

بدأت أشعر أن كلمات الأغنية تداعب روحنا أكثر، لا أعرف أشعر بآلام لها أم لي، ضغطت أكثر على يدها، أشعر بدموع عينيها التي بدأت أن تتساقط مرة أخرى بشدة، تشتبه النهاية بالبداية كثيرًا، ولكن المختلف هذه المرة، أنها من كانت في أشد الاحتياج إليَّ، كانت هي

من تبكي، أشعر بوقاحتي، فبعدما كانت هي من تواسي دموعي فوق كتفيها، أصبحت أنا من أفعل ذلك الآن.. وأواسيها رغم أنني من جرحت قلبها..

I'm not alive

أنا لست على قيد الحياة

Are we all the same?

هل جميعنا متشابهون؟

Looking for love, looking for love

نبحث عن الحب، نبحث عن الحب

Are we all in chains?

هل جميعنا مقيدون بالسلاسل؟

Trying to be enough, be enough

محاولين أن نكون كافين، نكون كافين

ضغطت عليها في حضني أكثر، بدأ يرتجف جسدها قليلًا، فقبلتها في وجنتها قبلة خفيفة دون أن أتفوه بشيء، ما زالت مغمضة عينيها، وما زلت عاجزًا، كانت لحظة وداعنا مختلفة عن أي لحظة وداع بين اثنين في العالم بأكمله، كما كان لقاؤنا مختلفًا أيضًا، غمرتها كلمات أغنيتها الكئيبة، وحطمتني، جميعنا مُقيدون حقًا، جميعنا أسرى لمن أدمنتهم أرواحنا فأصبح حزننا عميقًا بعد رحيلهم.. حتى لم نعد نستطع الوصول إليه كي نتمكن من مداوته.

I'm trying to write my perfect story

أحاول كتابة قصتي المثالية

I’m not special, I’m just a simple broken man

أنا لست مميزًا، أنا مجرد رجل محطم بسيط

So I will hide my face with my picture-perfect mask

لذلك سأخفي وجهي بقناع صورتي المثالي

Oh, this ain’t life, no

هذه ليست حياة، لا

ظل جسدنا يتمايل بهدوء معًا، ثم بدأت أمسح بيدي فوق رأسها، في محاولة مني لتهدئة شخص أسلب منه حياته، بعدما ظل عمرًا يبحث عنها، كنت أنا الجاني في رواية «آسيا» هذه المرة، كنت أنا الأسد الذي التهم صاحبه، فهمست في نفسي وهي ما زالت مستندة على كتفي، لم أكن كاذبًا يومًا معك يا «آسيا»، ولكن أحيانًا تضعنا الحياة في مأزق يكون السبيل الوحيد للنجاة منه، هو أن نضحي بجزءٍ من روحنا، واستطعتِ أن تُصبحي بدلال روحك جزءًا عظيمًا مني، ولكنني كنت مجبرًا على بتره.

It’s just a lie

إنها مجرد كذبة

If I looked you in the eye

إذا نظرت في عينيك

And showed the broken things inside

وأريتك الأشياء المحطمة بداخلي

Would you run away?

هل تهرب؟

بدأت في فتح عينيها ببطء، دائمًا ما تمتزج بكلمات أغنياتها، نتعامل معها وكأنها رسائل تبعثها روحها إلى هذا العالم السيئ الذي لا يستحق إنسانه في نقائها، وكنت أنا العالم بالنسبة لها في هذه المرة، كنت أنا السيئ في رواية الشخص الأفضل مؤخرًا في حياتي..

If you saw my darkest parts

إذا رأيت أجزائي الأكثر ظلمة

نظرت «آسيا» إليَّ وجسدانا يتمايلان بهدوء ممتزج بحزن عميق معًا، بدت لي في قمة حزنها أكثر جمالًا من أي وقت مضى، عيناها اللتان جعلتهما دموعها أكثر لمعانًا رغم بكائها، وشفتاها الصغيرتان، وملامحها الفاتنة، اجتاحتني الرغبة في توديعها هذه المرة بطريقة مختلفة لا تنسى، رأيت في عينيها ما تراه في عيني، فاقتربت منها بثبات، لأقبلها في شفتيها دون أي تردد..

The wicked things inside my heart

والأشياء الشريرة بداخل قلبي

لم ترفضني، بل كانت في احتياج لهذا بيننا، كنا في احتياج لأن تُعانق أرواحنا بشكل أعمق، لتغمض عينيها مستمتعة بي، رغم خذلاني لها بكلماتي منذ قليل، وأتركها

أنا في الحال لأستمتع بها بين يدي، فمسحت بيدها فوق وجهي ولحيتي المنمقة هذه المرة، بعدما رمقتني بعينٍ تتأملني، وتريدني، ثم ببطء سارت إلى أن بدأت بحل أزرار قميصي من الأعلى بهدوء، مستمرين في الرقص سويًّا، حتى سحبتها إليَّ بشدة هذه المرة لألتهم شفتيها بقوة أكثر..

Would you run away?

هل تهرب؟

خلعت قميصي ولم أبتعد عنها بل قررت ألا أهرب وكأنني أجيب في رأسي عن أسئلتها الخفية في كلمات أغنيتها، بدأت في فك فستانها القصير من الخلف بيدي التي التفت بالكامل حول خصرها لأحتضنها بقوة، ثم جذبتها بخفة إلى سريرها المتواجد خلفنا، لتنفرد أمامي بإثارة جعلتني أميل إليها بنهم مشتاق، غير مبالين بأي شيء آخر سوى أن نعيش تلك اللحظة بكل ما تبقي منا.. لأنني نفس الشيء يا «آسيا»، لن أتوقف عن احتياجك دائمًا حتى وإن ادعيت ذلك.

Or are you the same?

أم أنك نفس الشيء؟

***

15

«ربما عليك أن تتخذ حذرك من أصدقائك قبل أعدائك!»

***

- هل رأيتِ «ياسين»؟

اهتز جسدها من وقع سماع السؤال عليها، حدقت لثوانٍ لتكشف عيناها عما يخفيه قلبها، لينظر «زياد» بتحدٍ لها، نظرة تعبر عن كل الشر الذي يحمله داخله، ليردف قائلًا بنبرة ثابتة أمام اهتزازها:

- لا داعي للنطق بالإجابة فعيناك قد ردتا على ما أعتقد..

ثم سحب نفسًا طويلًا من السيجارة التي كانت بيده قائلًا:

- أكانت كل تلك اللعبة من أجل إلهائي لتلتقي به!

ارتسمت على شفتيه ابتسامة ساخرة بعدما اقترب منها وهي ما زالت غارقة في صمتها وذعرها من وقع ما سمعت وقال:

- لعبة فاشلة كمن أحببته..

قالها قاصدًا إهانتها، في صمت تامٍّ من «سارة»، فربَّتَ على كتفيها وهو يقترب منها بدخان سيجارته وبنبرة ثابتة أكمل كلماته:

- ولأنني أُقدر اللعبة الحلوة، فأنا أيضًا أعاقب اللعبة الفاشلة..

ما زالت متصلبة في مكانها، تحاول أن تربط الأمور

ببعضها، فهي لا تفهم شيئًا، لأنها بالطبع ما كانت تعرف أن الكاتب الذي سيلتقيه «زياد» هو في الحقيقة «ياسين».. إذًا «ياسين» ضحى بذلك الحدث وتلك المقابلة من أجلي، وفضَّل أن يأتي ليراني!

في عقلها دارت تلك الكلمات لتلمع عيناها على ذاك الرجل الذي يلحقه أذاها من كل اتجاه، ثم نهضت من جلستها واقفة، واستجمعت شجاعتها فجأة قائلة:

- لم ألتقِ بأحد، وأين ألتقيه بعدما سلبته مني، وكنت أنا سببًا في تدمير حياته بفضلك.

ليغضب بشدة، ويلقي سيجارته أرضًا ويقترب منها ممسكًا ذراعها بقوة محدقًا في عينيها بحب متملك خانق..

- لن يأخذك أحد مني.. أنتِ خُلقتِ لكي تكوني إليّ، كان هو ذاك السبب الذي جعلنا نلتقي أيتها الحمقاء.

ثم أمسك ذراعها الآخر بيده لتبقى في مواجهة مباشرة، وتحولت نظرة عينيه إلى التوسل قليلًا:

- أنتِ لي يا «سارة»، أنا من أحببتك وحاولت من أجلك..

ثم تحولت نظرته المتوسلة إلى قوة حارقة، وعلا صوته صائحًا بها مرة أخرى:

- وإن اضطررت للقتل مرة ثانية وثالثة، لن يأخذك أحد مني، أتسمعينني، أنت لي أنا فقط..

لتنهمر الدموع من عينيها بسرعة جارفة قائلة:

- أنت مريض.. مرريض!

ليركلها بعيدًا وهو يقول باستهزاء:

- إن كان مرضي هو أنتِ فلن أبحث عن الدواء أبدًا أيتها الحمقاء.. لن تكوني لأحد في العالم سوى لي، قتلت مرة، وسأقتل ثانية إن شعرت بتهديد ضياعك من يدي، ليتركها ويرحل في حيرة شديدة لوقع كلماته عليها، ولأنها تعلم جيدًا أنه صادق في جملته الأخيرة تلك.. لأنها كانت الشاهدة الوحيدة على جريمة قتله الأولى التي ارتكبها..

***

أجلس على قهوتي البسيطة التي كنت أحبها قبل أن يظهر حلمي إلى النور، بأسفل كوبري قصر النيل المطل على النيل مباشرة.. صمت تامّ يغمرني، أفكر في كل شيء حدث، كيف كانت بدايته، وكيف أصبحت قصتي الآن..

لم أكن أتوقع أن أصادف كل تلك الأحداث المهولة يومًا ما، حقًا تسخر بنا الحياة حيث تريد، وسخريتها في ذلك أنها تجعلنا على اعتقاد دائم أنها تسير حسب إرادتنا نحن، جميعنا هنا عرائس متحركة، جميعنا عبارة عن لعبة ماريونيت تؤدي دورها حسب السيناريو الذي وضع لها، وليس حسب إرادتها، أتذكر أول كلماتي التي كتبتها هنا، ويبكي قلبي بشدة، عيناي الباهتتان تشردان كثيرًا فيما يحدث الآن، وفيما قد حدث من قبل، لماذا لُعنت بذلك الشكل، تغمرني «آسيا» بطلة فستانها التي ارتدته لي، أفكر في طريقة وداعنا بالأمس التي فاقت حد الجنون والألم، لم نتفق على شيء، فقط بلغنا ذروتنا، وعناق طال في صمت جعلني متعجبًا من أفعالنا، عناق طال كثيرًا حتى ذهبت

هي في نوم عميق وأنا أشعر بدموعها فوق صدري، وقلبي يتألم، ثم رحلت تاركًا إياها في نومها العميق، والليلة الأحزن في عمرها بالكامل..

هل كانت «آسيا» حكاية جميلة وانتهت؟ لم أتوقع ذلك قط.. ولكن هذا الأفضل لها، «آسيا» لا تستحق أن تكون لُعبة في حياتي، أخذل قلبها وهي من أعطت قلبي كل هذا الحب المفرط، لذلك ستسامحينني يا «آسيا» لأنكِ تعلمين جيدًا أنني لا أملك قلبي، وإن كنت كذلك فما كان في العالم من يستحقه غيرك.. ولكنه عالق بقدر آخر، بتلك التي طعنته ورحلت..

لم أعرف ماذا أفعل في ذلك التوقيت، أتأمل المارة في الطريق، أحتسي كوب القهوة الذي طلبته منذ قليل، وأخرجت هاتفي لأتهرب قليلًا من ضجيج رأسي. فتحت برنامج الإنستجرام خاصتي، غير مبالٍ بشيء سوى إلهاء عقلي عن التفكير في كل تلك الأمور التي تثقل قلبي همًا، أتصفح دون فائدة لا أضع تعليقًا أو تفاعلًا لأحد، لتظهر أمامي صورة فتاة أعرفها جيدًا، لمعت عيناي حينما رأيتها، تمعنت ملامحها لأبتسم في سري، كيف نكبر دون أن نشعر.. لأتفاعل بلايك مع صورتها وأُكمل وأنا أتذكر أشياء قد مضت منذ أعوام..

«سلمى» الصديقة اللطيفة، كيف كانت علاقتنا وطيدة، كيف كانت تؤمن بي قبل ظهور «سارة» في حياتي من الأساس، كان لقاؤنا غريبًا في حدوثه، وكان إيمانها بأنني سأصبح كاتبًا ذا مستقبل باهر أغرب، كانت ترى فيَّ ما لا أراه في نفسي، تدفعني للأمام بدورها الصديقة التي

عاهدتني على ذلك، رغم تحملها المسئولية من سن صغيرة، تعمل وتحاول النجاح في دراستها، وتسعى لتصنع مستقبلًا لنفسها دون انتظار مساعدة من أحد كبقية معظم الفتيات الآن، كانت نموذج للفتاة التي يتمنى أن يكون معها أي رجل.. وكان لي الحظ الأكبر في أن تكون صديقتي المقربة.

باعدتْنا الحياة بما فيه الكفاية كنا نلتقي مرات نادرة، كان القانون المتعارف بيننا وهي من وضعته أن شات المحادثة لا يكفي للحديث، لذلك من يرانا من خلال مواقع التواصل الاجتماعي فيظن أننا أصدقاء أبعد من العابرين، ولكن في أرض الواقع كنا أقرب مما تظن..

كانت تخبرني دومًا أن الشات يهدر روح العلاقة، وأن من الأفضل أن يكون الشات للعمل وبعض الأشياء الجانبية فقط، حتى آخر مرة في حفل توقيع روايتي كانت أول شخص متواجد ولكنها لم تتحدث معي قط، رأيت في نظارتها فرحة حقيقية بي، تصفيق حارٌّ منها، ثم رحيل، لألتقي منها رسالة أنها تريد مقابلتي، لتفاجئني بهدية لي وهي تهنئني قائلة كلمات لم أنسها قط، أنني قد حققت ما كانت تراني قادرًا على فعله منذ أن التقينا، لأعطيها نسخة موقعة مني وعينها تلمع بدموعها فرحة بي، وتخبرني بأنها ستكون متواجدة دائمًا حينما أريد ذلك ولكنها لن تكون متواجدة دائمًا حتى لا تنزعج «سارة»، بالطبع لم أخبر «سارة» عليها لغيرتها الشديدة التي تدفعها دون أن تفهم.. وفشلت محاولاتي في أن أجعل «سلمى» متواجدة في حياتي مثلما كنا في السابق.

عدت من شرودي فجأة على صوت رنة هاتفي والتي كانت الرنة الثالثة من نفس الرقم غير المسجل، لأرد هذه المرة حتى أتخلص من رن هذا المتصل الذي أجله قائلًا بتأفف:

- من المتصل؟

- نسيت صوتي، أم أنك لا تستطيع التذكر الآن؟

صوت أعلمه جيدًا، صوته الخشن ولهجته السريعة المختلفة، ونفسه الواضح بين كلماته، وكيف لا أعرفه وهو كان سببًا في كل ما حدث في طفرة رائعة من حياتي ككاتب:

- «زياد»..

قلتها متعجبًا فأردف دون أن يعطيني فرصة لأسلم عليه حتى:

- أصبحت بعيدًا بما فيه الكفاية، أعتقد حق الصداقة الذي بيننا يجب أن ينتهي الآن.. بعد تلك الورطة التي وضعتني بها في ذلك الحفل الذي قد دعوتني لأقيمه لك ولم تحضر..

أغمضت عيني للحظات في حيرة، حقًا نسيت أنني قصرت معه لدرجة لا تطاق، فحق له أن ينفعل بكلماته تلك الآن..

- «زياد» أود أن أعتذ...

- لا أريد سماع شيء.. وكما تعرف عني، أنا أقدر اللعبة الحلوة، ولكنك حتى فشلت في ذلك، الإجراءات القانونية

هي التي ستتخذ مجراها بيننا الآن.. فكن مستعدًا وعين لك محاميًا الفترة القادمة..

رابط قناة ضار:(https://t.me/twinkling♦)

ثم صوت رنات جرس علت...

بالطبع أغلق المكالمة في وجهي..

ماذا يقصد باللعبة وتلك الكلمات، لا أفهم شيئًا مما يقصد بكلماته هذه، ولكنني ما فهمته أنني خسرت كل شيء الآن.

لأغلق الهاتف، وألعن «سارة» في خاطري للمرة الألف.

***

16

«أحيانًا يحمل الماضي أشياءً جميلة.»

***

- هذا يعني أنك قد اتخذت قرارك بالسفر..

قلتها بعدما أخذت رشفة من القهوة الموضوعة أمامي في مقهى بسيط كنا نمكث إليه بين كل فترة والثانية عندما نريد أن ننسى العالم قليلًا ونتذكر أيَّامنا سويًّا وذكرياتنا المرتبطة بذلك المقهى، فهز «خالد» رأسه مؤكدًا على جملتي وقال وهو يتثاءب:

- نعم قررت ذلك، الشركة التي أعمل بها تفعل ذلك كل عامين كمنحة للمهندسين المتميزين بها..

ثم رمقني بنظرة لوم قائلًا:

- أنت تعلم جيدًا أن فرصة مثل تلك لن تأتي ثانية في الوقت الحالي، وبوضعي هنا سيكون آخر ما أطمح إليه معيشة أفضل والسلام، وأنت تعلم قدر أحلامي يا «ياسين»..

فكرة الهجرة في حد ذاتها أصبحت تراود جيلنا الحالي بأكمله، أصحاب الشهادات والمؤهلات العليا، والمتوسطة، وحتى من لم يتعلم من الأساس، لا أعلم إن كانت طفرة جيلنا هي فكرة الهجرة التي نستخدمها كشماعة لعجزنا عن تحقيق أحلامنا، أم نظرتهم صحيحة ولا شيء يتحقق إلا بتلك المجازفة، فحدثته قائلًا بنبرة حزينة بعض الشيء:

- وذلك سيحدث متى؟

- ربما في خلال الشهر القادم.

فشعرت بالحزن داخلي، ليس لشيء إلا أن صديقي الوحيد الذي أجلس معه بكل أريحية لن يكون موجودًا، وستصبح بيننا مسافات وبلاد، وبالتالي كل شيء سيتغير رغمًا عنا، فقلت له بابتسامة مخيبة للآمال:

- ومع من أجلس بعدك يا خالد..

فابتسم وقال مازحًا:

- لا تقلق سأحدثك دائمًا من هناك..

ثم وبنبرة جادة قليلًا:

- تعلم يا «ياسين» أنني لن ألقى صديق مثلك، ولكنها سُنة الحياة يا صديقي..

فهززت رأسي في حالة راضية بالأمر الواقع الذي يفرض نفسه علينا وقلت:

- نعم يا خالد إنه الأمر الواقع للحياة، وعلينا أن نتقبله.

كان يدور هذا الحوار في رأسي لأشعر بغصة في قلبي عندما تذكرته وأعود من شرودي على صوت اهتزاز انتشلني من تلك الذكريات معلنًا على شاشته اتصالًا جديدًا لأبتسم حينما رأيت اسم المتصل.. اتصال هاتفي من «سلمى».

يكمن عيبي الذي صرت أبغضه مؤخرًا أنني أغرق في محيط ذاكرتي مسرعًا.

فشردت لثوان لأتذكر بها كم مرت من الأيام التي لم نتواصل بها حقًا..

كان ذلك قبل الدخول في كل تلك الدوامة الكبيرة التي أنا عالق بها الآن.

كنت أتردد على مدينة عروس البحر أكثر من أي وقت في عمري، أحببت الإسكندرية ومن عاقل لا يقع في حبها من أول زيارة، كنت أتردد في أوقات دراستي أجلس هناك وحيدًا مستمتعًا بهوائها ودفء خيوط شمسها على وجهي أمام بحرها الكبير الذي أحببت النظر إليه فقط ولم أفكر قط في أن أقترب منه، بطبعي لا أحبُّ المياه وكان لذلك قصة كونت عقدة بداخلي، حيث كنت في الثانية عشرة من عمري وأوشكت على الغرق ومن يومها هذا وأنا بيني وبين الاقتراب منه عقدة..

كنت أجلس وحدي لساعات دون ملل أشعر به، أذهب في كل أسبوع مرة على الأقل، أذهب إليه بروح سلبية وأعود إلى دياري مرة أخرى بروح إيجابية مقبلة على الحياة، كنت حينها تقتصر كتابتي على نصوص وخواطر وقصص قصيرة، واهتمامي الشاغل كان بالقراءة واقتناء الكتب القيمة، حتى انقطعت عن عادتي تلك في فترة معينة كانت بسبب ظروف في جامعتي، وفقدان نسخة روايتي الوحيدة التي كنت قاربت على إكمالها والانتهاء منها، كان أصعب حدث في حياتي حينها، تخيل أن تمحى مشاعرك الأولى التي دونت بها، انتكس مؤلفون عدة بسبب فعل كهذا، يفقدون هويتهم مع فقدان أول شيء قاموا بكتابته، كانت بالفعل «سارة» قد ظهرت في حياتي، ولكنها كانت ما زالت لم تستحوذ على قلبي، فما كنت أخبرها بكل شيء يحدث، ولا حتى عن ذاك اليوم الذي

اكتسبت من بعده صديقة عزيزة رغم بعدها بمسافات تبعد بيننا تدعى «سلمى».

أمسكت بعقلي الذي يُصر على تذكرتي بكل شيء، وعدت من شرودي بوعي، بعدما أجبت على اتصالها وأنا أُحاول استعادة روحٍ أهلكها الزمن، رغم أنها كانت تصغرني بعامين لكنها كانت سببًا في تغيير أشياء كثيرة بي:

- كيف حالك أيها الكئيب؟

ابتسمت بخفة عند سماع نبرة صوتها، أحببت مرحها، وروحها التي أطلقت عنان حريتها منذ عرفتها، وقد كانت مختلفة حقًا..

- اشتقت إليك، أريد أن نلتقي، ونجلس سويًّا.

فلم أرد، لكنني شعرت بمشاعر هادئة مسترخية لم أشعر بها منذ زمن، من الجيد التواصل مع صديق حتى واحد قديم لك، يذكرك بنفسك، وروحك، وكيف كنت، يذكرك بأشياء نسيتها لانغماسك بالحياة، يشير لك كيف كنت فيما سبق، وهل أنت على ما يرام مثلما كنت تتمنى، صديق واحد قديم تحافظ عليه، كنز فازت به روحك.

فأردفت هي بعدما استوعبت أنني لم أرد:

- كي لا أطيل لأنك تعلم أنني لا أحب هذه المواقف، اشتقت لجلستنا سويًّا أمام البحر في مكاننا القديم، أعتقد أنك لا زلت تتذكره، أما إن كنت نسيته لن أخبرك ومعها انتهت صداقتنا.

استفزتني بجملتها الأخيرة فضحكت وقلت:

- لا عليكِ يا «سلمى» أنا أيضًا قد اشتقت إليكِ بشدة.

ثم تنهدت وقلت بعدما استمعت لصوت ضحكتها:

- لم أنس مكاننا بالتأكيد، متى نلتقي؟

- غدًا في الرابعة عصرًا حتى نشهد غروب الشمس مثلما كنا نحب.

ابتسمت، بعد أن وافقت وأغلقت الاتصال، لأعود إلى دائرتي مرة أخرى، كانت «سلمى» الشخص الذي لم يعلم عنه أحد في حياتي، ولا حتى «سارة» في أقرب الأوقات لي، وقررت ذلك لأبقي علاقتي بـ«سلمى» بعيدًا عن إثارة المشاكل حينها بدافع الغيرة، أحببت بأن أحتفظ بذلك الصديق لنفسي فقط، كما فعلت هي معي، وبالفعل لم تتجاوز صداقتنا يومًا ما هذا الحد، لذلك رغم قلة ظهورها في حياتي، تبقى الأقرب إليَّ.

***

«غدًا في التاسعة مساءً، سأنتظرك.. يجب أن تأتي.»

إشعار لهاتفي برسالة جديدة من حساب جديد، لماذا كل ذلك الغموض، يثير فضولي ما يحدث منها، وشيء ليس له تفسير، ولكني في قرارة نفسي لا أعرف ماذا أفعل، أذهب أم أطوي صفحتك يا «سارة»، صفحتك التي كانت سببًا في إهدار أعوام كاملة من حياتي، وبالفعل كما حدث المرة الماضية، حظرت حسابي بعد تلك الرسالة ولم تعطني مجالًا للاستفسار أو الرد على شيء.

***

17

«لا تدع للحياة فرصة بأن تمحو ابتسامتك»

سلمى

***

تقف أمام المرآة، يدور بذهنها متى آخر مرة قد التقيا، ربما تغير كل منهم كثيرًا عما كان بالماضي ولكن بقيت روح الصداقة بصفائها بينهما، ترتدي حجابها بربطتها المميزة، قصيرة القامة ولكن ليس كثيرًا، وجهها دائري، وابتسامتها المرحة كانت من أجمل صفاتها الشخصية، عيناها اللتان تشعر بسوادهما اللامع ولكنهما في حقيقة الأمر بنيَّتان، وصوتها الملائم لهيئتها الوقور كان من مميزات ما يجذبك إليها، تشعر بحريتها في كل شيء، ومنذ صغرها تحدد طريقها بنفسها، لم تدع للحياة فرصة في عرقلتها، فقد كانت دائمًا هي المنتصرة حتى في معاركها التي هُزمت بها، فما من أحد لا يهزم، ولكن هناك من يقاوم ويحاول النهوض مجددًا، وهناك من يرفع راية الاستسلام.

كان يتردد في كل أسبوع في يوم مختلف به، بهيئته المتحفظة بعض الشيء، دائمًا ما كان يحمل كتابًا بيده، ويبدو انه من هواة القراءة، ولا يمر أسبوع واحد دون أن يأتي به، بالطبع ما كنت أقصد مراقبته، ولكنني كنت أعمل بمتجر القهوة القريب من ذلك المكان الذي يجلس به، يأتي ليحتسي قهوته ثم يذهب، لاحظت تردده في كل أسبوع مرة على الأقل، حتى وقعت أنظاري عليه في جلسته التي تطول حتى بعد غروب الشمس هناك

ويرحل، اعتدت مجيئه للمقهى التي أعمل به حتى انقطع عن المجيء فجأة، ظللت أبحث بعيني في مكانه الذي اعتدت أن آراه لفترة به فلا أجده أيضًا، وبعد مرات لم يأتِ كنت قد نسيت أمره حتى ظهر في ذلك المكان مرة أخرى فغمرني الفضول حوله، الفضول في أن أتحدث ولو مرة واحدة مع ذاك الشخص الغامض في أفعاله بالنسبة لي، ويروق قلبي تعاطفًا معه في حقيقة الأمر، يمكن أنني حساسة بعض الشيء في الشعور بمن حولي، لم أتردد قط في حياتي في موقف مثل هذا، فقررت أن أعبر الطريق دون أن أستمع لتفكيري الذي سيمنعني بعد قليل لو تمعنت بالموقف وبما أرغب في فعله، كان جالسًا على سور البحر المطل عليه، يجلس ناظرًا إليه معطيًا ظهره للطريق، يضع سماعات الأذن مندمجًا مع أنغام موسيقاه التي يستمعها، فتوترت قليلًا قبل أن أبادره بكلمات خرجت مرة واحدة:

- إن سمحت؟

قلتها وأنا أقترب إليه فنظر متعجبًا، كان تائهًا هذه المرة، فأردفت كلماتي دون تردد هذه المرة:

- أن أجلس هنا.

وأنا أشير إلى المكان بيدي، حدق في وجهي لهنيهة متعجبًا من ذلك الفعل الذي بدر مني، ثم هز رأسه موافقًا ببطء واستعجاب، لأجلس مثله دون أن أنطق بحرف واحد ونظرت أمامي لثوان متجاهلة أمره كأنه ليس بجانبي، ليرمقني بنظراته في تعجب شديد وما زال الصمت يسود موقفنا، حتى بادرته وأنا ما زالت عيناي شاردة للبحر قائلة:

- ماذا تستمع؟

***

سألتقي بسلمى اليوم لم نفعل ذلك منذ فترة.

نظر إليَّ مبتسمًا ولم يرد فأردفت قائلًا له وأنا أبادله الابتسامة ذاتها:

- أشعر بأنني في مزاج جيد اليوم لأول مرة منذ فترة ليست بالقليل.

يبقى اللقاء بأصدقائنا الأقرب إلينا كعودة الروح للجسد مرة أخرى، خاصة وإن كان ذلك الصديق يعلم كيف يداوي جروحك بطريقته، يهون عليك مرارة شعورك ويقدم لك المساعدة التي تحتاج إليها، أحيانًا تصبح لقاءات الأصدقاء مثل التعافي مما يسري داخلنا من آلام يكمن الخلاص منها في لقائنا بهم، فرد عليه وما زالت ابتسامته على وجهه:

- سعيد بذلك الخبر فهذا جيد، عسى أن تلقى راحتك التي كنت تلقاها معها بالماضي..

لا أعلم أيها الطبيب، ولكنها كانت الشخص الوحيد الذي يستمع إليَّ جيدًا مع «خالد»، وبعد رحيله لم يعد يتبق سواها..

ربت برفق على كتفيه ثم قال بحماس:

- لا عليك يا «ياسين»، الأهم أن تلقى راحة قلبك، لذلك أنصحك بأن تفعل هذا في أقرب وقت ولا تؤجله مثلما تفعل في معظم قراراتك..

ثم نظر في عين «ياسين» وأردف:

- لم يتبق سواها الآن من بعد خسارتك لـ«آسيا».

فنظرت له، وكدت أبكي، ولكنني تركته وأنا أبتسم بخيبة أمل واضحة ورحلت.

***

قادمة من بعيد، يا إلهي لقد كبرت الصغيرة، كانت قصيرة القامة بطريقة ملحوظة حينما كنا نلتقي، أصبحت الآن في هيئة تعبر عن شخصيتها التي تعبر عن تغيرها بالكامل، ابتسمت عندما تذكرت بماذا كنت أنعتها دائمًا بالمراهقة التي هربت من مرحلة الثانوية، وازدادت ابتسامتي أكثر عندما ألتقت أعيننا من على بعد، تريد أن تعرف حب الأصدقاء لبعضهم، شاهدهم كيف تصبح نظراتهم إلى بعضهم البعض وما زال بينهم مسافة قبل أن يقتربوا، بالطبع عانقتُها بحرارة وأنا أبتسم قائلًا لها:

- كبرتِ أيتها الصغيرة.

لتضربني في كتفي قائلة:

- اشتقت حتى إلى مداعبتك السخيفة تلك..

أخذتها من يدها وسرنا سويًّا وأنا أرمقها بنظراتي فقط مبتسمًا وفرحًا بتلك اللحظة التي اجتمعنا بها مرة أخرى بعد كل ذلك الانقطاع، لتبادرني هي قائلة بابتسامة ودود:

- لم نلتقِ منذ فترة كبيرة.

- حقًا.

قلتها ناظرًا أمامي، ثم أردفت بعدما عاودت النظر إليها:

- ولكنك دائمًا كنتِ حاضرة.. مثلما عاهدتني..

- أنت تعرف كم أحبك يا «ياسين»، اشتقت للجلوس معك بشدة.

فسحبتها من يدها مثلما كنا نفعل في كل مرة نلتقي بها، وعبرنا الطريق وهي في غاية الفرح لأنها تحب ذلك الشعور جيدًا، أحببت طفوليتها التي لم تحاول إخفاءها قط في علاقتنا تلك.

ثم ذهبنا لنأكل سويًّا في لحظة استعادنا بها كل شيء جميل من ذكرياتنا كنا نفعله بالماضي، وأخذنا قهوتنا وذهبنا لنرتشفها في مكاننا المفضل، وجلستنا المقابلة للبحر.

***

- والآن لا أعرف ماذا يتوجب عليَّ فعله يا «سلمى» حالة من التشتت التي لم أواجهها في حياتي مطلقًا، وخسارة كل شيء بالتدريج وكأن الحياة أصرت على توجيه ضرباتها على دفعة واحدة فيَّ حتى تقضي عليَّ تمامًا، «خالد» ثم «سارة» والآن «آسيا»، لا أعرف لماذا كلما أحببت أحدًا لا تبقيه الحياة لي، لم أعد أعرف متى الخلاص.

كعادتها كانت رفيقة بي حتى في لحظات العتاب، وبعينيها أشعر بها تريد مواساتي، تنظر إليّ بهدوء، ما كنت أعشقه بها أنها كانت تستمع دائمًا لي، ثم انتهيت من حديثي لأراها تمد يدها وبرفق أخبرتني قائلة:

- لا عليك، سنصلح كل شيء من جديد،

بخيبة أمل قلت:

- كيف.. هل هناك فرصة لعودة «خالد»!

- بالطبع لا، لكننا سنصلح ما في يدنا أن نفعل..

ثم أخرجت زفيرًا ونظرت إليَّ بحدة وأكملت:

- هذا هو عيبك..

رمقتها دون أن أنطق فأكملت هي صائحة بي:

- عيبك أنك انهزامي يا «ياسين».. الحياة لا تقاس بتلك الطريقة، أنت من كنت تخبرني ذلك يومًا ما، وبطبعك الانهزامي تترك الحرب لخسارة جولة واحدة بها، دون مراعاة منك أن ما زال هناك جولات يمكنك الفوز بها، ولكنك تسمح لشعورك بأن يهزمك فتستسلم وترفع رايتك قبل حتى المحاولة الأخرى.

استمعت إليها وما زلت ناظرًا لها.. فأردفت بجدية أكثر:

- إلى متى ستتعامل مع الحياة على أنك ضحية، وليس كناجٍ!

أعرف ما حدث لك، أعرف أن ما رأيته كان أصعب مما أن يستوعبه عقل، ولكنه حدث، وأخذت وقتك في الصدمة والحزن، ماذا بعد، هناك إستراتيجية تسمى التأقلم كنت تخبرني عنها دومًا عندما كنت أحدثك كيف نتعامل مع أيام فترة خدمتك العسكرية.. هل تتذكر يا «ياسين»؟

بدأت تلمع عيناي، لِما تذكرته من أيام وأصدقاء قد رحلت بها، ثم عدت من شرودي لأنتبه لها مرة أخرى:

- أنا لست هنا لأنني ضدك، ولكنني أريد مساعدتك، يكفي يا «ياسين».. سنحاول مجددًا معالجة ما تبقى.

- كيف!

قلتها باستحياء كالذي عثر على قشة منقذ الغريق التي يتعلق بها.

- لا عليك، ستذهب للقاء «سارة» لنعرف ماذا تريد منك، وكما سنتفق الآن لا يجب عليك التفكير في إحياء الماضي يا «ياسين».. علينا النظر للأمام من هذه اللحظة، لتراودني «آسيا» في عقلي بعد تلك الجملة فخفق قلبي، فقالت دون أن أنطق بشيء:

- نعم «آسيا»، سأحاول أنا معها.. لا تحمل همَّ ذلك.

ابتسمت فرحًا بما شعرت به من كلمات «سلمى» والأمل الذي شعرت لأول مرة منذ فترة طويلة يسري داخلي، ووافقت دون الاعتراض، وأنا على أعتاب خلق محاولة جديدة من أجل النجاة كما أخبرتني. ثم اقتربت مني وهي تربت بيدها على كتفي قائلة:

- أنا أثق بك يا «ياسين»، أثق بك حتى وإن فقد العالم بأكمله إيمانه بك.

الصديق الحقيقي هو من يظل بجانبك في أشد الأوقات ظلمة التي تمر بها، يأخذ بيدك في كل مرة احتاجت إلى العون بها، ولا يعرف سوى شيء واحد مهما كانت لقاءاتكما نادرة.. أنه لن يتركك تعاني وحدك أبدًا وكذلك كانت «سلمى» كانت الصديق الحقيقي الذي حظيت به.

***

18

«منذ تلك الليلة لم أعد أنا».

***

في الخانة المختصة بالذكريات، أظهرت لي أنه قد مر عامان على ذاك اليوم! استيقظت من غفوتي بعدما قاربت الشمس في السماء على الغروب، وأنا أتذكر متعجبًا لنفسي بالمرآة على سرعة الأيام التي لم أعد أشعر بمرورها، كيف مر عامان على عدم وجودك، رغم أن العالم من حولي قد تغير كل شيء به ببعدك، لم أعد أذهب لمقهانا المفضل، لم أعد أجلس مع أحد بروحي التي كنت ترينها أنت، تغير كل شيء تمامًا.. يعلم الجميع أنك قد فارقت هذه الحياة وفي حقيقة الأمر أنت لم تفارقني قط كما يعتقد البعض..

ربما رؤيتك معي دائمًا في ذاكرتي هي من جعلتني لا ألاحظ غيابك كل هذه الفترة، ثم حولت بصري لهاتفي، وتأملت تلك الصورة التي التقطناها سويًّا احتفالًا بأول إنجازاتي ولم أعلم حينها أنه آخرهم، وجملتي التي كتبتها فوقها ولم أصدقها حتى الآن، أن أعز أصدقائي، والأخ الذي لم تلده أمي، في ذمة الله.

***

- «ياسين» أين أنت؟

قالها بصوت صارخ شعرت بارتجافته والصخب من حوله عاليًا في سماعة هاتفي، لينتابني القلق وأنا أقول بتساؤل:

- من أنت وما الذي حدث!

فأجابني الصوت ذاته بنبرة بدا عليها البكاء بالخبر الذي لم تعد حياتي كما كانت قبله:

- سقط صديقك من الطابق الخامس، ونحن في طريقنا إلى المشفى الآن.

وكأن هناك من صعقني، ضربة على رأسي لم أستطع أن أستفيق منها حتى الآن، لأتفهم أن هذا الصخب هو صوت بوق سيارة الإسعاف بالطريق، وأنا في حالة ذهول لما سمعت وعدم الاستيعاب، لم تبكِ عيناي، فقط أشارت إلى سيارة الأجرة التي وقعت عليها عيناي لأخبر سائقها في جنون بعنوان المشفى الذي دلني عليه، الطريق رغم اتساعه أمامي أراه يضيق، يدور كل شيء في ذاكرتي بشكل مفزع، في لحظات النهاية فقط، ندرك كم كانت الحياة أسرع مما نعتقد، لأرى أن السيارة قد التزمت بإشارة المرور لتقف، فهبطت راكضًا منها بعدما كنا قد قاربنا على الوصول، ركضت دون أن أعي ماذا أفعل، تنهمر المشاهد في رأسي، أرى كل شيء منذ كنا أطفالًا، حتى صِرنا رجالًا، لم أبالِ بشيء حولي من العالم، ونظرات كل من يراني في تلك الحالة، ألهث برعب كمن يركض منذ مائة ميل دون توقف، حتى وجدتني وصلت إلى المشفى فور وصول سيارة الإسعاف، لأرى الممرضين يلتفون حول السيارة ساحبين ذلك السرير المتحرك، اهتز قلبي من رؤيته، لم ألهث وتتسارع نبضات قلبي من ركضي بالطريق، ولكنني ألهث بفزع يضرب أرجائي من شعور فكرة أن «خالد» في خطر، كيف هذا، لا ليس صديقي،

عيناي غير مصدقتين، الدماء تغرقه بالكامل، فاقتربت نحوه، وأنا لا أعلم كيف تحملني قدماي حتى الآن، وفي غرفة الطوارئ فجأة توقف العالم لثوان، ربما لدقائق، وربما إلى حتى الآن عندما قالها الطبيب أن الوقت قد فات أوانه، هنا قد شعرت أنني قد توقف قلبي ليفارق الحياة معك، تاركًا جسدي فقط هو الذي ما زال على قيد الحياة، اتجهت إليه بجسدي الذي يرتجف بالكامل، وأنا أكتم صراخي، وبيدي أزحت الغطاء من فوق رأسك، لماذا يا صديقي، لماذا، أقسم أنني لم أعرف مذاقًا للحياة إلا بك، كيف تذهب وما زال هناك لحظات لم نعشها، ما زال هناك تلك الأوقات التي نتشاجر بها من أجل أن يزداد ترابط صداقتنا أكثر، ما زالت هناك أحلام لم نحققها، كيف تخلف وعدك، كيف، أتحدث هامسًا في رأسي، وصوت بكائي بدأ أن يعتلي قليلًا، وأنا أقترب من رأسه لأقبلها للمرة الأخيرة صائحًا بحرقة:

- لا يا «خالد» أرجوك لا ترحل.

ليتف بعض الممرضين من حولي في محاولة منهم لإبعادي وتهدئتي، في تلك اللحظات التي انهرت بها تمامًا، اللحظات التي انطفأ العالم بعدها في عيني للأبد.

***

- كانت تسري تلك الذكرى القاسية التي تغير كل شيء بحياتي بعدها دون رغبتي، أقف أمام قبرك الآن، بيتك الأخير بعدما تركتني وحدي في هذه الحياة أواجهها وحدي وأنت تعلم مدى هشاشتي بدونك..

فكيف يواصل الفرد منا بعد وفاة أحد المقربين لقلبه؟

ممزق، يقضي حياته أمام الناس بشكل طبيعي، يحاول الخروج للعالم من جديد بقلب محطم، يمارس عمله ويحاول التماسك، يكتب المنشورات على مواقع التواصل الاجتماعي، يحاول بشتى الطرق أن يكون اجتماعيًا فيخرج للتجمعات، يرافق بعض الأصدقاء في لحظات سعادتهم ويشاركهم لحظات الحزن والتعاسة كي يحاول إلهاء نفسه عن التفكير المفرط في حاله، يسعى دائمًا أن يكون بخير أمام الناس، لكن وفي نهاية كل يوم يعود لغرفته ليواجه حطامه، يواجه الذكريات والتفاصيل التي جمعته بفقيده، يتألم من قسوة الفقد والحنين ويمارس طقوس حزنه وحده في الظلام ثم يستيقظ من جديد ليواصل حياته الطبيعية كما لو أنه لم يتألم الليلة الماضية..

لا أحد يواصل حياته بشكل طبيعي بعد وفاة أحد المقربين لقلبه، كلنا نفقد جزءًا أصيلًا منا، جزء لا يظهر إلا معهم ولن يعود أبدًا، فلا تندهش من قدرة أحد على مواصلة حياته سريعًا بعد وفاة شخص من المقربين لقلبه فأشد أنواع الحزن ذلك الذي تحتفظ به بينك وبين نفسك.

أقف صامتًا، ويتساءل عقلي كيف مر عامان يا «خالد»، لا أعلم إن كنت أعاتبك على رحيلك بدون وداع، أم أنا الذي كنت مقصرًا، فإن كانت هناك أخبار تجعلنا لا نتعافى من وقوعها علينا مهما مرت الأيام، فإن أولهم الفراق دون وداع مسبق، أردت أن أتحدث معك، فلم يحدث هذا بيننا منذ فترة طويلة، فيكمن تقبل فكرة

الموت عند الإنسان شيء عصي عليه، كيف بعدما كان هناك شخص تتمحور حياتنا حوله في غمضة عين يصبح من الماضي، وتستمر الحياة من بعده وكأن شيئًا لم يكن، الموت في حد ذاته كارثة في اعتقادي أن الإنسان يوهم نفسه بالنسيان فقط كي يستطيع التعايش والاستمرار، فربما هذا الشخص الذي فقده كان يمثل له نصفه الآخر، سنده الذي يتكئ عليه، ملجأه الوحيد في هذا العالم، شخص لم نتحدث بشكل أعمق عن أنفسنا إلا لغيره، وبعد رحيله بات الحديث بأكمله يُدفن بداخلنا، فقد رحل من كان يساعدنا على البوح، رحل ولم يعد، الموت شيء عجيب في أمره لو أن الإنسان لم يتحلَ بالإيمان، فربما قد يفقد عقله في لحظة رحيل أكثر الأشخاص قربًا لقلبه، ربما الإيمان فقط الشيء الوحيد الذي يجعله يكمل، وليس النسيان كما يحسب جميع البشر، لأنك دائمًا ما تراه، قبل النوم في غرفتك، تراه عندما تريد أن تتحدث وتتذكر أنه كان أفضل المستمعين إليك، وعندما يحدث موقف مشابه قد حدث معكما بالماضي وكيف كان تصرفكم سويًا به، وفي يوم ذكرى ميلاده..

لم ينسَ الفرد منا كما يبدو عليه، وإنما فقط نصطنع النسيان حتى نكمل إلى أن يحين موعدنا لنرحل عن العالم معهم، فهمست قائلًا ببطء:

- كيف حالك يا «خالد»..

أرتجف جسدي، وشعرت بندبة في قلبي لم يداوها الزمان، لم أنادك باسمك منذ فترة طويلة، ولم يأتني الرد كما كنت أنتظر في نفسي في كل ليلة، فصمت وجلست متكئًا

على ركبتيَّ وأنا أبكي ويداي على وجهي، بصوت مكتوم، حتى شعرت بأن أحدًا يربت بيده على كتفي، لأنظر باندهاش، وأراه «خالد» يبتسم لي، فابتسمت غير مصدق، بعدما جلس جانبي قائلًا:

- لتقل لي كيف حالك أنت يا «ياسين».

مسحت جفوني الباكية، وضربته مازحًا على كتفه، قائلًا بابتسامة:

ـ لقد طال غيابك، لم يعد يؤثر شيء في روحي كما كنت سابقًا، ولم أعد أعرف ماذا يتوجب عليَّ أن أفعله..

لم يرد كعادته، يحب دائمًا أن يستمع إليَّ فقط، لذلك هو الشخص الوحيد الذي كنت أحب الحديث معه عن نفسي دائمًا، فأردفت ناظرًا أمامي:

- أصبحت جاهلًا تمامًا بعدما كنت أعلم كل شيء، لم أكن أصدق أن الحياة من الممكن أن تنقلب رأسًا على عقب بهذه البساطة، لم أستطع أن أنجح مثلما كنت نتوقع أن لي مستقبلًا باهرًا.

فابتسم لي ببلاهة، حتى أخرجت سجائري، وأشعلت واحدة وأنا أرى نظرته لي باستعجاب، ثم قلت له غير مبالٍ وأنا أهز رأسي شاهقًا:

- نعم، تلك السجائر التي لم نتقبل رائحتها يومًا ما أصبحت أدخنها وبشراهة، فلم أخذل عهدي معك يا «خالد»، أنا فقط أحببتها عندما أصبحت وحدي.

لم يبالِ، ولم يعارضني هذه المرة، حتى سألني قائلًا:

- وكيف حال «سارة» معك؟

ابتسمت بخيبة أمل وأنا أخرج زفيرًا ومعه النفس الذي سحبته قائلًا:

- لقد تفرقنا، بعد أن رحلت أنت، لم أستطع الخروج من تلك الحالة التي ابتلعتني، ورأت هي أنني بتلك الطريقة سأورطها معي..

ثم نظرت له وأردفت مبتسمًا بخيبة:

- كانت تعتقد أن تجاوز خبر رحيلك أمر ممكن حدوثه، لن أكذب عليك بالطبع حاولت، لكن هناك أشياء عندما نتعرض لها تجعل الحياة أمامنا لا مذاق لها مرة أخرى، ومعك أنت عرفت كيف أتعايش، وأواجه، وأتجاوز، لذلك عجزت عن فعل شيء بعد رحيلك يا صديقي، كنت أنت السند يا «خالد» الذي أتكئ عليه كلما غلبتني الأيام، والآن لم أعد أستطع حتى النهوض من سريري والعيش يومًا آخر..

فربت على ظهري، وقال محدقًا في عيني:

- كنت تخبرني دومًا أن لا يستحقون العيش، من هم غير قادرين على التقبل والمواجهة، لأن الحياة دائمًا لن تكون على أهوائنا، أراك الآن من هؤلاء الذي أخبرتني عنهم.

اتسعت عيناي قليلًا، ونظرت إليه بجانبي لأفاجئ بأني وحدي هنا، التفت بعيني باحثًا بالمكان حولي ولم أجده، فنهضت يائسًا وألقيت سيجارتي أيضًا وأنا أرمق قبره للمرة الأخيرة وفي رأسي تدور جملته، وبعينٍ دامعة رحلت وأنا

أشعر لأول مرة أنك أصبحت مثل العالم لا تشعر بي يا «خالد».

***

19

«أن يتركك أحدهم في منتصف الطريق ويرحل، تلك معاناة لا نهاية لها».

***

قادمة من بعيد..

يذهب عقلي في سكراته كأنني أراها لأول مرة، هدوء تام في الأجواء من حولي، هدوء قد غمر عقلي ونفسي، ما هذا الوقار الذي يكنه قلبي لها، أحاول الثبات، خصلات شعرها تطاير في الهواء، سأعرف منها ماذا تريد وأرحل، لن ادع الفرصة لها لقول شيء لا أريد سماعه، فقد لحقني أذاها بما فيه الكفاية.. هكذا أحدث نفسي وأحذرني لأنني أعلم مدى تأثيرها عليَّ..

ابتسمت، وابتسم قلبي رغمًا عني..

حتى اقتربت تمامًا ومدت يدها لتصافحني، لأمد يدي لها ببطء وتوتر، لمسة يدها التي افتقدتها، ذاك الدفء من يديها الآمنة افتقدته، حتى ابتسامتكِ الباهتة تلك، لا أعرف بماذا أتفوه، صافحتها بصمت وعيني هي من تحدثت، ثم جلسنا في مكان يبعد قليلًا عن الصخب من حولنا، ليس بمكان جاهز وإنما بالطريق، أتأمل عينيها وصمتها، خصلات شعرها البنية التي تعدله بيدها المرتجفة، أرمقها بنظراتي المتلهفة وفي عينيَّ ألف سؤال حولها، وألف عناق، مشاعر بين حب وبغض لها، ولكن ما نطقت عيني سوى بكل الحب الذي تكنه لافتقاد رؤيتها، رغم حزنهما، لتقول هي وفي عيناها لمعة افتقدتها أيضًا:

- لم أنوِ القدوم لشيء أعلم أنه قد انتهى..

لم ينتهِ، أقول ذلك في كتابتي، وربما في كلامي القاسي لكِ، قلت ذلك لكل العالم، لكن قلبي وحده يعلم بحقيقة أنه لن ينتهي، تغيرتِ وأصبحتِ تصدقين العالم ولا تعرفين قلبي..

لم أتفوه بشيء فكلماتي بكاملها كانت داخلي وكان الصمت هو موقفي، كان حضورها أقوى مما أرغب في قوله، ولا أريد سوى التمعن بها، والاستماع إليها، وإخبارها بأنني قد افتقدتها بشدة..

انهمرت دمعة منها فمسحت فوق خديها قائلة بنبرة متألمة:

- لكنك يا «ياسين» لم تعلم حجم الضغط الذي وضعت به إجبارًا عليَّ، فحدث كل ذلك..

تجاهلت كلماتها، لا أريد أن يبدو الحنين الذي يغمرني داخلي لها على وجهي، لا أريد أن تشعر بشيء، فتمالكت نفسي وقولت وأنا أنظر بعيد عنها:

- لماذا طلبتِ مقابلتي، وبكل ذلك الغموض في رسائلك، لم أجبرك على العودة حتى تراسليني بتلك الطريقة، أنا لم أعلم حتى ماذا حدث لكِ في تلك الأعوام الماضية..

ثم ابتسمت خيبة أمل ونظرت لها قائلًا:

قرابة ثلاثة أعوام لا أعلم كيف طاوعك قلبك بهم بكل هذا الغياب عني!

لم تقل شيئًا، وأشعر بأن ليس لديها شيء يقال، تبكي دون أن تنطق، أتمعن بها، ويبكي قلبي منفطرًا، أكون

معك أم عليكِ، من المتسبب في كل ذلك، لأجدني دون إرادة مني، أمد يدي وأمسح فوق خديها مثل ما كنت أفعل بالماضي عندما أراها تبكي، حينما كانت صغيرتي، وفي عيني احتبست دموع الدنيا، مشفقًا عليها وعليَّ، وأضمها إليَّ بهدوء، لأعانقها بثبات ويستقر رأسها فوق صدري بعدما اشتدت في البكاء ويدي تمسح فوق شعرها دون أن أنطق بكلمة واحدة، ولكن قلبي لم يتوقف عن الصراخ بأنه قد اشتاق إليها بحرارة.

***

- أخبرتني في جلستنا الأخيرة أنك تتابع مع طبيبك النفسي باستمرار..

ولكنني عندما اتصلت به حتى أطمئن على حالتك فأخبرني أنك لم تذهب إليه منذ أكثر من عام..!

- لماذا تكذب عليَّ يا «ياسين» أهذا كان اتفاقنا..

- لم أكذب يا سلمى أقسم لكِ!

- معنى ذلك أن الطبيب هو من يكذب؟

- لا أعلم ولكن من الممكن أنه لا يريد الإفصاح عن شيء يخص مرضاه..

- من الممكن.

- على أي حال سأذهب إليه اليوم، أعيدي اتصالك مرة أخرى به حينها وسأخبره أن يعترف لكِ بحقيقة أني معه.

فهدأت من نبرتها حينما شعرت بانزعاجي وقالت:

- لا عليك، أنا فقط أريد أن ننفذ ما خططنا له يا

«ياسين»، أريد أن تعود بخير مرة أخرى كما كنت يا صديقي.

كيف أخبرها بأن هناك أشياء حينما نفقدها لا نكون بعدها كما كنا قبلها، مهما حاولنا تعويض الخسائر، ستظل العِلة في قلوبنا، ولكني استطردت كلماتي اليائسة وقلت لها:

- أعلم ذلك، لست منزعجًا.

فتمتمت ثم قالت:

كيف كان اللقاء بينك وبين «سارة»..؟

توترت قليلًا، وصمتُّ لأنني لا أعرف بماذا أخبرها فأردفت هي بتساؤل:

- «ياسين» هل أنت معي؟

- ها نعم معك ربما الإرسال سيئ.

ثم فكرت ثانية وقلت:

- لم نستقر على شيء قضينا جلستنا في صمت تام ورحلنا.

شعرت من صمتها أنها لم تقتنع بما قلته حتى ردت:

- حينما نلتقي ستخبرني بالحقيقة، إلى اللقاء.

وأغلقت المكالمة وأنا أعض على شفتيَّ، يبدو أنني فاشل بالكذب أيضًا.

***

في صالة المنزل، كانت تجلس على ركنتها الوثيرة، وبخلفها مكتبة كبيرة امتلأت رفوفها بكت معاصرة وروايات

كثيرة، وأمامها شاشة التلفاز التي لا تهتم بما يُعرض عليه، ممسكة بهاتفها تتلاعب به، حتى جاء «زياد» من غرفته مبادرًا بوجه مبتسم:

- «سارة» لماذا لا نعود كما كنا في السابق؟

فرمقته بلامبالاة واضحة، وقالت بتثاقل:

- وكيف كنا في السابق؟

فرد بتلقائية وهو يهز رأسه:

- نحب بعضنا!

هذا كذب، كل ما كنت تعتقده ما هو إلا كذبة كبيرة من تخطيطك والضحية الذي دفع ثمن فعلتك وخطتك تلك هو «ياسين».

ليتحول وجهه المبتسم، لملامح غاضبه من وقع كلماتها عليه ثم وهو يقترب منها قال:

- لم أجبرك على شيء، أنت من اخترتِ أن تتركيه.

تشعر بحرقة مشتعلة بداخلها، لأنها كانت متسببة في ذلك معه، فاستمعت كلماته بصمت مؤلم وهو يردف:

- فلا تصدقي أنكِ المظلومة، فقد كنتِ أنتِ أول التاركين له، اتفقنا سويًّا أن لكِ الحق في ذلك..

ثم شهق وقال بعدما استطرد زفيرًا طويلًا:

- شخص أصبح لا فائدة له فلماذا نبقي عليه في حياتنا ليفسدها ببؤسه وكآبته.. نحن لم نخطئ فيما فعلنا..

نظرت له باستحقار، وقالت وعيناها امتلأتا بالدموع

بعدما ذكرها بالماضي:

- كنت مغيبة ولم أعِ قراري، وإن كان عندك شيء من الكرامة لتركتني عندما طلبت ذلك منك.

فصفعها بقوة وتركها ذاهبًا وهو يتمتم:

- حمقاء مثله، لكني لن أتركك أبدًا.

ليختفي من أمامها تاركًا إياها غارقة في بكائها.

***

- لماذا تكذب عليَّ، أهذا الذي تعاهدنا عليه؟

قالتها وهي ترمقني بحدة وبنبرة بدت غاضبة، فقلت بتأفف:

- لم أكذب يا «سلمى»، وما الذي يدفعني لأن أخفي عنكِ شيئًا؟

فنظرت إليَّ، ثم قالت وهي تشير بيدها:

- هذا السؤال يجب أن تسأله لنفسك وليس لي.

أشعلت سيجارتي، ثم قلت بلامُبالاة:

- لم يعد شيء في قلبي أحمله لـ«سارة».

وأخرجت زفيرًا طويلًا يعبر عن مدى عدم ارتياحي في اللحظة الراهنة، ثم وبعد صمت دام بيننا لثوان أردفت قائلًا:

- الأمور أصبحت غريبة تمامًا بيننا يا «سلمى»، لن أكذب عليكِ في كوني أشعر بالحنين لها في بعض الأوقات ولكن هناك أشياء عندما تتلف لا نستطيع إصلاحها مرة أخرى، مهما كانت قوة ترابطها في البداية،

وتلك هي علاقتي بـ«سارة».

لوهلة لم يصدق جسدي ما أقوله، ولكن «سلمى» قد صدقت، وشعرت ذلك من عينيها، لم أستطع أن أخبرها بالحقيقة، كيف أقول لها أنني ما زلت عالقًا بها، وبأي وجه أصارحها بذلك.

فارتشفت من قهوتها قليلا وهي تقول:

- الآن علينا إصلاح ما فعلته مع «آسيا».

تأملت عينيها ثم بخيبة أمل واضحة على ملامحي:

- «آسيا» قد فعلت الكثير مع شخص لا يستحق..

- لا تقل هكذا، أنت تستحق الأفضل دائمًا يا «ياسين».. ربما ظروف صعبة وستنتهي.

فابتسمت بسخرية تعبر عن مدى الحزن الذي يسكن داخلي، ثم قلت لها:

- لا أخفي عليكِ، سأرحل الآن معي موعد للطبيب الخاص..

فابتسمت وهي تقول:

- هذا جيد آمل أن تكون بخير.

وأخبرتني أن لديها بعض العمل لتقوم به، لأتركها وأرحل بعدما أكدت معها على مقابلة «آسيا».

ولكن في تلك اللحظة لم يكن «ياسين» وحده من كان يكذب، فانتظرت «سلمى» حتى خرج من باب المقهى، وخرجت خلفه بخطوات خفيفة حتى لا يشعر بها،

يراودها شيء واحد في عقلها، كلمات الطبيب الخاص به الذي أخبرها أنه لم يذهب إليه منذ عام وأكثر، استقلت سيارتها وسارت وراء سيارة الأجرة التي اتخذها، ذاك طريق الطبيب تتعجب من هذا، من الواضح أن «ياسين» صادق بالفعل وربما كذب الطبيب لسرية مرضاه، ولكن اتسعت عيناها حينما رأت أن السيارة مكملة في طريقها ولم تقف أمام عيادة الطبيب، فأكملت والحيرة بدأت تتلاعب بعقلها، إلى أين أنت ذاهب يا «ياسين» هكذا حدثت نفسها أثناء قيادة سيارتها بصوت مسموع، بدأت الشمس في الغروب من السماء فوقهما، حتى استقرت سيارة الأجرة التي اعتلتها على أول شارع غريب لا تعرفه «سلمى» فتوقفت حتى لا يلاحظ «ياسين» سيارتها التي تقف بعيدًا، وترجلت حينما دلف ياسين داخل الشارع، تراقبه من بعيد محاولة إخفاء نفسها قدر الإمكان والذهول على وجهها، وكلما اقتربت تشعر بالصدمة أكثر لما رأته وتفاجأت به عندما اكتشفت أنها المقابر، لتتسع عيناها في صدمة هامسة في نفسها، «ياسين» يأتي إلى المقابر!

ثم ابتدأت الشكوك تتكون داخلها، ولا تريد أن تصدق عقلها، حتى وقفت على بعد أمتار منه، وسمعته قائلًا:

- يظنون أني أكذب عليهم ولا آتي إليك..

ابتسم وفي عينيه شيء من الحزن المكتوم، لتتسع أعين «سلمى» أكثر عندما استوعبت أن «ياسين» ما زال مريضًا، ولم يتجاوز صدمة رحيل صديقه «خالد»، ثم وبتردد واضح، ونبضات قلبها التي تتسارع من رهبة الموقف، اقتربت منه بخطوات متوترة، ليرتجف جسدها

وتبدأ في البكاء بتنهيدات بدأت تعلو قليلًا فنظر «ياسين» بجانبه عندما شعر بشيء حوله وتفاجئ أنها هي، فثبت بعينيه عندما رآها وقال والدموع تتكون داخلها:

- أرأيتِ يا سلمى أنني لم أكذب عليكِ..

ليشتد بكاؤها وتعانقه بقوة في تلك اللحظة وهي تبكي غير مصدقة لما تراه، وتربت على ظهره مواسية لحزنه وانهياره وما يشعر به.

***

20

«جميعنا ضحايا للعبة الحياة».

***

ربما تكون الموسيقا كالدواء المسكِّن أحيانًا لآلام الروح، فهي الشيء المتكامل الوحيد القادر على وصف كل ما تشعر به ولا تستطيع البوح عنه، فتأتي أغنية واحدة بكلماتها في لحظة عابرة بالطريق الذي تسير يه تذكرك بما تحاول نسيانه، كانت في المقهى تجلس «آسيا» التي اعتادت الذهاب إليه في فترتها الأخيرة، لم تعد تمارس شيئًا في يومها سوى محاولة التعافي مما حدث، ومنذ ذلك اليوم ما زالت تبحث عن حالها، روحها منهكة، لا تطيق شيئًا، ولا تفعل سوى الذهاب للمقهى واضعة سماعتها الخاصة، تستمع لموسيقاها، ترتشف قهوتها، تجلس في ركنها الهادئ وحدها، فقط لا تفعل سوى ذلك ثم تعود إلى بيتها، وأيام أخرى لم تخرج من بيتها مطلقًا..

- راقبتها في آخر أسبوع، ولم أستطع مواجهتها يا «سلمى».

قال تلك الكلمات «ياسين» محدثًا «سلمى»، التي تستمع له وهي تبحث في حسابتها على مواقع التواصل، فردت قائلة:

- آخر صورة شاركتها لها كان منذ شهرين، معنى ذلك منذ تلك الليلة بينكما.

فهز «ياسين» رأسه بيأس، فربتت «سلمى» على كتفيه قائلة:

- سيكون كل شيء على ما يرام.

***

يغوص عقلي كثيرًا بالتفكير في أمر ما، ماذا لو كانت الحياة أبسط، ولماذا الحياة خُلقت بكل هذا التعقيد، وكيف كنا سنصبح لو أن باستطاعتنا إصلاح الماضي، فهناك أشياء تحدث نظنها تافهة، لن تضر بشيء، أخطاء بسيطة، لا تُرى من وجهة نظرنا الضعيفة، ولكن فيما بعد نكتشف أنه الخطأ الذي أدى بنا إلى الهلاك، كابتسامة في وجه شخص لم تعرفه أمامك، من الممكن أن تُبنى عليها حياة ويُكتب لها مصير كامل، وكل ذلك كان بسبب ابتسامة عابرة لم يكن لها كل تلك الحسابات، تتساءل كثيرًا في نفسك، لماذا كل هذا يحدث، ولكن كعادة كل ليلة لا تأتيك الإجابة، الأمر الذي أصبح عقلك مشتتًا به دائمًا، رغم أنك لا تريد التفكير فيه، ولكنه يفرض نفسه عليك دائمًا كأشياء كثرة قد فرضت نفسها عليك دون أن تدري، العالم نفخ كبير قد وقعنا به بالخطأ، ولو كان الأمر بيدي لسحقت نفسي قبل أن آتي إليه، أو ربما محوت تلك اللحظة التي ظهر بها «زياد» من الوجود، ربما كنت سأفعل أي شيء يخفي ذلك الرجل من قصتي، ولكن من المؤلم أن يكون هو قصتي التي فُرضت عليَّ أسفًا، لا أعلم إن كانت مهمتي إنقاذ نفسي منه، أم البشرية بأكملها، فشخص مثله لا يستحق العيش، ولكن دائمًا لا تسير الحياة كما نريد...

انتهت «سارة» من تدوين تلك الكلمات في مذكراتها الخاصة، والتفت خلفها لتجد «زياد» جالسًا على الأريكة

المواجهة لها، فانتفض قلبها وكأنها شعرت بأنه يراقبها ويرى كلماتها عنه، حتى ذهبت رهبتها تلك عندما قال لها مازحًا:

- رأيتك تكتُبين.. حسنًا إن كنتِ بارعة حقًا فأسرعي بالانتهاء منها حتى أقوم بطباعة كتاب خاصٍ بكِ.

ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهي، وضغطت على دفتر مذكراتي الخاص بقوة، وتذكرت أن آخر مرة كان بها حوار عن أمور الطباعة، كانت رواية «ياسين».

***

وصلت «سلمى» إلى المقهى الذي قصدته، ثم دلفت إلى الداخل لتعرف «آسيا» من ظهرها حتى دون أن ترى وجهها، فذهبت إليها مباشرة لتسحب مقعدًا وتجلس أمام «آسيا» التي نظرت لها في تعجب لما فعلت:

- كيف حالك يا «آسيا»؟

- أنتِ تعرفينني!

- نعم، أعرفك جيدًا.

في حيرة من «آسيا» بدت على ملامحها سألتها قائلة:

- من أنتِ إذًا؟

تنهدت «سلمى» مستعدة لهذه المواجهة قبل أن تقول:

- أنا «سلمى».

صمتت لثوان ثم أردفت:

- صديقة «ياسين»..

لتلمع عين «آسيا» على الفور بعد سماع اسمه، ثم

استجمعت شجاعتها سريعًا قائلة:

- لا أريد سماع اسم ذلك الشخص إن سمحتِ!

- ذلك الشخص هو أساس جلستنا هذه..

ثم أكملت سلمى دون أن تبادر «آسيا» بأي فعل:

- أعلم أن «ياسين» ليس ضحية، وقد كان أقسى عليكِ من أي شيء في العالم رغم أنكِ الشخص الوحيد التي لا تستحقين منه ذلك.

نظرت «آسيا» لها وبعين دامعة قالت:

- ولكنه لم يقسُ عليّ..

ثم صمتت لهنيهة، وأخرجت زفيرًا يعبر عن مدى ضيقتها:

- لقد خذلني، ولا أطيق سماع اسمه.. تعرفين معنى أن تفعلي كل شيء من أجل شخص يخذلك بالنهاية!

في عقل «سلمى» تشعر بصعوبة إقناعها رغم شعورها بلين قلب «آسيا»، فلعنت «ياسين» في نفسها على خسارته لتلك الفتاة التي يبدو أنها أحبته حبًا بلا حدود.

- أُدرك أن «ياسين» يستحق عقابك بتركك له وحيدًا يُعاني، لكنكِ كنتِ دائمًا معه، وتعرفين جيدًا كيف كان يعاني في الأيام الماضية، وما زال..

رمقتها «آسيا» بحزن ثم قالت:

- لم تعد لديَّ الطاقة التي تجعلني أقف بجانب نفسي حتى، «ياسين» أخذ كل شيء وكان المقابل منه أنه كسر قلبي يا «سلمى»، أخذ كل شيء..

- أشعر بمرارة ذلك في داخلك الآن، ولكن يا «آسيا» جميعنا نخطئ أحيانًا.

بدت غير مقتنعة بكلماتها، فنظرت «سلمى» في عينيها محاولة التأثير عليها:

- ياسين يحاول إصلاح ما أفسده، أرجو أن تساعديه في ذلك.

تنهدت «آسيا» وشعور الانهزام يسري داخلها، ثم قالت بنبرة مرتجفة:

- لن أقدر على فعل ذلك، أعتذر لكِ.

تركتها ورحلت، في وسط حزن اجتاح قلب «سلمى» على حال تلك الفتاة والذي فعله «ياسين» بها.

***

لكل إنسان منا لحظة ضعف، لحظة إن لم يتخذ حذره بها جيدًا فربما تكون نقطة الضعف التي يدمره بها العدو الذي يترصد له من خلالها، كل شخص منا يعتقد أن قوته لا مثيل لها، أن حبه للأشياء لن يتأثر، أن الأمور على ما يرام إلى حد كبير، أنه المتحكم في كل ما يحدث، ولكن في تلك اللحظة التي تُعريك أمام نفسك، تنهدم الكثير من المبادئ، ربما تكتشف أن ما كنت تظنه عن نفسك ليس حقيقيًّا، وأن نظرتك للعالم ما زالت ينقصها الكثير والكثير، العالم ليس مكان للأبرياء، ربما وقعنا في فخ الخطيئة، لكن هناك ذاك الشيطان اللعين الذي صور لك أن خطأك الصغير فاجعة قد ارتكبتها، ولا مجال لإصلاحها إلا بارتكاب أخطاءٍ أكبر، وعندما تفيق من

غفلتك، تكتشف أنك قد لُعب بك، وكأنك دمية تحركت وفق لرغبة صاحبها..

الخطأ وارد أن يحدث لكن التمادي به هو اختيارك أنت، اختيارك الذي تظن من خلاله بسطحيتك أنك تصلح ما قد أفسدته، كانت علاقاتي بـ«زياد» ليست من اختياري، ولكن التمادي بها كان بموافقتي، فهناك أمور تظن في بدايتها أنها الأسلم وبعد ذلك تكتشف أنك قد أديت بنفسك إلى عاصفة دمرتك تمامًا دون أن تدري، لم أكن يومًا أريد ذلك، لم أتمنَ يومًا أن أغادر «ياسين»، لكن في لحظة ضعف تهيئ لك نفسك أن عليك فعل شيء، فتسيء التصرف بسذاجة كنت تحسبها نُضجًا، وكذلك كنت مع «زياد»، عندما طلب مني القرب بطريقة أكثر لنستطيع مساعدة هذا الكاتب المغمور من الضياع، ولم أرَ أنه في حقيقة الأمر كان يتسلل ليقضي عليه تمامًا!

***

21

«الكلمات لم تعد تُجدي نفعًا، أصبحت أرواحنا في أمس الحاجة للعناق».

***

- تلك الشقة موقعها رائع، الجميل بها أنها ليست كبيرة، وإنما صغيرة بطريقة أقرب للوضع الكلاسيكي الهادئ الذي تحبه..

قلتها وأنا أبتسم له ممسكة بكوب الشاي الذي نحتسيه سويًا في الشرفة فنظر إلى الطريق ثم قال لي:

- الأهم من كل ذلك أنكِ معي، لا يهمني أي شيء آخر، وفي هذه اللحظة معك قلبي متشوق لما هو آت، الرواية كيف سيكون شكلها وأهميتها عند القراء.

فارتشفت من كوب الشاي الخاص بي ثم قلت بنبرتي الهادئة التي أعرف أنه يحبها عندما أحدثه بها:

- لديك الآن عدد كبير يعرفك على مواقع التواصل الاجتماعي يا عزيزي، وهذا شيء أفضل بكثير من كونك أن تكون لا يعرفك أحدًا سوى أصدقائك وعائلتك، فلا تقلق حيال ذلك، أنا واثقة من أن سيكون لها إقبال كبير من محبيك، أم أنك لا تثق في رأيي؟

قلتها مازحة وأنا أنظر له باستنكار، فابتسم وقال لي بنبرة بطيئة:

- إن لم أثق بكِ وأصدقك..

ثم وضع الكوب خاصته على سور الشرفة وأمسك بيدي واقترب إليّ:

- فما كنت أنتِ أول من أشاركه قراءتها يا «سارة»..

وقبلني بخفة من وجنتي التي احمرت خجلًا، وعاد ناظرًا في عينيَّ وهو يتأملني صامتًا بالطريقة التي كنت أحب دومًا أن ينظر إليّ بها، فكل شيء بيننا له طابع خاص يجعل قلبي مغرمًا بذلك الرجل الذي احتل كياني، وأصبحت أحلامه هي أحلامي ولا أتمنى شيئًا بقدر ما أكون معه وبجانبه دائمًا.

***

حتى وإن ابتعدنا بقدر كافٍ فالذكريات لا تموت..

ولا الأماكن تتناسى ما حدث بها..

أقف متصلبة أمام العمارة التي تحوى شقته بمنتصفها من الخارج، أمسك بمفتاح في يدي وأنا أنظر لشرفتها بالأعلى، نسخة احتفظت بها قد أعطاها لي في أول ما قد سكن هنا، كان مكانه هو مكاني وكل شيء بيننا وكأننا شخص واحد لا اثنان، لا أعرف أصعد أم لا، كيف سيواجهني، اتخذت قراري بالصعود، لأنه في حقيقة الأمر، قد اشتقت له ولكل شيء كان بيننا، آخر مرة كنا هنا منذ قرابة الثلاثة أعوام، كيف تغير كل هذا، الأمر أصبح مزريًا للغاية، وضعت المفتاح ببابها، ولففته على استحياء، ثم دلفت إلى تلك الشقة التي بحثنا عنها سويًّا في الماضي، أسترجع كل شيء في عقلي، وكيف كان لقاؤنا الأول، وعين «ياسين» وهي مشتاقة إليَّ بنهم، اشتقت

للمسته الدافئة وعناقه الذي كان يحتويني دائمًا وطريقة تعبيره عن عشقه إليَّ، لم أتوقع قط أن تكون بيننا كل هذه المسافة وكل ذلك الغياب، كم الأوراق الملقاة أرضًا والكتب المبعثرة، كل شيء يبدو غير مرتب، وأصبحت الشقة المبهجة فيما مضى أكثر كآبة في هذه اللحظة الحالية، هل حزنت تلك الشقة الصغيرة أيضًا لغيابي، أشعر بالمرارة وفي قلبي شيء من الألم على كل ما هدر بيننا، كان يخبرني أن دائمًا ما يُعطي طابعًا للأماكن الأشخاص القائمون بها، حتى وإن كان كوخًا. فبجانب من نحبهم يصبح قصرًا في أعيننا بكل الرضا الحب، وإن كنت تمتلك قصرًا فخمًا على الجانب الآخر وغادرك من أحببتهم يومًا منه ستشعر بأنك في مكان من الفراغ الكبير الذي لا يؤرقك في كل لحظة ستمر عليك، لأن من كان يعطيه ذاك الطابع الجميل قد رحل، فدومًا هي بالأشخاص لا الأماكن، أتمشى ببطء وقد نسيت أنني في شقة رجل لا أعلم إن كان هنا أم بالخارج، ثم سحبتني قدماي إلى غرفته، رائحته تملأ المكان، أستنشقها مغمضة عينيَّ باشتياق في لحظة نسيت بها نفسي، ووجدتني أخرج هاتفي لأكمل استشعاري بإحياء الماضي، وقمت بتشغيل تلك الأغنية التي أحببنا أن نرددها معًا دائمًا..

«الليل وسماه ونجومه وقمره وأنت وأنا»..

ذهبت ببطء وأنا أشعر بالحنين مع تلك الكلمات المتناغمة، وإلى الشرفة توجهت ثم فتحتها، مقعد وحيد أمامه منضدة صغيرة، ما زال المشهد من هنا رائعًا لكن أصبح الآن ينقصه الكثير، أصبح ينقصه ذلك الشخص

الذي كان يجعله جميلًا في عين «ياسين»..

جلست مغمضة عينيَّ ناظرة إلى السماء وأنا أتأملها، ماذا لو كان كل ذلك لم يحدث، ماذا لو كان هناك مجال للعودة عن قرار خطأ قد اتخذناه، ما كان لأحد أن يخطئ حينها بالفعل، نسيت كل شيء، ولم يجل في خاطري سوى ذكرياتنا معًا، ولحظاتنا الحميمية التي اشتقت لها بشدة، ثم فجأة ودون أن أدري نظرت تجاه الغرفة فوجدته واقفًا مقابلًا لي من غرفته ثابتًا بنظره عليَّ، خفق قلبي بقوة من مفاجأة وجودة ونظرت له بحزن شديد، أرى في عينيه أنه غير مصدق لما يراه، وكأنَّ آخر شيء كان يتوقعه أنه قد يجدني هنا، أنا أيضًا لا أعلم لماذا أتيت إلى هنا، ثم لمعت عيناه، وفي المقابل أنا أيضًا، شعرت بالدموع التي أرادت أن تنهمر مني وقد منعتها، ولكنني لم أستطع التحامل أكثر من ذلك أمام نظراته المتألمة، فبكيت ولم أستطع منع نفسي أكثر من ذلك، ليقترب مني مسرعًا، ويحتضنني بقوة، عناقًا افتقدته لعامين وأكثر، شعرت خلالهما أنني يتيمة، وقد عدت لعائلتي مرة أخرى في تلك اللحظة التي استعدت بها كل ما مضى من ذكريات بيني وبينه.

***

«مساء الخير أيتها الأستاذة الفاضلة آمل أن تكوني بخير، معك زياد الصباغ مدير دار النشر المتعاقد معها ياسين كما تعرفي، أردت فقط إبلاغك ببعض الأمور الهامة التي تخصه بما أنك مديرة أعماله كما أخبرتني، فرجاء عندما ترين تلك الرسالة أرسلي إليَّ».

أرسل «زياد» تلك الرسالة إلى «آسيا» ولم ينتظر كثيرًا

حتى أنته رسالة منها كان نصها كالآتي

«أهلًا أستاذ زياد، أعتذر عما حدث في آخر مرة من الاتفاق ولكنني لم أعد على صلة بياسين فإن كان هناك شيء تريد أن تبلغه به فعليك مراسلته مباشرة»

فابتسم «زياد» في شاشة هاتفه بعدما قرأ رسالتها وهمس في نفسه قائلًا:

ذاك الأحمق لم يعد في مقدوره الحفاظ على أي شيء.

ثم قرر أن يكتب لـ«آسيا» مرة أخرى..

«حسنا إن كان الأمر كذلك فأردت أن أبلغك بأنني على بعد خطوة واحدة من اتخاذ الإجراءات القانونية ضد ياسين لأنه لم يلتزم بالشروط الموضوعة بالعقد وذلك حقي القانوني».

أرسلها «زياد» مبتسمًا وهو يرضي غروره محدقًا في الفراغ أمامه قائلًا في بصوت مسموع قليلًا:

- لن يأخذك أحد مني يا «سارة» أنتِ لي، لي أنا فقط، وترك «آسيا» في حيرة كبيرة تأكل قلبها خوفًا على «ياسين» رغمًا عنها، حتى وبعدما قررت أن لا علاقة لها به، لم تستطع مقاومة قلقها وخوفها عليه.

***

على سريره أرحت رأسي فوق صدره، في لحظات تمنيت حدوثها منذ غادرته، لا أصدق أنه يعانقني مرة أخرى بعد كل ما حدث، يداعب خصلات شعري المتناثرة فوقه، أبتسم كطفلة صغيرة أخيرًا قد وجدت قطعة

الحلوى التي حرمت منها، لا يتكلم، فقط الأمر الغريب أنه يدخن بشراهة، لكنني لم أنزعج من هذا فأنا مستمتعة بصمته، ولمساته، وكوني بين ضلعيه يحتضنني، لم نتكلم كثيرًا، وكأن ليس هناك شيء يقال، فقط كانت نظراته لي تكفي، ذلك الحزن الكامن في عينيه، وحطام روحه الذي شعرت بها، بالفعل استمتعت به ولا أعلم إن كان هو كذلك أم لا، لكنني شعرت به وهو يصل لقمة نشوته بين أحضاني، لحظات ملتهبة كنت في اشتياق لها معه، طريقة حبه إليَّ، نظراته الصامتة لكنها تقول كل شيء، وطريقته في تقبيلي بهدوءٍ عشقته منه، لحظات شعرت من خلالها وكأننا لم نبتعد يومًا، يشرد عقلي في كل شيء قد حدث، وما فعلناه منذ لحظات، لا أعرف كيف يفسر ذلك سوى أنه شيء من الخيال، أريد أن أخبره في حقيقة الأمر بأشياء كثيرة، لكن ما يقتلني دهشة أنه لم يسألني عن شيء حتى الآن، فهناك الكثير الذي أريد أن أخبره به، لطالما كان يساعدني دومًا على حلِّ كل ما كنت أعاني منه داخلي، يؤلمني صمته، ولكنني مشفقة عليه أيضًا، فما مر به كان كفيلًا على أن يسكته للأبد، فأحيانا لم تعد أي كلمات تُجدي نفعًا سواء كان هناك ما يجب أن نعرفه أم لا، بل أصبحت أرواحنا في أمس الحاجة للعناق، لأن نُعانق فقط، ويُربت على كتفنا بحنان ومواساة، واعتذار من العالم على أننا تحملنا بما يكفي، لكنني في قرارة نفسي أُدرك أن ذلك الأمر بيننا لن يدوم كثيرًا، ربما يستمتع الآن بعودتي غير المتوقعة له مرة أخرى، وسيحين وقت السؤال منه، فمن المؤكد أن هناك الكثير والكثير يجول في رأسه الآن، ربما هذا ما يجعله صامتًا حتى الآن، كيف

كانت زيجتي، ولماذا من الأساس تركته وتزوجت من آخر بعد كل هذا الحبِّ بيننا، وكيف استطعت تدمير حياته برحيلي، وكيف سأخبره بأن ذلك الرجل الذي هو صديقه كان سببًا كبيرًا فيما حدث له، كيف سأخبره أنني زوجة لـ«زياد».. الذي اتخذني منه انتقامًا منه دون أن يدري، لا أعرف إن كان عليَّ أن أخبره الآن أم لا، الكثير من المعارك داخلي، آه لو أستطيع أن أبوح لك مثلما كنا نفعل بالماضي يا «ياسين»، وكيف يشعر قلبي بالقلق حيالك خاصة بعد تهديد «زياد» الصريح إليَّ بسجنك..

في بعض الأحيان يكون الكتمان قاتلًا ولكن البوح انتحار أيضًا لأنك لا تضمن ردة فعل الشخص الذي أمامك فتضطر مجبرًا على الصمت..

ولكنني لم أستطع أن أراك تضيع أكثر من ذلك أمامي، يجب عليَّ أن أخبرك حتى تتخذ حذرك، فلن أملك أغلى منك حتى وإن كان بيننا كل تلك المسافة الآن، فأنا الآن بين ذراعيك، وعلى سريرك ليس بيننا إلا الهواء، فاستجمعت شجاعتي، ورفعت رأسي ونظرت له وأنفاسه تمتزج بأنفاسي، مسح فوق خصلات شعري بيده مرة أخرى ثم قبلني من جبهتي وهو يقول بلامبالاة:

- أسترحلين الآن؟

صمتُّ لثوان ثم قلت:

- لا الأمر ليس كذلك، هناك يجب ما أخبرك به..

فنظر إلى عينيَّ لثوان وقال بجمود:

- حقًّا هناك الكثير من الأسئلة.. ولكنني أنتظر أن يأتي كل شيء منكِ.. لن أجبرك على التحدث.

فابتلعت لعابي ثم قلت:

- أعلم ذلك وكنت أخشى مواجهة تلك اللحظة.

فنظر إليّ صامتًا وكأنه ينتظرني أن أكمل وما زالت أجسادنا ملتصقة لا يغطيهما سوى الفراش وملابس خفيفة لنا ثم استطردت وقلت:

- في حقيقة الأمر أن تلك اللحظة هي الأجمل في حياتي منذ أن افترقنا يا «ياسين»..

فابتسم ابتسامته الهادئة وقبل أن أُكمل دق جرس شقته فلعنت من قطع علينا تلك اللحظة الآن، فقال لي وهو ينهض ويرتدي بنطاله:

- سأعود في الحال..

فابتسمت له متوترة وأنا أرتب الكلمات في رأسي مرة أخرى، وما من لحظات حتى استمعت لصوت باب الشقة يغلق فالتقطت أنفاسي وأنا أستعد لما سأخبره به، ولكنه جلس مواجهًا أمامي من الخارج على الأريكة وعلى وجهه يبدو أن هناك شيئًا غير طبيعي، حتى استمعت لصوت فتاة تقول له:

- بعثت لك الكثير من الرسائل ولكنك لم ترد، ما كان يجب عليَّ أن أكون هنا الآن ولكن الأمر طارئ، لأن مدير دار النشر الذي أنت متعاقد معها قد قرر أن يقاضيك.

وقبل أن أتحرك، فقد حدث ما يبدو على وجه «ياسين»، رأتني تلك الفتاة من منتصف الصالة من الخارج وأنا في سريره، نظرت إليَّ بغرابة شديدة وصدمة كبيرة بدت على ملامحها، رأيت عينيها تحترقان، وأنا لا أعرف من تكون هذه

الفتاة، لكنني شعرت في تلك اللحظة أن هذه الفتاة تحب «ياسين»، هل أحبَّ «ياسين» من بعدي، خفق قلبي من رهبة الموقف، وأنا أراها تستدير وتنظر إلى «ياسين» الذي ما زال جالسًا خاليًا من التعبيرات، وقالت وهي تصرخ في وجهة بصوت ملأه شجن البكاء:

- أنت أوفى رجل عرفته في حياتي.

وركضت مسرعة نحو الباب لأرى «ياسين» يأتي ليرتدي قميصه مسرعا وركض خلفها وهو ينادي:

- آسيا آسيا..

22

«زيــك أنـا...»

***

أرغمتها على الوقوف في منتصف الطريق، بعدما لحقتها في سيارتها قبل أن تنطلق بها، تبكي كطفلة صغيرة لا استطيع مواساتها لأنني سبب بُكائها، فتركتني وخرجت بعيدًا عني، لألحق بها وأقف خلفها بخجل يعتريني منها، أشعر بآلام قلبها، ثم وبعد أن مرت ثوان استدارت لي وهي تمسح وجهها قائلة بصوت منبوح:

- لماذا كان كل هذا من البداية، طالما أنك لم تحبني لماذا جعلتني أتفهم أن بإمكاني أن أكون هنا، وكيف أصبحت بكل هذه القسوة على من كانت لك طوق النجاة الذي حاول إنقاذك من عتمة نفسك..

شهقت وهي تلتقط أنفاسها، ثم تنهدت وبدت وكأنها تحاول استيعاب تلك اللحظة بيننا، وأردفت قائلة بالنبرة ذاتها:

- أنت فعلت بي ما لم يستطع العالم بأكمله على فعله، لم يقتلني سواك، لم يقتلني سوى ذاك الرجل الذي أعطيته «آسيا»، أنا ألعن نفسي وأكرهك من كل قلبي الذي أحبك.

قالت تلك الكلمات القاسية وهي تقترب مني أكثر ويدها تعتلي في محاولة لصفعي على ما ارتكبته في حقها، ولكنها لم تستطع سوى إنزال يدها وتعلن انهيارها تمامًا في البكاء،

وركضت نحو سيارتها لتعتليها وتنطلق بعيدًا عني، وأنا ما زلت متصلبًا في مكاني لم أقدر على النطق بكلمة واحدة، ولوهلة شعرت بأنني قد خسرت المعركة الأخيرة، أردت احتضانها بشدة ولكني لأول مرة أشعر بأنني لا أعرف تلك الفتاة، كأنني أصبحت غريبًا عنها بعدما كانت موطني الوحيد، موطني الذي قمت بخيانته دون أن أدري، وعقوبة الخائن دائمًا هي القتل، فبكيت عيناي بدون دموع، يبقى الخذلان هو الفعل الوحيد القادر على هدم أقوى العلاقات ترابطًا، فسرت وحدي وفي عنقي شعرت بضيق العالم، في طريق لا أعلم إلى أين سيؤدي بي، ليأتي على مسامعي صوت موسيقا أغنية لفريق عشقنا استماعه سويًا حينما منذ عرفتها، فنظرت جانبي بعينٍ باحثة عن مصدر ذاك الصوت الملائم لهذه اللحظة، لأجدها عربة متواضعة يرأسها شاب عشريني يبتاع القهوة وبعض المشاريب الدافئة في هذا الوقت المتأخر، وكأن العالم يرصد هزيمتي هذه المرة، فمن أتعس اللحظات التي من الممكن أن نتعايشها.. هي التي تصادفنا بها أغنية مطابقة لشعورنا حينها، أو جملة تقع عليها عيناك دونت في إحدى الطرق وكأنها كتبت لك، أو كلمة قالها أحدهم عابرًا من أمامك، فتشعر حينها أن العالم يواسي حزنك في هذه اللحظة، وتلك الندبة في داخلك يزداد ألمها مرة أخرى، فتنهدت مع أول كلمات الأغنية التي أخبرت «آسيا» ذات مرة أنها تشبهنا لكنها كذبتني حينها..

«زيك أنا مقسوم ما بين الضفتين..

ببعد ساعات، وساعات يرجعني الحنين»

ظللت أركض في طريقي، غير مصدقة أن «ياسين» قد فعل بي ما كنت أخشاه منذ زمن، لم أبالِ للطرق من حولي، أُزيد من سرعة سيارتي بتهور وليس في رأسي سوى وجوده بجانبها فوق سرير واحد، ولم يُخيل لي أنني هُنت أن يفعل بي كل ذلك، أنا الذي حاولت من أجله ولم أحاول من أجل نفسي في أكثر الأوقات احتياجًا لمحاولاتي بها، للدرجة التي جعلتني أفكر في إنهاء حياتي..

«أوقات بحس إننا شمس وقمر

طريقين سفر مابيتلاقوش..

واهرب ما بين كل الوشوش»

في لحظة لوم النفس التي نفيق بها، نكتشف أننا قد أخطأنا كثيرًا في حق من أحبونا، أخرجت زفيرًا يعبر عن مدى غضبي من الذي فعلته مع «آسيا» بعد كل ما تنازلت عنه من أجلي، لا أعلم كيف لإنسان عاقل أن يقتل من كان طوق النجاة له، ألعن نفسي دون رحمة، تدور الذكريات في عقلي بسرعة بالغة، أتذكر كل شيء بيننا، وما زلت لا أجد إجابة على سؤال لم يتوقف عن مراودتي لماذا فعلت كل هذا.. وفي تلك اللحظة شعرت أنني لست مسيطرًا على شيء يحدث في حياتي؛ بل كان كل شيء هو المتحكم بي!

«وساعات بحس.. إنك أنا

فاهمة حروفي والسكات

سامعة غنايا وكل الآهات»

بدأت أن أهدأ من السرعة قليلًا، ولكن عيناي لم تعرف معنى الهدوء قط، في عقلي أرى كل شيء بيننا، أرى كل شيء بينها وبينه، ولم أرنا سوى أننا كنا ضحايا لجريمة لم نرتكبها في حق العالم الذي قرر أن ينتقم منَّا بكل هذه القسوة، حينما وجدتك في أول ليلة رأيت بك «آسيا» التي صفعتها الحياة دون رحمة، لهذا قررت ألا أتركك وحدك حينها، ولكنك لم تقدر معنى ذلك، حتى أنني وجدتك في أحضان أكثر شخص كان سببًا في كل ما حدث لك..

أشعر بأن قلبي يحترق من الداخل.

«وياخدني جوه عينيكِ سحر ودندنة

وساعات غنا وساعات تبوح متعلقة في حضن المنى»

لا تختفي ابتسامتك من عقلي، فقد كانت أكثر شيء أحب أن أراه منكِ، ولأول مرة منذ أن تلاقينا أبكي وحدي، فزارتني في ذاكرتي أول رقصة بيننا، أول نظرة، أول قُبلة، وأول عناق داويت ألمي به معكِ، أعلم يا «آسيا» أن ما رأيته الليلة أشبه برصاصة قد أطلقتها في قلبك، لكنني أقسم لكِ أنا لا أعلم كيف وصلت الأمور لهذا الحد..

«بس الأكيد لو كنتِ أقرب ليا مني

أو ما بينا سنين فراق

روحك حتفضل «هتفضل» لازم في سكتي»

دلفت إلى داخل شقتي وأنا ألهث، لأرى صورتك التي قد التقطتها لك دون أن تدري، ركضت اتجاهها بغضب

اجتاحني وأمسكت بها لأركلها أرضًا بكل قوة ليزداد بكائي مرة أخرى، فعل واحد قادر على أن يغير مكانة الأشخاص داخلنا من كل شيء إلى لا شيء..

ودون أن أدري ارتطمت ركبتاي أرضًا بعدما شعرت بقدمي التي لم تعد قادرة على أن تحملني، ثم التقطت صورتك من بين زجاج البرواز الذي هشمته، لأنظر إلى ابتسامتك بكل اشتياق يؤلمني، وندم كاد أن يفجر رأسي على أنني قد أحببتها ووثقت بك في يومًا ما.

«دي رواية ساكنة في وحدتي

عمري اللي لسة.. ماعيشتهوش»

خسرت «آسيا» دون أن أعي بماذا ضحيت، وكل ذلك كان من البداية ظنًا في أنني قد أفوز بشيء أغلى، ولكني قد أدركت أنني خسرت الشخص الوحيد الذي كان لا يستحق مني سوى أن أكون سببًا في رسم الابتسامة على وجهة دائمًا، وبتلقائية مني وجدتني، اخرج هاتفي، وأكتبها صريحة هذه المرة أمام كل من يعرفني، ويتابع كتابتي..

«أرجو عدم استخدام شخص، لنسيان شخص آخر».

وفي هذه اللحظة واجهت الحقيقة التي كنت أتهرب منها كل هذه الفترة، لأغلق هاتفي، وعيني تُسقط آخر دموعها، بعدما أيقنت داخلي إنها قد صدقت جملتي بالماضي بأن تلك الأغنية.. تشبهنا.

***

23

«بين الماضي والحاضر شخصان عكس بعض تمامًا!»

***

لا يوجد في هذه الحياة شيء يبقى على حاله، لو كان باستطاعة المرء منا اختيار مصيره، ربما لكان من الممكن أن يكون شخصًا لا يغيره الزمان أبدًا، خاصة في حبه لأكثر شخصًا تمناه، في بعض الأحيان من الأفضل لنا ألا نقترب، ولكن ما يحدث هو أننا نضع أنفسنا في أكثر الأماكن إيذاءً لنا، ولا ندرك ذلك إلا بعد فوات الأوان..

في لقائي بـ«سارة» كان الأمر أشبه بالحلم الجميل الذي لم أستفيق منه إلا بتحوله لكابوس مفزع، كل شيء بيننا كان حقيقيًّا لحد الراحة، الغريب في الأمر أن لا شيء في هذه الحياة متوقع، وليس كما نعتقد أننا متحكمون فيما يحدث في حياتنا، فربما صدفة عابرة قد تُغير مصيرك للأبد، موعد تتأخر به لدقائق يكون سببًا لشيء آخر لم يكن في الحسبان، وكذلك النهايات، فمثلما يبدأ كل شيء في لحظة عابرة، قد ينتهي في لحظة أخرى لم نتوقعها، ونحن مشاهدون ليس إلا..

ما زلت لا أعرف ماذا حدث في كل ما فات من تلك الفترة، ولكن ما أصبحت أعرفه الآن أنني لم أعد أريد شيئًا، ولم أعد أرغب في شيء، فالأمر بات أكثر تعقيدًا الآن، ومن المؤلم أن يوهم الإنسان نفسه أن باستطاعته إصلاح ما قد أتلفه، وكأنك يا «سارة» كنتِ اللعنة التي

كُتب عليَّ أن تطاردني، في الماضي، والآن في الحاضر..

اتخذت طريقي للعودة إلى بيتي بعد ما دار بيني وبين «آسيا»، أدركت الآن أنني خسرتها للأبد، وفي نفسي أعلم أنني أستحق تلك الخسارة، فأنا حقًا لا أستحق قلبًا مثلها، أو إنني لم أعد بلا روح تساعدني على أن أكون الشخص الذي رسمته «آسيا» في مخيلتها، وتمنيت في أعماقي لو أن لقاءنا كان مبكرًا ولو قليلًا ولكنني كما قلتها.. الأمر ليس بيد شخص منا حتى وإن كنا نتوهم ذلك..

***

جلست «سارة» على الأريكة بالصالون غير المرتب بعد أن ارتدت ملابسها، يداها ترتجف ولم يتضح ذلك إلا من اهتزازها وهي تشعل سيجارتها، عيناها متوترة لما حدث منذ بضعة دقائق، فهناك فتاة أخرى في حياة «ياسين» قد رأتنا معًا في فراش واحد، شعور لا يمُر على قلب الأنثى بالهين، ولم يمر على قلبي أيضًا أن «ياسين» قد تجاوزني بمعرفة فتاة غيري قد اتخذت مكاني رغم أنني أستحق ذلك، فأنا أول من فعلت هذا به عندما هجرته وتركته وحيدًا يعاني، لا أعرف كيف ارتكبت فعلًا قاسيًا كهذا ولكن حبي لك هو من أجبرني على ارتكاب فعل كهذا، تدخن سيجارتها بشراهة وهي تنظر أمامها في فراغ تلك الشقة التي بها الكثير من ذكرياتهم، وشردت في كيف كان أول اعتراف لـ«ياسين» بحبه لها..

كانت السماء صافية أنت تعلم جيدًا كيف تكون الأيام التي تشعر بأن العالم بأكمله يحبك ويتقبلك بها، حينها تشعر أن أوراق الأشجار التي تتساقط تُزين الشوارع بشكل لا

يفهمه غيرك، ترى نسمة الرياح اللطيفة بالأجواء كيف تُكمل شعورك بالاستمتاع والرضا، خيوط أشعة الشمس الساطعة بدفئها الذي يلامس وجهك، حتى أن الحيوانات والطيور تراهم يبتسمون إليك..

كنا في سنوات الجامعة الأكثر حظًا بالنسبة لـ«ياسين» في شهرته ككاتب مغمور، كنت هناك أصغره بعامين، كانت الهندسة البرمجية هي تخصصه لكنه كان لا يحبها بقدر ما يحب ويرى نفسه في مجال الأدب، كان يحظى بإعجاب الجميع لكتاباته وشهرته وسط زملائه جعلت الكثير يشعر بالغيرة تجاهه، لذلك كانت دائرة أصدقائه محدودة، وأكثر علاقة صداقة في حياته كانت بصديقة «خالد» والذي كان تخصصه في الهندسة المعمارية، وأصدقاء آخرين كانت الغربة مصيرهم، تابعته من بعيد لفترة، كان من الصعب عليَّ أن اتخذ خطوة بالحديث معه فهذا سيقلل من شأني في نظره، بناءً على تقييم المجتمع في هذه الفترة من يبدأ أولًا فهو الأقل هيبة وربما لو كان شخصًا نرجسيًّا بعض الشيء فيراك بنظرة أنك معجب به ولا أكثر من ذلك، فكان الأمر بالنسبة لي بالغ الصعوبة لأنني كنت صريحة مع نفسي.. أن شخصية ذلك الكاتب أسرتني، كنت أقلب في كتابته على صفحته الشخصية ولا أضع له تفاعلًا واحدًا يراه حتى لا يشعر بي، حتى آتت تلك الفكرة في رأسي، أن أجعله هو من يتعرف بي، ولكني استعنت في تلك الأيام بمساعدة أصدقائي الفتيات، كنت من خلال متابعته على مواقع التواصل الاجتماعي أرى مشاركاته عن الأماكن الذي يذهب إليها، والمقاهي التي

يفضلها، لذلك كان من السهل التعرف على بعض طقوسه اليومية، حتى اليوم الذي اعترفت به على فعلتي تلك، كان يظن «ياسين» أن جلوسي هناك كان مجرد صدفة، ولكنه لم يكن يعرف أنني قد خططت لذلك، وقد جلست في هذا اليوم أنتظره، ونجحت في تمثيلي حينها أنني أول مرة أراه..

بعد ذلك بفترة اعترفت له بكل شيء، ولم يصدق أن كل هذا بدر مني كي أجعله هو من يحدثني أولًا حتى أثبت له أنني معه بنفس الجامعة.. أتذكر ضحكاته التي اعتلت حينها وإخباره لي أنه أحب تفكيري المتهور..

وبعدما حدث ما تمنيته في ذلك اليوم، وجلست معه مرت الساعات دون أن ندري، واكتشفت حينها المعنى الحقيقي لجملة أن مع من تحبهم ربما تمر الأعوام كيوم انتهى سريعًا، حدثني حينها عن شغفه وحبه للكتابة منذ الصغر، عرفت كل شيء يدور في عالمه في هذا اليوم، كان السكن الجامعي يساعده على التجول في القاهرة كثيرًا وكيف يحبها ويحلم بأن يقيم بها، حتى مر اليوم وانتهى بسرور ملأ قلبي، ورغبتي تجاهه قد زادت أكثر من ذي قبل، ومر اليوم وعدت إلى منزلي وقلبي يتراقص فرحًا، أذكر حينها كيف كانت نومتي سعيدة للحد الذي لم أشعر بتلك السعادة مرة أخرى من بعده وكان هذا أول لقاء بيننا، ومرت الأيام هو يراني صديقته وأنا أراه أكثر من صديق، لقاؤنا كان هو أفضل شيء يحدث في أيامي وأنتظره، كنت أعشق نظراته إليَّ، حتى أوشكت على التخرج وكان ومقبلًا على فترة خدمته العسكرية، وذات

يوم كنا نجلس بذاك المقهى الذي قد اتخذناه مفضلًا لنا بوسط القاهرة الجميلة، كان هو من طلب أن يراني، رأيت بعينيه تيهه كطفل صغير، حتى تحدث لي قائلًا وعيناه شاردة:

- ما أنا مقبل عليه لم أعد أعرف له أي ملامح يا «سارة»..

في بداية الأمر لم أفهم قصد كلماته، لكنه أكمل:

- أعرف أنكِ كنت ونعم الصديق المساند لصديقه في تلك الفترة الكبيرة الماضية، تمنيت لو كانت أموري أوضح قليلًا لكن هذه هي حياتي..

مددت يدي ووضعتها فوق يده التي ترتجف على الطاولة بهدوء متوتر وأنا أقول له:

- أنا معك دائمًا..

- كونكِ معي يا «سارة» هو أكثر ما يجعلني قلقًا الآن.

فنظرت له بحيرة وأنا أشعر أن الحديث يتجه لطريق قد يقتلني من الداخل فتماسكت حتى استمع لما يريد قوله للنهاية:

- «سارة» أنا لا أريدك أن تتفهمي الأمر بشكل خاطئ، ولكنني لم أريد سوى أن أراكِ سعيدة.. كل شيء في الحياة هو فترة وكما كان لها بداية فلها نهاية أيضًا.. أنا أعرف أن أمامك مستقبلًا كبيرًا ينتظرك لأنك شخص طموح.. ولا أريد أن أصبح عائقًا لكِ في يومًا من الأيام.

بماذا يتفوه ذلك الأحمق، كل هذه الأيام معه ولم يدرك

أنني أكثر الناس سعادة عندما أكون جواره، ألم يشعر حبي له الذي تخبره نظراتي به دائمًا، ألم يره في قلقي عليه، ومساندتي له التي لم تكن مجرد مساندة صديق لصديقه أبدًا، فتلك أفعال لا تخرج إلا من شخص يحب فقط، فبدأت أن تلمع عيناي لأنني شعرت بأنني سأستمع لما لا أريد استماعه، وهو ينظر إليَّ بثبات ثم أردف:

- لكنني أيضًا لم أعرف معنى للحياة إلا معكِ، ولم أرها بتلك النظرة الجميلة إلا من خلال عينيكِ يا «سارة»، فربما كانت لقاءاتنا على أساس أننا أصدقاء دائمًا، ولأنني لا أملك شيء كنت أحرص على ألا أصارحك بما يشعر به قلبي تجاهكِ منذ رأيتك في مكاننا هذا لأول مرة، ولا الذي يفكر فيه عقلي في كل ليلة، ووجهك الذي أراه دائمًا في مخيلتي فأبتسم لأنكِ معي، وربما ذلك أكثر وقت لا يصح أن أقول فيه ذلك ولكنني لم أستطع قتل شعوري لكِ داخلي أكثر من ذلك، فأردت الاعتراف به حتى لو كان هذا اللقاء الأخير بيننا، وستنقطع صداقتنا بعدها للأبد فربما سيكفيني شعوري في كل ليلة أنني لم أرحل إلا بعد اعترافي بالحقيقة..

ونظر إليَّ نظرة مغرمة لم أنسها حتى الآن وشفتاه تنطق حروفها بنغم افقدني عقلي بعدما قالها:

- اعترافي بأنني أحبك يا «سارة»، أحبك منذ اللقاء الأول بيننا.

***

عادت سارة من شرودها، وعينها التي ذبلت من كثرة

دموعها تبكي، ولم تسحب من سيجارتها إلا نفسًا واحدًا أثناء إشعالها ثم بعد ذلك احترقت السيجارة إلى آخرها أثناء تذكرها للماضي الذي لم تنسه وتلك اللحظة التي تتذكرها في كل ليلة قبل نومها، حتى استمعت لصوت مفتاح «ياسين» وهو ويدور في رتاج باب شقته، فوقف لثوان معدودة ينظر لها بخجل لما حدث قبل قليل ورؤيتها لـ«آسيا» في ذلك الوضع، وما زالت عيناها تبكي وهي ناظرة له ثم نهضت من مكانها وقالت له بنبرة تملأها الحسرة:

- من كانت تلك الفتاة يا «ياسين»؟

فصمت ولم يجد ما يقوله، فمسحت عيناها بيدها وقالت:

- اعتقدت أن مكاني لن يأخذه غيري عندك من بعدي، لكنك أثبت لي الليلة أنني كنت على مخطئة..

قالتها وهمت بالرحيل، وأثناء مرورها من جانب «ياسين» أمسكها من ذراعها وأوقفها هو يقول لها بحزن وخيم على وجهه:

- كل الخراب الذي حل حياتي كان بسببك.

تراكمت الدموع بعينيها مرة أخرى، وذهبت بعدما تركها وفي عقلها ذكريات بينهما لا تهدأ، كيف للحياة أن تغير كل شيء هكذا، لا شيء مضمون في قانونها، من يسكن في أحضانك وبين ضلوعك الليلة، ربما غدًا يكون أكبر عائق لك، لا شيء هنا مضمون، ولا حتى نحن نضمن أن يكون ولاء أنفسنا لنا.

***

24

«لحظة عابرة قد يترتب عليها مصير كامل دون أن تدري».

***

في بعض الأحيان يفقد الإنسان منا عقله للحظات يتخذ بها قرارات إن لم يحسنها فقد تضيع عمره كله، أو ربما تُغير حياته لمصير لم يرده إلى الأبد، الأزمة في هذا التوقيت هو ليس القرار برمته وإنما كونك قد ذهبت في طريق لا يمكنك الرجوع منه، وكأنك قد قطعت تذكرة إلى الجحيم بمحض إرادتك بلا عودة، وكل ذلك من أجل لحظات فقط كي ترضي بها غرورك وكبريائك ومن ثم تندم عمراً بعدها، ولكن أقسى درس ستصفعك به الحياة على وجهك أن حتى ندمك على أكبر خطأ قد ارتكبته بها لن يغفر لك، فتجبر على أن تكمل وكأنك مجرم لن تُمحى من سجله فعلته التي ارتكبها، الفارق بينك وبينه أن الجميع يعلم ما ارتكبه لذلك يمكنه أن يتعايش طبيعي، أما أنت فخطؤك لم يشهد عليه غيرك، فتصير به كوصمة عار، اللهيب الداخلي الذي لن يراه ويشعر به غيرك فقط، ورؤيتي لـ«سارة» كانت الجريمة الكبرى في المقام الأول.

تلك الفتاة التي غرتني نفسي بامتلاكها، بأنني أستطيع الحصول عليها، لا أعلم إن كان الشيطان هو من يتسبب في فتنة أنفسنا كي نرتكب ما نندم عليه بعد ذلك، أم أننا نتهمه ظلمًا كي نبرر فعلتنا؛ الأسوأ من ذلك هو أنك حتى لا يمكنك التراجع ولا التوقف، ولكنك قد اتخذت

الطريق الذي إن لم تكمله رغمًا عنك للنهاية فقد تهلك. لذلك تختار أن تدمر من أمامك قبل أن يلحق بك هو الدمار..

الآن عقلي لا يستطيع التوقف عن التفكير، فما أفكر فيه لا أعلم عواقبه، وإن سألني أحد بصراحة فأنا لا أريد فعله، ولكنني أخشى على نفسي.. وقد يدفعك خوفك على نفسك لأن تفعل أي شيء.. حتى وإن كنت ستعرض أقرب الناس إليك للأذى.. أنا أعترف بأنني الأسوأ الذي كان بالقصة.. أعترف أنني كنت سببًا كبير في هلاك كل شيء، لكنني لم أرد أن يحدث كل ما حدث بهذه الطريقة. فلا تحكم على قلبي الذي أحب تلك الفتاة من أول مرة رأيتها.. ربما كان عليَّ التحكم بنفسي أكثر، لكنها كانت أجمل مما أن أقاومها، أحببتها رغم علمي بأنها تحب رجلًا آخر، وهذا الرجل الآخر هو صديق لي وشريك في نجاح عمل حققناه سويًا، لكن غرور النفس قد يجعلك تدمر كل شيء في لحظة، من أجل أن ترضي غرورك فقط.

لا أعلم من أين عدت يا «ياسين» مرة أخرى، كنت قد بدأت في أن أتأقلم لكنها لعبة القدر وأعلم جيدًا، إنها لن تدعني وشأني، لذلك كان عليَّ أن أتصرف، وقد أتى الوقت ثانية لأصرف كما حدث في المرة الأولى، فسجنك قد يزيحك من طريقي إلى الأبد، وربما بعدها نجتمع أنا و«سارة» كما كنا، لأنني لن أتركها لأحد، فبعد كل ما فعلته من أجلها لن أتنازل عنها بتلك السهولة، ومستعد أن أقتل ثانية من أجل أن تكون معي فقط يا «ياسين»..

أتسمعني من أجل تكون هي معي فقط.

قالها «زياد» بعصبية بالغة ونبرة عالية ممسكًا في يده صورة لـ«ياسين» كان يبتسم بها بجانب صديقه «خالد» المتوفي، ويجول نظراته بعدوانية بينهم.

***

في الأوقات التي أشعر بأن العالم يرفضني بها أحب أن أسير بين الشوارع، أتوه بين البنايات، الهواء الطلق أستشعر به، السمعات في أذنيَّ استمع للموسيقا التي تعبر عني، رغبتي تتفاقم في هذا التوقيت بالشعور بالحرية بعض الشيء، لذلك أسير على قدماي كثيرًا، وأرى العالم بنظرة مختلفة رغم أن لا شيء قد تغير، لكنني كل ما أريده هو أن لا أفكر بشيء يحدث في حياتي، أتأمل الناس، أرى في وجوههم عبث الحياة بهم، بعض الشباب الطموح، النساء التي أرهقتها متاعب الحياة، والرجال الذي ترى إرهاقهم من تحمل المسؤولية على وجوههم، والشباب ملامح وجوههم فقط يخبرونك بأن الأمور معهم ليست على ما يرام، لكنهم يواصلون سعيهم..

أليس من المؤلم أن يستمر المرء في سعيه من أجل الحركة فقط، أن يواصل دون شغف، دون أمل في إصلاح الأمر، يتحرك في الحياة من أجل التعايش، يتحرك فقط من أجل عدم لومه بأنه لا يبذل جهدًا، رغم إدراكه جيدًا أن كل ما يبذله من مجهود مضاعف لن يجدي نفعًا، فيصبح كالآلة، ليس لديه شغف لشيء يفعله، ولا هناك مقابل يستحقه من أجل محاولاته، ولا ينتظر من اليوم سوى نهايته، يتعايش اليوم فقط من أجل أن ينهيه..

وما أكثر الذين تحولوا لآلات في أيامنا، من أجل فقط كسب قوت يومهم ليستطيعوا أن يحيوا يومًا آخر، وتستمر الدائرة التي لا نهاية لها، وجدتني أثناء سيري قد استقررت أمام قهوة بسيطة، كما نقولها بلهجتنا «قهوة بلدي»، أحب الجلوس على تلك المقاهي القديمة، فمعظم من يجالسونها يكونون فوق الخمسين، ذاك الجيل الذي بات قديمًا بعد كم التحديثات الهائلة للتطور من حولهم، وكأنهم البذرة الأخيرة للحفاظ على بعض الأشياء والطقوس التي يجدون بها راحتهم ويهربون من سرعة العالم خلالها كتلك المقاهي القديمة، فاتخذت مقعدًا لي وضع أمامه طاولة صغيرة، ثم طلبت قهوتي الخاصة، وطبعًا إن طلبتها في كأس هنا ليس بعيدًا أن ينعتوني بالسكير، أو المعتوه الذي جاء إلى المكان الخطأ، ثم أخرجت تبغي ولففت سيجارة كي أدخنها مع القهوة التي قد أُعدت لي، وبدأت ذاكرتي تهاجمني قليلا بـ«آسيا»، أرجوك يا عقلي اتركني وشأني في هذه اللحظات حتى، أريد أن أفصل عن العالم، هاتفي مغلق، لا أريد التواصل مع أحد، فقط أتعايش مع تلك التفاصيل التي أنا بها الآن، من الواضح ومن اهتمامات الرجال الكبار أن هناك مباراة ستبدأ بعد قليل، ليس لدي اهتمام بالكرة المحلية منذ زمن، لكنني ألتمس العذر لهؤلاء.. فتلك المباريات هي التي يتناسون بها هموم حياتهم ويهربون إليها، أتعجب فقط من أخذ البعض للأمر على محمل شخصي وكأنك عندما تهاجم النادي الذي يشجعه برأيك، ينظر لك بغضب وكأنك أخطأت بعائلته هو شخصيًا، فتبدأ الصراعات والنقاشات على لعبة في النهاية

صُنعت للترفيه، ولكننا كأي شيء في حياتنا الآن لا نحسن استخدام الأشياء، على أي حال بدأت في الإندماج مع انفعالاتهم والكثير من السباب الحماسي الذي يأتي بعد إهدار اللاعبين للكرات، لو بيدي الأمر سأقول أن كل هذه العصبية لن تعود عليهم بالنفع، فالنادي وأصحابه ولاعبيه في حالة الخسارة أو المكسب مستفيدين بالفعل، أنت الوحيد المستهلك في الأمر برمته ولكنني أخشى أن يركلوني بالأكواب التي أمامهم لأنني بهذه الطريقة أقلل من قدر أنديتهم المقدسة، فابتسمت قليلًا لانفعالات بعض الرجال المسنين، وأرتشف قهوتي وأنا أستدير برأسي لأرى إن كان الحاضرون من خلفي بهذا الحماس المضحك أيضًا لكنني لفت نظري ذلك الشاب الجالس في الركن الأخير من المقهى وحده، لا يبتسم، لا يشجع، تعبيرات وجهه خالية الوفاض تمامًا، ولا يكترث للأمر برمته، فحدقت له لثوان ثم عدت برأسي أنظر أمامي وأكمل قهوتي، لكنني بعد مرور ثوان اكترثت لأمره أكثر في عقلي، هذا الولد هناك أمر ما يحدث معه، أشعر من عينيه ذلك، ولأنني اعتدت تلك المواقف فأشعر بمن يمر بها، ربما ما زال في بداية حياته ليس لديه الخبرة التي تجعله لا يكترث لما يحزنه، ويتفاعل مع الحياة بطريقة أو بأخرى وبين حيرة زادت داخلي، اتخذت قراري بالذهاب إليه حتى وصلت إلى مكانه الذي يجلس به، فنظر لي ظننته في البداية سيعرفني، لكن لا.. شهرتي لم تكن لهذه الدرجة التي تجعلني معروف بالمقاهي البلدية، كان متفاجئًا حين عرضت عليه أن اجلس بعدما قولت له:

- رأيتك تجلس وحدك وأنا مثلك كذلك فقلت نجلس سويًا.. أتسمح لي؟

تعجب من تلك الكلمات في العادة هذا لا يحدث بين الشباب لكنه هز رأسه دون أن يتكلم، فجلست وأنا أقول له:

- أعلم أن الأمر يبدو غريبًا، لكنني لا أشعر أنك على ما يرام، أنت هنا من اجل أن تتابع المباراة.. أم هارب من همومك قليلًا؟

شعرت من تعابير وجهه أنه شعر لكلماتي بارتياح بعض الشيء، فقال لي مترددًا:

- لا الأمر ليس كذلك، أنا على ما يرام شكرًا لاهتمامك.

فقلت له وأنا أبتسم وأضع كف يدي فوق صدري معرفًا نفسي:

- لا عليك أنا ياسين.. «ياسين الشافعي» كاتب.

فتوسعت عيناه قليلًا ثم قال:

- نعم.. لقد سمعت اسمك من قبل، لكن اعذرني أنا لا أكترث بالقراءة.

- دعنا من هذا الأمر، شعرت بأنك تحتاج إلى البوح، أو ربما رفيق يستمع إليك.

- لا أعرف ماذا أقول لكنني حقًا أنا هنا لأهرب من هموم الحياة قليلًا يا أستاذ.

زادت ابتسامتي لكلمته الأخيرة، ثم قلت له:

- انعتني بـ«ياسين» فقط، لتعتبرني صديقًا لك في تلك الساعة التي ربما بعد انتهائها لن نتقابل ثانية، أليس ذلك شيء مريحًا في حد ذاته!

- بلى، معك حق.

قالها ثم بالتردد ذاته أردف:

- أنا «كريم»..

تعالت أصوات الناس مرة واحدة معلنة عن هدف واضح قد أحرزه فريقهم فقولت له بصوت عال قليلًا:

- المكان هنا مزعج لنجلس بالخارج من الأفضل.

جلسنا على طاولة أقل هدوءًا لأنها بالخارج، لكن ضجيج الشارع متواجد ولكنه ليس مزعجًا كما بالداخل..

أخرجت تبغي لأصنع سيجارة أخرى لي وأنا أقول له ناظرًا لرص التبغ بيدي:

- حسنا يا «كريم» لا أعلم ماذا جعلني أتخذ تلك المبادرة، لكنني رأيت في عينيك تيهًا أنا تعايشته، وتمنيت لو أن ينتشلني أحد منها، أو على الأقل لو كان يستمع أحد لي حينها..

- إنه لشرف لي أن تبادر بالجلسة معي..

رفعت حاجبي وقلت:

- قلت لك نحن أصدقاء الآن، أريد أن أستمع لك، أشعر بأن هناك الكثير ما يجول في ذهنك..

- لا أريد أن أزعجك بمشكلاتي خاصة في لقاء كهذا..

- ليس هناك أجمل من تلك اللحظات التي لا نرتب ولا نكون مستعدين لها..

قلتها ثم أشعلت سيجاراتي بعدما قال لي إنه لا يدخن وفرحت في نفسي عندما سمعت هذا منه، فنظر أمامه ثم قال:

- من أيام قد تفرقنا أنا و«مريم».. تلك الفتاة التي كان بيننا حب دام لعشرة أعوام منذ المرحلة الإعدادية..

قالها بنبرة شعرت بهزيمتها فهززت رأسي ببطء مواسيًا، ثم قلت له:

- لماذا حدث ذلك؟

- لأن أباها قد رفضني عندما تقدمت لخطبتها.

ثم تنهد وأردف:

- لم يقبلني والدها بعد حب دام لعشر سنوات.. قال لي أنني ما زلت لم أستطع تحمل مسئولية الزواج من ابنته، ولن يستطع أن يأمن عليها معي.

فرمقته بنظرات ثابتة دون أن أتكلم، لكنني أستمع إليه بألم حقيقي بدأ أن يتسلل إلى قلبي، فأكمل هو قائلًا:

- أتساءل حقًا لماذا يُقيم الفرد منا بما يملكه، وليس بما يحمله في قلبه.

أنا أعلم جيدًا أن كل أب يحب أن يرى ابنته مع رجل يسعدها، ولكن هذه السعادة تتجسد إليهم في رجل غني لديه الكثير من المال، لا يهم حبك أمام لمال، لا يهم عشقك ووفاءك، لا يهم سعيك، في نهاية الأمر لا ألومه

حقًا فله الحرية كيف يزوج ابنته.

هبطت دمعه من عينيه بعدما قالها ثم أخرج زفيرًا طويلًا وقال:

- أتعلم كل ما كنت أريده أن أشعر فقط بأنها تصمد من أجلي، تقدر أنني أحاول من أجلها، يقحم الشاب منا نفسه في حياة عملية يكاد ينسى بها معنى الرفاهية من أجل أن يلحق بمن يحبها، ثم بعد ذلك إن جاء المال هان كل شيء، هان تعبك وسعيك وحبك لها، أنا كل ما يقتلني ليلًا في غرفتي هو كيف أنني هُنت على أكثر شخص أحبه قلبي في هذا العالم.. كيف له أن يبتاع كل شيء لنا في لحظة من أجل أنانية نفسه.. أهانت عليه كل هذه الأعوام بيننا حقًا، واختارت تنعم هي بحياة رأتها من وجهة نظرها أنها الأفضل لها، وليست لنا.. ولم تكترث لحظة مثلما تهتم أن ترى أنت كل شيء لكم يقسم عليكم معًا..

لحظة أنانية قد تُضيع حياة أحدهم، وتؤدي به إلى مصير مجهول بعدما كان يعرف ملامح طريقه جيدًا..

لم أرد أن أواجهه بحقيقة الحياة القاسية، إنها دائمًا لن تعطي الإنسان ما يريده، وإن أعطته فلا بد أن تأخذ منه شيء بالمقابل، شيء قد يتمنى لو أن يخسر ما اكتسبه كي يسترد ما فقده مرة أخرى، لكن الإنسان في حزنه، لا يرى سوى أن تلك الأزمة التي يمر بها هي أكبر عقبة في الحياة له، وعلينا أن نقدر شعوره ذلك في هذه الأوقات، فسحبت نفسًا آخر من سيجارتي، ليمسح عينيه وهو يكمل كلماته التي كتمها لوقت طويل بداخله:

- أتساءل حقًا إن كانت الحياة صعبة بوجود حبيب مساند لنا، ويدعمنا لنستمد طاقتنا فنُكمل..

فكيف تكون إذًا بعد رحيله، من أين سنستمد تلك الطاقة التي قد تشجعنا على أن نواصل، بل من أين نأتي بطاقة تجعلنا نتغلب على خذلان أكثر شخص وثقنا به، أصبح الأمر معقدًا بالنسبة لي، تبدلت حياتي بسبب قرار أحدهم وهذا ليس عدلًا.

فربتت على كتفه ولا أعلم ماذا أقول له، تلك اللحظات لا يحتاج الإنسان بها أكثر من العناق بها، فابتسم بخيبة أمل وقال:

- لا لا.. لا تُشفق عليَّ، الأمر بسيط..

قالها ثم بدأ يبكي.. وبصوت مبحوح قال:

- كل ما كنت أريده أن أشعر بأنني لا أستحق أن يتم التنازل عني بهذه السهولة.

ثم وضع يده على وجهه كي يخفي عينيه التي انهمرت بالدموع، فاقتربت منه رغمًا عني بعدما أفلت السيجارة من يدي وقلت له:

- اقترب يا صديقي، ومن ثم عانقته بصدق وأنا أربت على ظهره، وجسده يرتجف، فبعض الأوقات الكلمات لا تجدي نفعا بها، فأرواحنا تكون في احتياج لعناق صادق أكثر، عناق يداوي روحنا من شقاء الأيام، ويُعيد لنا ابتسامتنا التي تبخرت، عناق يرمم أرواحنا المهزومة، ونشعر من خلاله أننا ما زلنا بخير، عناق يعيد لنا الحياة من جديد.

***

25

«هناك أشياء عندما تُهدم، لا يمكنك ترميمها مرة أخرى».

***

أحب أن أرى شوارع المدينة من نافذة السيارة، أشعر وكأنني حرة في هذه اللحظات، وأتعمق في بحر أحلامٍ لا نهاية له، أرى كل شيء بوجه مبتسم لي، أتأمل السماء والسحاب وأحيانًا النجوم والقمر، أشعر حينها أنني خارج العالم في دقائق أعيشُها وحدي في عقلي، وأتمعن الأشياء بعين طفلةٍ تسكن داخلي كما لو أنني أراها من جديد، المدينة جميلة من نافذة السيارة كالأحلام التي أراها، حتى تنتهي الرحلة فأعود إلى واقعي وأكتشف أن ما زالت شوارع المدينة كما هي مزعجة، وأن أحلامي الجميلة ليست إلا مجرد خيال..

انتهى الطريق حيث قصدته السيارة التي اعتليتها، لكل شخص منا نقطة ضعف لا يعلمها أحيانًا أقرب الناس إلينا، نقطة ضعف تجعلنا في بعض الأحيان نتخذ قرارًا بعدما تمر عليه فترة ونستفيق من غفلته، نوبخ أنفسنا قائلين..

ما تلك الحماقة التي ارتكبتها في حق نفسي!

ومن ضمن هذه القرارات كان علاقة ارتباطي بـ«مصطفى»، أتذكر دائمًا المقولة التي تقول.. من رآك شخصًا سهل المنال، لن تكون بالنسبة له قيمة كبيرة، فالإنسان منا يغوي كل صعب، أما المتسامح دائمًا يدهسه الجميع، هذه غريزة في البشر منذ القدم، ليس كل فرد يستحق أن

تكون له على فطرتك الطيبة، وكان هذه الوقح واحدًا منهم، ذهبت إلى الكافية الذي كنا نجلس به من قبل في لقاءاتنا، بعدما أرسل إليَّ أنه ينتظرني هناك، دلفت إلى الداخل، كان جالسًا على طاولة اعتدنا الجلوس عليها، لم أعد أشعر بشيء عندما أراه، سبحان من يجعل الشيء في عينيك أكثر من عادي بعدما كان بريقًا لامعًا يجعل قلبك يخفق كلما تراه، لا تترك الحياة شيئًا على حاله، اقتربت وسحبت المقعد المقابل له وجلست وأنا أرمقه بنظرات مشمئزة، فابتسم لي بسذاجته المعهودة:

- حمدلله على سلامتك يا «سلمى».

فقلت بلامبالاة وما زالت نظراتي عدوانية له :

- لماذا طلبت أن تقابلني؟

بأدائه الذي صرت أبغضه قال:

- أهذه طريقة لائقة لشخص يرحب بكِ؟

في نفسي قلت، لا يليق مع من هم مثلك إلا هذه الطريقة لكني التزمت الصمت، فأردف قائلًا:

- اشتقت إليكِ فأردت أن أراكِ..

استنشقت شهيقًا أخرجته زفيرًا بغضب وأنا أتأفف:

- «مصطفى» دعنا من كلاماتك المملة هذه، فلتقل لي ماذا تريد..

فنظر لي بجمود، وهو رافع إحدى حاجبيه منزعجًا من طريقتي ثم قال:

- إذًا.. أريد منكِ ألف جنيه.

فاتسعت بؤرة عينيَّ من الذهول وقلت بصدمة:

- يا لوقاحتك!!

فأشار بيده قبل أن أكمل كلماتي ولعناتي عليه وقال وهو يبتسم بتعالٍ:

- لا داعي لكلماتك سأردهم إليكِ في أقرب فرصة..

فصحِت به:

- ألا يكفيك كل ما أخذت، هذه أموالي من جهدي الخالص، كيف ترى نفسك وتسامح نفسك وأنت بهكذا وضع، عندما أعطيتك فيما سبق ظننت أنك تحبني حقًا لم أكن أعلم نواياك القذرة..

فنظر إليّ بتحدٍ قائلًا:

- أريد المال الذي طلبته وإلا...

فاحمر وجهي قبل أن يكمل وهززت رأسي بخوف، وأنا أُخرج المال من حقيبتي وركلتها على الطاولة أمامه واتجهت مسرعة إلى الخارج.. وعيني ممتلئة بالدموع، الأسوأ من كونك شخص له لحظات ضعف كأي إنسان عادي، هو أن تكون تلك اللحظات مع إنسان آخر لا يؤتمن عليها بل يستخدمها ضدك وبكل وقاحة، ابتدأت دموعي بالانهمار، حينما تذكرت ما حدث بالماضي وما وضعت نفسي به الآن.

***

يجلس على مقعد مكتبه الكبير ساندًا رأسه للوراء شارد الذهن، يفكر في هذا الأمر الذي أصبح يطارده مؤخرًا،

تقلبات «سارة» التي ازدادت عن حدها، تُرى أصبحت تلتقي بـ«ياسين» مرة أخرى أم عرفت رجلًا آخر، يفكر في مراقبتها الأيام القادمة، لكن ماذا لو تأكد من شكوكه وأن «ياسين» عاد لها بعد كل هذا، بالتأكيد سيقتلها، الخيانة تقتل الرجل ألف مرة، لكن أين كان هذا المبدأ حينما فعلتها مع صديقك وقد استحللت خيانته واتخذت حبيبته زوجة لك، هكذا عقله يحدثه أثناء شروده ولا يجد نفسه إلا أمام مبرر لفعلته بأن «ياسين» لم يقدر قيمة ما كان يملكه لذلك عاقبته الحياة بسلبها كل ما كان معه وهو مجرد سبب، ثم توقف عن التفكير وكأنه يشوش على أفكاره التي تهاجمه صائحًا بصوت عال:

- أنا مجرد سبب يا «ياسين»..

ثم استدار بالمقعد تجاه خزانته الخاصة ونظر لها محدقًا، ليقترب بالمقعد وهو ما زال جالسًا مكانه ومن ثم فتحها بالرقم السري خاصتها والذي كان عبارة عن عيد ميلاد «سارة» الذي جعله في معظم إيميلاته رمزًا سريًّا، ربما كان نوعًا من الحب الذي أراد «زياد» إثباته، أنها أغلى ما يملك بالنسبة له، نظر بداخل الخزانة ليجد مسدسًا خاصًا به في الرف الأول منه كما وضعه ومجلدًا بلاستيكيًا يحتوي على بعض الأوراق الخاصة وابتسم باستهزاء وهو ينظر للمجلد أمامه قائلًا:

- ربما اقترب موعد نهايتك يا «ياسين»..

وأعاد باب الخزنة مرة أخرى وهو يغلقها بإحكام ثم أخرج هاتفه طالبًا رقم «سارة» متصلًا بها..

***

- كيف حدث كل ذلك في حياتك ولم تخبريني..؟

كنت أحمل في نفسي هموم تلك اللحظة التي سأخبر بها «ياسين» بكل ما حدث منذ اليوم الأول الذي عرفت به ذاك الوغد «مصطفى»، لكن لم أقو على تحمل نفسي أكثر من ذلك فاتجهت مباشرة إليه بعدما اتصلت به وسمع بكائي فجاء إليّ مسرعًا، دام صمتي لثوان وفي عيني شيء من الندم ولا أعلم ماذا أقول له فقط ارتكز بنظراتي إلى الأسفل خجلًا منه، وقلت بصوت خافت:

- أردت أن آتي في يوم لك وأخبرك أنني حصلت على شخص حقيقي يحبني، فأنت تعلم بعد ما حدث بالماضي لم أعد أريد فتح هذا الموقف معك.

فرمقني بتعجب قائلًا بصوت متأثر:

- حقًا يا «سلمى»، أنتِ ترين أننا هؤلاء الأشخاص الذي يصبح بينهم غربة بعدما كنا أقرب إلى بعضنا من أي شيء، ما يجعلني متعجبًا هو أنني أدرك أنكِ لستِ بالغباء والتهاون هكذا..

- هذا ما حدث.

لو كان هناك لوم سألقيه عليكِ قبل أي شيء، فهو اعتقادك بأن أصبح هناك حدود بيننا، لكن هذا ليس وقت لإيلامك الآن..

فقلت وأنا أنظر له:

- الأمر كان متعلقًا بي أنا يا «ياسين».. وهذا يؤلمني،

ليس هناك حدود قد وضعتها، بل تلك الحدود هي من وضعت نفسها بيني وبينك في هذه النقطة رجاءً تفهمني..

فاقترب مني في وقفتنا التي كنا عليها أعلى ذلك الكوبري المفضل لنا كوبري قصر النيل وقال:

- أعتذر لكِ يا «سلمى»، من خوفي عليكِ فقط لا يدور شيء في عقلي سوى فعلة ذلك القذر معكِ.. لكني أعدك أنني سأخلصك منه تمامًا.

وضعت يدي كي أطمئنها قليلًا بعدما انتهيت من كلماتي لها وأنا أنظر للنيل أمامي لثوان أتذكر بها ما حدث بيننا في الماضي والتمست لها العذر بعد أن تذكرت أنها أحبتني رغمًا عنها، وهذا الأمر جعلها عالقة في حياتها حتى استطاعت أن تتجاوز الأمر بعد الفترة التي ابتعدت بها عني، قبل أن نعود على راحتنا بالتعامل معًا مرة أخرى، فلن ألومها حقيقة، لأنني أدرك جيدًا أن الشيء الوحيد الذي ليس لدينا سلطة عليه هي مشاعرنا، لكنني تظاهرت بأنني غاضب من موقفها لكن وفي أعماقي أعذرها تمامًا وأردفت قائلا:

- بيني وبينك عتاب على خطوة ارتباطك دون أن تخبريني، لكن لن أتحدث في شيء الآن، أخبريني بما حدث وما قصة الذي يدعي «مصطفى» هذا من اليوم الأول بينكم.

***

الدموع على خديها ما زالت تنهمر..

في غرفتها جالسة واضعة يدها فوق ركبتيها في منتصف

سريرها، تفكر فيما حدث بينهما ولحظات ما قبل أن تدخل «آسيا» عليهم وتفسد الأمر كليًّا، اللحظة التي اعتقدت أنها استطاعت أن تصلح كل شيء، ولكن ما من لحظات فقط وكشفت لها «آسيا» بمجيئها ونظراتها أن ما قد هُدم لا يمكن ترميمه مرة أخرى، تذكرت ابتسامة «ياسين» ومداعبته لها لا يمكن أن تفارقها، تبكي وتمسح دموعها في صمت، تعلم أن البكاء ليس حلًّا ولكنها لا تملك سواه تعبر به عن شعورها بتلك الآلام التي تأكل قلبها قهرًا، حتى ظهر رقم هاتف «زياد» على هاتفها فلعنته سرًا ولم ترد إلا في رنته الثالثة وهي تقول بامتعاض:

- ماذا تريد؟

- هناك شيء هام يجب أن نتحدث به أين أنتِ؟

ففكرت أن تتهرب منه، لكنها لم تجد شيئًا تقوله، فردت:

- بالمنزل.

- إذًا لنلتقِ على الكافيه بعد نصف ساعة، لأنني لن آتي إلى المنزل الآن.. صنعت لك مفاجأة يا حبيبتي، أنتظرك.

أغلقت الهاتف وهي تبكي وتشعر بأن هذا الرجل يفعل كل شيئًا ثقيلًا على قلبها، الإنسان منا عندما يكره شيء، فقد يكره كل تفاصيله، شكله، رائحته، سيرته وطريقة سيره حتى، الشعور بالكراهية قادر على جعل أجمل الأشياء في عينيك أقبحهم ولا يوجد أسوأ منه، إنها فقط لغة المشاعر.. فالعيون لا ترى بقدر رؤية القلب.

***

يرن الهاتف في يد «مصطفى» على الطاولة لأوجه نظراتي له وقبل أن يرد جلست أمامه وقلت مباشرة وأنا أحدق في عينيه:

- نعم إنه أنا..

فنظر إليّ بدهشة وتساؤل فأردفت قائلًا:

- لقد نسيت «سلمى» هاتفها معي فجئت هذه المقابلة بدلًا منها بعدما طلبت أنت مقابلتها يا «مصطفى» أليس كذلك؟

قلتها بسخرية وأنا أتمايل برأسي في علامة لطلب التأكيد نه، فابتسم باستهزاء وقال:

- بلى كذلك، فلتخبرني ماذا تريد يا رسول «سلمى» هه!

ابتسمت وأنا أنظر في عينيه بثبات، أحاول أن أنقل إليه التوتر دون أن يشعر بعدما تأكدت أنه لا يعرف هويتي، وقلت:

- هذا حقك في أن تنعتني كذلك، أنا إن كنت في مكانك ورأيت رجلًا آتيًا بدلًا من فتاة أنتظرها، سأراه بنظرة ليست جيدة..

ثم مددت يدي لأطوي معطفي الذي كنت أرتديه وأنا أظهر مسدسًا وضعته في جانبي وقلت بنبرة حادة وأنا أنظر له:

- لكني إن اكتشفت أنه ضابط شرطة ربما سأعيد النظر حينها في استهزائي به..

فابتلع ريقه مسرعًا، وشعرت أن الرهبة تملكت منه

ونجحت في إرباكه بالفعل، فقلت وأنا أكمل بحدة في صوتي ونظراتي له:

- جيد.. إذًا لنتفاوض.

فقال بتلعثم:

- نتفاوض على ماذا.. أنا و«سلمى» فقط مجرد اثنين...

أشرت له بإصبعي بأن يصمت وقلت:

- أنا أعلم كل شيء، إن أردت أن تزداد عقوبتك سوءًا فلتهرتل بالكلمات دون أن آذن لك مرة أخرى.

فصمت محدقًا وبدأت يداه في أن ترتجف قليلًا، فأخرجت تبغي وقلت:

- أتعرف يا «مصطفى»، الشباب أمثالك في مجتمعنا يستحقون الإبادة، لأنهم هم الفئة التي أدت بنا إلى خراب كل شيء، لكن لا علينا أنا لست هنا لأعطيك محاضرة تأديبية، فأنت بالفعل قد وقعت تحت يد من لا يرحم.

فابتلع ريقه ثانية وقال بخوف يبدو في صوته وعينيه:

- ما تؤمرني به سأفعله لكن اتركني يا باشا أرجوك.

- لا داعي للتوسل، كانت «سلمى» تتوسل إليك وماذا فعلت.. استغللت حبها هذا كل ما فعلته أليس كذلك..

احمر وجهه وأصبح ينظر حوله بقلق وتوتر فقلت له وأنا أقترب بعدما أكملت لف سيجارتي:

- لا تنفعل بتوترك هكذا كي لا يلاحظ أحد شيئًا، أم

تريد أن نكمل كلامنا في قسم الشرطة وأنا أظن أنك في حياتك لم تعرف شكل القسم من الداخل، فماذا لو كانت مرتك الأولى على يدي، وأعدك بأنك ستقضي ليلة لن تنساها طوال حياتك.

فقال لي بعدما كاد الخوف أن يصرخ من عينيه:

- أنا تحت أمرك يا باشا.. لن أظهر لـ«سلمى» مرة أخرى، أرجوك اتركني ودعني وشأني.

فاستقبلت كلماته بصمت، ومددت يدي لألتقط هاتفه الموضوع أمامه لأفتتحه بسهوله بعدما وضعته أمام وجهه:

- مشكلتنا يا «مصطفى» أننا لم نتعظ إلا بعد قلم يصفعنا، وربما تكون حينها صفعة قوية نندم عليه طيلة حياتنا.

- أنا آسف وأعتذر منك.

قالها مسرعًا بنبرة غلبها الخوف وأنا أنظر في هاتفه وبيدي أتفقد الصور ومحادثاته حتى وصلت لمحادثة «سلمى» ومسحتها بالكامل ثم ذهبت لإعادة ضبط المصنع للهاتف بعد أن سألته على الرمز، وأعدت الهاتف كما كان جديدًا مرة أخرى، والحسرة تبدو على وجهه من فعلتي، فقلت بعدما وضعت السيجارة في فمي.

- أعرف أن هذا عقاب شديد أن أمسح لك كل شيء، لكن أقنع نفسك أن هاتفك قد سقط منك وحصلت على هاتف جديد، ثم وضعته على الطاولة أمامه وأردفت قائلًا:

- لا أريد أن أراك ثانية إلا ومعك المال، أي سبب غير ذلك أعدك أنني لن أتركك المرة القادمة إلا وأنت وسط

الفئة التي لا تسمع عنها إلا في صفحة الجرائم..

فهز رأسه في رعب موافقًا دون أن ينطق.

نهضت وأنا أقف مكاني وأعدت الكرسي إلى مكانه وقلت وأنا أنظر له بجمود:

- ممتاز يا «مصطفى».

وخرجت من الكافية حتى وصلت على أول قمة الشارع التي كانت تنتظرني «سلمى» في السيارة به، فاعتليت السيارة وجلست بجانبها وعلى وجهها القلق وأنا أعيد إليها هاتفها فقالت بتوتر:

- ماذا حدث؟

أخرجت المسدس من جانبي فحدقت عيناها في فزع، ثم تحولت نظراتها إلى حيرة عندما رأتني أرفع المسدس تجاه السيجارة الموضوعة بفمي وضغطت على الزناد لأشعلها.

لتقول سلمى بصوت خافت:

- مجرد قداحة!!

هززت رأسي وأنا أنظر لها بتفاخر ساحبًا أول أنفاس سيجارتي التي لففتها أثناء جلستي منذ قليل مع «مصطفى» الأبله مبتسمًا بسخرية، لتضحك هي في مكانها غير مصدقة الخدعة التي قد فعلتها ونجحت.

26

«بين الحياة والموت»..

***

الشعور بالذنب مُميت عندما يصاحب الإنسان، يجعله غير راضٍ مهما حدث له، وكان الشعور بالذنب هو عنوان «سارة» التي لا تحب أي شيء يفعله «زياد» معها، فبالنسبة لها مهما فعل هذا لن يغفر الخراب الذي أحله بحياتها، وسلبها أكثر رجل قد أحبته، ارتدت ملابس أنيقة بعض الشيء، لم تضع أيًّا من مساحيق التجميل، إلا بسيطًا جدًا حتى يخفي آثار البكاء والحزن على وجهها، وفي قرارة نفسها قررت أنها ستتحدث مع «زياد» بكل هدوء أن يدعها وشأنها وستعاهده على أنها لن تعود إلى «ياسين» مرة أخرى، إن كان ذلك ما يُخيفه، فالأمر أصبح مُحطمًا بالنسبة لها، تريد فقط أن تبتعد عن كل شيء الآن، فهي لا تحبه، ولا تتقبل نفسها معه، الحل الأمثل هو الانفصال في علاقة كتلك.

استقلت سيارتها حتى وصلت إلى المكان، كانت سيارة «زياد» موجودة بالخارج، فشعرت بالذعر قليلًا، لكنها تتحامل وهي تخبر نفسها بأنها ستنهي كل شيء الليلة، دلفت إلى داخل الكافية، كان جالسًا يدخن سيجارته وأمامه فنجان قهوة يحتسيه وينظر بالهاتف منشغلًا، فاتجهت نحوه، ولم يلاحظ وجودها إلا وهي تسحب المقعد وتجلس أمامه، فأغلق الهاتف وقال:

- متأخرة 15 دقيقة.

ابتسم بسذاجة بعدما قالها، فردت «سارة» بهدوء:

- أنا أتيت فقط لأتحدث معك في أمر ما لا أريد مناقشته بالمنزل.

بدأ يشعر أن ما يشك به كان صحيحًا، هل ستخبره شيئًا عن «ياسين» الآن، فتوقف عن الابتسام وقال وهو يعتدل في جلسته:

- أنا أيضًا أردت أن أخبرك شيئًا مهمًّا، ولكن أولًا أطلب لكِ مشروبًا باردًا أم قهوة؟

- لا شيء..

- سأطلب ليمونًا ليهدئ من روعك، أشعر أنكِ لست على ما يرام..

وأشار بيده للنادل وقال له أن يحضره، ثم عاد بنظراته مرة أخرى إلى «سارة»:

- إذا أنا مسعد لاستماعك الآن.

تملك منها الخوف بعض الشيء، فنظرت حولها ثم قالت:

- ليس الآن، أخبرني أولًا فيما طلبت مقابلتي..

رمقها لثوان ثم بابتسامة اعتلت وجهه:

- لاحظت أنكِ متغيرة منذ بضعة أيام، فأردت أن نذهب سويًّا إلى مكان خارج المنزل ونتناقش إن كان هناك ما يغضبك، في النهاية لا أريد إلا أن أراكِ سعيدة.

ثم مد يده وأخرج علبة صغيرة من جيب المعطف الذي كان يرتديه وقال:

- وأحضرت لكِ هدية صغيرة تليق بكِ يا عزيزتي، ومد يده وهو يزجها إليها على الطاولة..

ثم تنهد وقال بصوت هادئ قليلًا:

- وأردت أن أقول أني أحبك يا «سارة».

فنظرت للعلبة على الطاولة أمامها، ثم أعادت النظر له وقالت في نفسها كل شيء يحدث عكس ترتيباتي دائمًا، وبتردد مدت يدها التي ترتجف قليلًا وأغلقت العلبة وأعادتها إليه مرة أخرى، فرفع حاجبيه والغضب قد بدا على وجهه ونظر لها منتظر ماذا ستقول حتى تحدثت قائله بكلمات مهزوزة:

- أتيت لأخبرك يا «زياد» أنني لا أريد أن أكمل معك، لم أعد أتقبل نفسي معك، الأمر بات بالنسبة لي كأني جثة هامدة، أرجوك طلقني، وأعدك بأن قلقك من أن أعود إلى «ياسين» أضمن لك بأي شيء أنه لن يحدث، فقط أريد أن أبتعد وأكون وحدي..

فثبت بعينيه في عينيها التي تهربت بهما سريعًا بالنظر حولها، ثم قال بنبرة هجومية:

- إن تمنيتِ أي شيء في العالم سأحققه لكِ إلا هذه..

ثم اقترب برأسه وقال بنظرات غاضبة:

- أنتِ لي فقط رغمًا عنكِ، وأعرف ألاعيبك جيدًا أيتها الحمقاء، أعلم أنكِ لم تحبيني لكن ليس يهم حبك من كرهك لي، المهم أنني أمتلكك المهم أنني أحبك ولن أتركك إلا وأنتِ جثة بالفعل لكنك ستكونين جثة هامدة

حينها.

توترت «سارة» بعد كلماته تلك وارتجف جسدها بالكامل في هذه اللحظة التي شعرت بها أنها أمام قاتل لا يعرف الرحمة، وسرعان ما نهضت وخرجت مسرعة من الكافيه، ليقوم خلفها مسرعًا يلاحقها بعدما اعتلت السيارة ووضع يده من نافذتها مسندًا عليها وهو ينظر لوجهها الذي أغرقه الدموع قائلًا:

- إن لم تعودي معي كما كنا في السابق، أعدك بأنني سألقيه لكِ بالسجن.

ثم ضحك وقال بنبرة تهديد تحمل تحذيرًا واضحًا خلف كلماته:

- أتعلمين ما هي سُنة الحياة عجيبة، فاليوم ومنذ ساعات معدودة فقط كنت أمام خزانتي وتلك العقود التي تحمل توقيعاته كانت تغريني الليلة، إن عدت إلى المنزل ولم أركِ بانتظاري.. أعدك بأنك سترينه في جريدة الأخبار غدًا بخبر حبسه، اذهبي.

قالها صائحًا بها وهو يبتعد عن سيارتها، لتنطلق وهي في أعلى مراحل انهيارها، ولا تفكر سوى في شيء واحد فقط بعدما أُغلقت كل الأبواب أمامها، أن تنقذ نفسها وتنقذ العالم من شره.

***

جلس «ياسين» يفكر فيما فعله مع «مصطفى»، كلما تذكر ما حدث يضحك فخورًا بنفسه ومما فعله، فشباب من مثل هذه النوعية لا يستحقون إلا هكذا معاملة من

الأساس، الرجل الذي يقبل على نفسه أن يأخذ أموالًا من فتاة فليس برجل، وعلى كل فتاة أن تعي ذلك، حتى لو كان تحت مسمى الحب، فلا يستحق أن يكون رجلًا، وبدأ من داخله يستعيد شعوره بنفسه مرة أخرى، أخرج هاتفه، وبين صور وذكريات احتفظ بها في ذاكرة الهاتف، ظل يقلب بيده وعينه، يرى مقاطع فيديو سجلها كثيرًا، تكمن النظرية الأعقد في التاريخ، أن كيف للذكريات التي صنعناها بكل الحب، تتحول في لحظة لأكثر الذكريات واللحظات مرارة على قلوبنا، وقف عند صورته وهو بجانب «خالد» كيف كان يحدثه عن أحلامه، كيف كان الشغف يملأه، وكيف أصبح شخصًا مختلفًا الآن تمامًا، عندما يفقد الإنسان ثقته بنفسه، فمن الصعب أن يستعيدها بسهولة، فقرر أن يحدث «خالد» قائلًا بصوت عال..

«اشتقت إليك يا صديقي، اشتقت للحكايات معك ولحظاتنا سويًّا، أتذكر كيف كانت ثقتك بي أعلم أنني لم أكن قدر مسؤوليتها»

ثم ابتسم وهو يمسح لي وجهه المبتسم بالصورة وقال:

«سامحني يا خالد، كل ما حدث طيلة هذه المدة لا أعلم كيف حدث، لكن الليلة شعرت بأنني ما زلت قادرًا على أن أتنفس، رحيلك يا صديقي سيظل العقبة الأكبر في حياتي التي لن أستطيع تجاوزها، لكنني وبكل أسف أدركت أن عليَّ أن أتقبل ذلك، حتى أُكمل ما عاهدتك عليه، فالعالم لن يقف لرحيل أحدهم عنه، لكن عالمي أنا قد توقف يا صديقي، ولكنني أعدك بأنني سأفي بعهدي إليك من الليلة يا خالد».

ثم خرج من معرض الصور الخاص بهاتفه، وفتح برنامج الفيس بوك وكتب في خانة المنشورات

«مهما كانت قوة سقوطك وارتطامك أرضًا، إياك أن تتوقف عن محاولة الوقوف مجددًا».

ثم ضغط على زر النشر وهو يبتسم لأول مرة منذ مدة كبيرة.

***

رحلت مسرعة وقلبها يحترق من شدة الألم، وقسوة هذا المستبد الذي وضعت نفسها بين يديه، الذي أتى إليها في صورة ملاك قبل أن تكتشف أنه الشيطان الحقيقي في روايتها، تقود سيارتها ولا تعلم إلى أين تتجه، أكثر اللحظات التي يتألم بها المرء، حينما يشعر أن جميع الأماكن لا تناسبه، جميع الأشخاص لا تصلح لأن يتحدث معها، حتى الطرق والشوارع تشعر بكآبتها ورفضها لك، تبقى أفكارك في عقلك تنهشك وتسبب لك إزعاجًا قاتلًا لا تعلم كيف التخلص منه سوى بإلقاء نفسك بالنهر ناهيًا حياتك وكل العبث الذي يحدث بها، وفي الأخير يكتفي الإنسان ببكائه الذي لم يعد يجدي نفعًا، وصمته.. فقط يظل صامتًا.

عادت من شرودها بعدما وجدت نفسها على متن طريق تعلمه جيدًا، وفي نفسها قالت:

«لا أعلم ماذا أحضرني هنا.. لكن كلما تذكرت أنك كنت ملجأي الوحيد دائمًا في الماضي يشعر قلبي بأنه قد أضاع وتينه الذي بسببه يظل حيًا، ليت يصبح كل ذلك كابوسًا وأستيقظ منه أجدني بين ذراعيك يا «ياسين»،

ليت الماضي يعود.. ليت هناك فرصة واحدة لإعادة كل شيء كما كان».

انتهت من كلماتها الداخلية التي بدت على عينيها وهي تخرج من سيارتها على استحياء ومتجهة إلى الطابق الذي يحوي شقته، في كل درجة تصعدها يزداد القلق أكثر، منذ آخر مرة لم تستطع إخراج «آسيا» من تفكيرها، ولا تعرف لماذا أتت إليه الآن، لكن أيضًا قلبها لا يعرف غيره، هكذا هو الإنسان يستطيع أن يتخذ كل قراراته بالطريق الذي يمضيه إلا طريقًا واحدًا فقط مهما ابتعد عنه يعيده له قلبه مرة أخرى، فكل الطرق التي اختاراها العقل تسقط أمام الطريق الذي هواه القلب.

تدق بيدها على الباب بتوخي الحذر بعدما صعدت له، في دقتها الثالثة فتح «ياسين» ليفاجئ بوجودها فحدق لها ولعينيها المغروقتين بالدموع، ودون حرف واحد ألقت نفسها في حضنه ليتعجب «ياسين» من وجودها، ويرتجف قلبه من رؤيتها، ولم يجد نفسه يفعل سوى أن يلتف بيده يربت على ظهرها بهدوء، رغم العاصفة التي أحلت داخله الآن، يبقى الإنسان ضعيفًا بشدة أمام من يحبه مهما بلغ من قوة عظمى، لذلك قيل ذات مرة أن نقطة ضعف الرجل قلبه، وما كان أحد غير «سارة» قلب «ياسين»، يربت عليها وفي رأسه تساؤلات ازدادت أكثر.. ليأخذها إلى الداخل، ويحاول استفهام الأمر حتى بدأ بكاؤها في أن يهدأ قليلًا، وعقل «ياسين» منشغل، بعد ثلاثة أعوام يا «سارة» تذكرتي أن تلجأي إلى عناقي الآن وفي نفسه قال:

- ماذا بك.. ماذا حدث.. ومن أين أنتِ آتية منهارة

هكذا؟

لكنه لم يقل بصوت عالٍ سوى:

- لماذا تبكين؟

دائمًا ما يقول الإنسان عكس ما يرغب في نطقه من داخله.

فردت «سارة» بصوت مبحوح وهي ممسكة به لا تريد أن تبتعد عنه:

- على كل شيء..

ثم تنهدت وأردفت:

- على خسارتك، على خسارة نفسي، على خسارة حياتنا، على كل شيء.

سحب شهيقًا وهو يتأمل كلماتها من بين بكائها وصوته الداخلي يقول:

أأتيت لتتذكري الآن، أين كنتِ عندما جفت دموع قلبي من الانفطار عليكِ، قرارك بالاختفاء دمر كل شيء، والآن استوعبتِ حجم الخسائر التي أحدثتها!

لكنه قال عكس ما يدور في رأسه:

- وماذا حدث ليذكرك بكل هذا.. بعد كل هذه الأعوام؟

أحيانًا على الفرد منا ألا ينطق بحقيقة ما يريد أن يقول، حتى يتلاشى موقف يعلم جيدًا أنه لو نطق بالحقيقة فيه سيسوء الأمر، فلم ترد «سارة» على ما قاله، وصمت

«ياسين» مقابلها، الاثنان شاردان في أمرهما، يتذكران كل شيء، وكيف أن الأوضاع بينهما تبدلت هكذا، الشخص الذي كان موطنك أصبح الغربة بعينها، فنظر لها «ياسين» وبدأ في أن يتأثر لحالها، لكنه أصبح يدرك أن هو و«سارة» قد تحطم كل شيء بينهما ولا مجال للعودة، حتى وإن غلبنا الحنين لأشخاص عشقتهم قلوبنا، فهجرهم لنا كان عقابًا قاسيًا على ذنب لم نرتكبه، عقابًا جعلنا لم نعد نشعر بشيء، فنظرت «سارة» له وقالت وهي تمد يدها تضعها على يده:

- «ياسين»..

ثم شهقت وأخرجت زفيرًا كمن يلتقط أنفاسه وقالت بتوسل:

- لماذا لا نعود مرة أخرى، أرجوك هيا نعد ونهاجر من هنا، وكأن شيئًا لم يكن، لنعتبره كابوسًا وانتهى..

نبدأ حياة جديدة بعيد عن هنا وكل الماضي الأليم.

بهذه البساطة حقًّا! تدمرت حياتي بسببك وتقولينها بكل بساطة هكذا، يا لوقاحة الإنسان، عندما لا يشعر بجرم ما ارتكبه!

ثم قال لها عكس ما صاح به داخله كعادته في جلستهم هذه:

- أأنت مصدقه لما تقولينه؟

- سأخبرك بكل شيء حدث بالماضي يا «ياسين» عندما نفعل ذلك..

- حتى إنني لم يعد لدي الرغبة في معرفة ما حدث بالماضي يا «سارة»..

ثم تنهد وقال وهو ينظر بعيدًا عنها نحو الشرفة:

- لم أعد أريدك يا «سارة»، اذهبي من هنا، اذهبي إلى حيث ما أتيتِ منه.

فربتت على يده متوسلة له، ليسحب يده وينهض من مكانه تاركًا إياها، ويدخل إلى غرفته غالقًا الباب في وجهها، لتُصدم «سارة» من هول ما وصل له «ياسين» وهي تنهض تاركة له الشقة وراحلة كما قال.

في صدمة استوعبت أنها من سببتها، فما أصعب أن يصبح من كان وجوده ينقذ الأمر داخلك، هو سبب غرقك به الآن.

***

27

«على الإنسان أحيانًا أن يسير دروبًا ما كان يريدها.. ولكنها الحياة».

***

بعدما أغلقت الباب في وجهها، تأملت الفراغ أمامي للحظات، في هذا الفعل الذي قمت به معها الآن ويتساءل عقلي هل أنا بالواقع أم أنني أحلم، هل أنا رفضت «سارة» بمحض إرادتي حقًا، ولم تعد بداخلي الرغبة لمعرفة كل شيء يخصها، فكيف لذاك الشخص الذي بغيابه تسبب بتعثري وحزني وكآبتي أن أرفضه بعد حضوره، كيف لشخص تمنيت لأكثر من عامين أن يعود معي مرة أخرى أقول له لا أريدك الآن، فوجئت من نفسي في هذه اللحظة من شرودي وما زلت متصلبًا في مكاني خلف باب شقتي، فسبحان من يجعل المرء في عينيك عاديًا بعدما كان مبهرًا مميزًا ولا يلمع عينيك سواه.

لو كان بإرادتي ما تمنيت أن نصل إلى هنا يا «سارة» ولكنكِ لم تتركي لي خيارًا آخر، وبعد ماذا أتيتِ طالبة إصلاح كل الخراب الذي تسببتِ به، وتذكرت في مخيلتي كلماتي لـ«خالد» ذات يوم.. عندما قلت له:

«إن الإنسان الذي لا يقوى على التأقلم فهو من اختار بنفسه أن يكون ضعيفًا، ولأن لا شيء مضمونًا في الحياة، ولأن التعلق هو سبب جرح قلب كل إنسان، فحزنك أمر طبيعي لرحيل أحدهم، لكن رغم إدراك المرء أحيانًا أن البكاء لن يُجدي نفعًا، الشكوى، الاستسلام، العودة عن

الطريق، الاعتراض، حزنه وكآبته.. رغم إدراكه أن كلها أشياء لن تجدي نفعًا، ويعرف جيدًا أن القوة والثبات هما الحل لمواجهة الحياة، لكنه في بعض الأوقات يبقى ضعيفًا، هشًا ويائسًا..

وليس كل ما يدركه المرء يستطيع تطبيقه والتعايش به دائمًا، فالضعف من حقيقة كوننا بشرًا.. الخوف، القلق، شعورك بالرغبة في الانهيار أحيانًا.. كلها مشاعر لا يستطيع المرء الفرار منها..

فمهما بلغ ثبات الفرد منّا، يبقى في بعض الأوقات مترددًا داخل نفسه، مهما بلغت قوته هناك اللحظة التي يغلبه الضعف بها، وحتى في أشد الأوقات التي يثق بها أنه قادر على مواجهة الحياة، لا يسلم أبدًا من لحظات الإحباط التي تشعره بأنه عاجز على المضي قدمًا..

ويكون الشيء المؤكد الوحيد أن الأمر ليس في شعورك بالضعف أو رغبتك في الانهيار والاستسلام؛ إنما في يقينك بأنها أيامًا ثقيلة وستمضي.

فليس هناك شخص بالقوة التي تجعله لا يؤثر به شيء، لكن إدراكك لهذا الأمر يجعلك حتى لا تقاوم الأوقات التي ينهشك اليأس والحزن بها، وإنما فقط تدعها تمضي، تمضي بتصالحك معها وليست بمقاومتها لأنك على دراية كافية أنها ليست حقيقتك؛ وإنما مجرد مشاعر عابرة، وحتمًا ستعود لحقيقتك مرة أخرى.

حقيقتك التي اخترتها بإرادتك أنك ذلك الشخص القوي الذي يعلم أن شعوره بالضعف مجرد لحظات عابرة،

فيحدث ذلك وتعبر بالفعل لإيمانك بهذا الأمر.. لكن من يسمح للحظات ضعفه بابتلاعه.. فمن الطبيعي أن يعتقد بأنه شخص ضعيف لا يقوى على شيء.

وكان خطأي الذي ارتكبته هو حينما سمحت لضعفي بأن يبتلعني طيلة هذه الفترة، وربما الصواب الوحيد الذي أفعله الآن هو اعترافي بما اقترفت في حق نفسي وحق من حولي، ولأول مرة أشعر أنني ما زلت قادرًا.. ما زلت أتنفس، فقد جاءت كلماتي لـ«خالد» وكأنها رسالة منه يلهمني بها مبتسمًا، أشعر بوجودك يا رفيق قلبي دائمًا، ابتسمت ابتسامة نابعة من داخلي وربما هي أكثر لحظة شعرت بها أنني حي منذ عامين وأكثر، ففتحت هاتفي وخرجت إلى شرفتي أتنفس هوائها الطلق، ونظرت إلى السماء بعينٍ دامعة وقلت هامسًا:

«أعلم أنك معي ولن تتركني للضياع يا الله».

ثم شهقت وكأنني لأول مرة أستنشق نفسًا نقيًا من اليأس الذي كان يسكنني، أعدت النظر إلى هاتفي مرة أخرى، وفي خانة الاتصال كان اسم «سلمى» بأول القائمة، لأتصل بها دون تردد وبعد لحظات استجابت فسحبت زفيرًا وقلت لها بخجل:

- «سلمى»..

ثم أطلقت شهيقًا يدل على ارتياحي قليلًا وأردفت:

- «سارة».. كانت هنا.

- وماذا حدث؟

قالتها بقلق، فقلت بنبرة فخر بدت على صوتي:

- رفضتها يا «سلمى» لم أعد أريدها، لقد تحررت، لأول مرة أشعر بنفسي منذ وقت طويل..

فشعرت بالبهجة في صوتها حينما قالت:

- اشتقت لك ولهذا الشخص بداخلك يا «ياسيين» أخيرًا قد عدت..

فضحكت بتلقائية طفل صغير وقلت بنبرة أهدأ:

- لكن هناك الكثير أريد أن أصلحه يا «سلمى» وليس الأمر يكتفي على رفضي لها فقط.

فردت مسرعة بلهفة:

- سآتي لك في الغد ونعيد ترتيب كل ما تريده، لا تنس أنك كاتب عظيم.. وجمهورك ينتظرك يا عزيزي

- قبل الجمهور والكتابة ونفسي، هناك الأهم بالنسبة لي يا «سلمى»..

ثم صمت لوهلة، وأكملت بتردد:

- «آسيا».. أريد أن أرى آسيا.

- سأذهب لها مرة أخرى.

فقاطعتها قائلًا بحسم:

- لا هذه المرة سأذهب معك، سأنتظرك غدًا كي نذهب لها سويًّا.

- سأنتظر أن يأتي غدًا بفارغ الصبر يا «ياسين».

- وأنا كذلك.

ثم وهي تداعبني قالت:

- أحبك كثيرًا.

فرددت بحرارة وأنا أبتسم:

- أعلم هذا.. وأنا كمان أحبك يا صديقتي.

انتهت المكالمة وجاءت «آسيا» في خاطري وما حدث مني في المرة الأخيرة، وبدأ الخوف يتسلل داخلي فهي لا تراني سوى أسوأ شخص في حياتها قد عرفته الآن.

***

بعد منتصف الليل..

ارتدت «سارة» أجمل فساتينها أنوثة وأناقة، ووضعت مساحيق التجميل التي زادتها جاذبية وإثارة، وبأيديها استطاعت أن تُخفي كل آثار التجاعيد التي سببها حزنها الذي هم عليها قبل قليل، بعدما قد أعدت سفرة بها أشهى الطعام، وكأنها فتاة أخرى غير التي هددها «زياد» منذ ساعات، ورفضها أكثر شخص قد أحبته في حياتها، تنتظر وتفكر في كيف سيكون مصيرها بعد الساعات القادمة..

أن تصير قاتلًا، يا له من أمر صعب صورته أفلام السينما والدراما التلفزيونية بأنه شيء أسهل من مرور الطريق، أخرجت سجائرها وأشعلت واحدة، تداعب خصلات شعرها بيدها، تنظر إلى قدميها العاريتين من الفستان، تعلم جيدًا أنها في أكثر هيئة يحبها هذا الرجل، ولكن ما أقبح اللحظة التي تشعر بها أنك شخص رخيص، تفرك في رأسها

وهي تخرج أنفاس سيجارتها وليس في عقلها سوى تلك الكلمات التي قالها «ياسين» منذ قليل من الوقت، تتذكر كل شيء حدث بينهما منذ ظهرت مرة أخرى في حياته بعد اختفائها الطويل، فتحت حسابه الشخصي على هاتفها، ترى نصوصه، تتمعن صوره وملامحه، صورهما معًا، روايته التي وقع لها عليها كاتبًا لها..

«إلى رفيقة طريقي والعمر حتى النهاية»..

تبكي حتى تساقطت دموعها لتبتل الجملة بها على تلك الجملة التي كتبت بكل الحبِّ لها يومًا ما، تبكي وكأنها أرادت أن تستعيد في ذاكرتها كل شيء لتودعه الوداع الأخير، ليس كل إنسان يملك فرصة كهذه، فرصة وداع كل شيء يحبه قبل أن يرحل، أخرجت آخر أنفاس سيجارتها مع شعورها بوصول «زياد» فقامت مسرعة كي تمسح دموعها وتعدل من مظهرها حتى لا يلاحظ شيئًا، فلا تريد الآن سوى أن يسير كل شيء كما قد خططت، كانت في غرفتها عندما دلف «زياد» إلى الشقة، ولوهلة وقف أمام الشموع، التي تُزين السفرة بإضاءتها الخافتة، وأثار إعجابه ذلك المشهد الرومانسي الذي لم يره في شقته منذ أن تعرف على «سارة»، فشعر بكم من السعادة الممتزجة بالحسرة أيضًا لأن كان بإمكانها أن تعيشه في أكثر من ذلك لكنها لم تفعل، فأحيانًا بسبب الحب فقط نقوم بأفعالٍ لولا حبنا لهذا الشخص ما كنا فكرنا في القيام به من الأساس، ويعلم جيدًا أنها لم تحبه طيلة هذه الفترة، لكن ماذا حدث وتغير الليلة..

قطعت «سارة» أحبال شروده بخروجها من الغرفة

واضعة ابتسامة متجملة على وجهها، ليكتمل انبهاره عندما رآها بفستانها الأحمر، وخصلات شعرها التي صففتها بطريقة خطفت أنظاره، وملامحها الهادئة التي وكأنه لأول مرة يراها، حتى اقتربت منه فاستنشق رائحتها الأنثوية التي أثارته بقوة ليضع يده حول خصرها ويضمها تجاهه بقوة حتى التصق بها وهو يتنفسها أكثر من رقبتها قائلًا:

- أنا في حلم وما زلت خارج المنزل أم ماذا؟

لتبتعد «سارة» قليلًا وتنظر في عينيه..

- ليس حلمًا بل حقيقة نعيشها..

فازدادت جمالًا أكثر في عينيه، ليضغط على خصرها، فأعادت يده برفق إلى مكانها قائلة بنبرة حانية:

- ليس الآن الليلة أمامنا طويلة..

فابتسم «زياد» وقال بمرح وهو يرمقها بنهم:

- حقًا..

لتسحبه من يده وتجلسه على مقعد السفرة، وهو ينظر لها بتعجب وعن هذه المسالمة التي هي بها، فقال بحذر:

- أكل شيء على ما يرام حقًا.؟

نظرت له وهزت رأسها مبتسمه، فقال بتساؤل:

- وما الذي غير موقفك من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين هكذا، الأمر يبدو وكأنه سحر.. ولو كان سحر ما كان سيأتي بذلك التأثير الكبير.

فقالت وهي تعد الطعام له:

- فكرت في الأمر، رأيت أنني أخسر حياتي وأيامي دون فائدة، دون أن أعيش، صراعات لا نهاية لها، فالماضي هو الماضي لا نستطيع تغييره، لذلك قررت التصالح مع الموقف وتقبل الواقع، والرجل الذي أنا امرأته الآن.

فابتسم ببلاهة غير مصدق لما يسمعه، فقال وهو يضحك:

- أتعلمين هذا هو الحل الأمثل في كلماتك، إن كان هذا ما حدث معكِ بالفعل..

لكن الشكوك داخله لم ترحه، حتى انتهت من تجهيزاتها وأعدت كل شيء وجلست أمامه، فأراد أن يصل لها رسالة على طريقة المزاح:

- الأمر يشبه بمن وضعت السم لزوجها في الأفلام العربية وتريد الانتقام بأبهى طلاتها ههه.

وقهقه ضاحكًا وهو ينظر لها بترقب، ففهمت «سارة» مقصده وشعرت بالقلق بعض الشيء، ثم وجهت نظراتها إليه وقالت:

- هذه الشكوك من حقك أن تبدر منك لما رأيته مني خلال الفترة الماضية.

ثم اقتربت من الطبق الموضوع أمامه ومدت يدها به ثم بدأت في تناول الطعام ليضع يده فوق يدها برفق وقال:

- «سارة» أنا أثق بكِ وأُحبك، الأمر غريب لم أتوقعه فقط ليس أكثر، ولكن في داخله اطمأنت شكوكه بعدما تناولت من أمامه..

ثم بدأ معها في أن يتناول معها، وهو يرمقها بابتسامة

خفيفة اعتلت وجهه، وأيضًا نظرات رغبته بالتهامها كانت واضحة، فمنذ فترة لم يكونا سويًّا في فراش واحد، ثم قال:

- أول مرة أكتشف أنك بهذا الجمال والدلال بطريقة تُسكر العقل، رجاءً اجعلينا نتعاهد على أن تكون حياتنا فيما هو قادم أفضل من كل الوقت الذي مضى.

فابتسمت وقالت بصوت خافت:

- أعدك يا «زياد» فأنت رجل قوي وعليّ أن أقدر قيمتك بعد الليلة.

كانت تنتقم من نفسها بالكلمات، أم تقولها لمرور الموقف هي لا تعلم، لكنها ذهبت لتحضر المشروب المثلج الذي أعدته..

وفي المطبخ تفكر كيف تفعلها، لكن بأقل من ثانية تراجعت بيدها التي ترتعش من هول الموقف ثم أخرجت قطارة أخرى غير التي كانت في يدها ووضعت منها نقطتين في كوب واحد التي اتخذته لنفسها ثم خرجت.

شعرت بالشك في عين «زياد» حينما كانت تمد له يدها كي يتناول منها الكوب الخاص به، ثم نهضت من مقعدها بعدما جلست ورأت نظراته دون أن ينطق بحرف واحد وقامت بتبديل الأكواب ووضعت أمامه ما كان أمامها ليرتاح ويضحك، ويقول في اعتقاد منه أنه يصلح الموقف:

- متأثرة أنت بالدراما يا «سارة» لم أقصد شيئًا حقًّا.

فقالت وهي تومئ رأسها:

- أعلم لكن كي تطمئن أكثر.

فقال وهو يرتشف آخر ما تبقى بالكوب:

- أنا أعلم طيبة قلبك يا «سارة» لا تقدرين على فعل شيء كهذا، أعتذر منكِ إن تفهمتِ الأمر خطأ لكني أعدك إني من الليلة سأصلح كل شيء، وقال وهو يقترب بعدما مد يده وامسك يدها ليُقبلها برفق:

- أتعلمين كم اشتقت إليكِ..

فابتسمت وعيناها تنظر له، فأردف وهو يتغزل بعينها بعدما نهض من مكانه:

- سأنتظرك في غرفتنا لنجعلها ليلة عنوانها التعاهد على إصلاح كل شيء.

لتومئ رأسها بالموافقة قائلة:

- سآتي خلفك..

ليدير لها ظهره ومن ثم تشعر بأن جسدها بالكامل يحترق، لأنها لم تقوَ على فعل ما خططت له ولأنها تعلم نفسها جيدًا فأحضرت منومًا مع السم حتى إن تراجعت يكون لها بديلًا عن إلهائها لتفعل ما خططت له.. لكن لا بديل عن ما يدور في راسها الآن، وذهبت خلفه إلى الغرفة.. لتقضي الليلة الأخيرة معه بالنسبة لها.

***

في العاشرة صباحًا..

يدق باب الشقة، دقات عالية متعجلة، هذا يصنف بالنسبة لبعض الناس الذي يبدأ يومهم بعد الظهيرة إزعاجًا

رسميًّا، أحدث ضجيج الدقات العادية استيقاظًا قلقًا ومفزعا لـ«ياسين»، ففتح عينيه بصعوبة بالغة وهو ينظر في الساعة أمامه وقال محدثًا نفسه وهو يتأفف:

- اللعنة عليك يا «سلمى».. أخذتِ الأمر على محمل الجد إلى هذه الدرجة!

لم تتوقف الدقات السريعة، ورنات الجرس، فتحرك مثقلًا نحو الباب وهو يلعنها في سره، ثم فتح الباب بعدما صاح بصوته:

- أنتِ جننتِ أيتها..

وتوقف عن إكمال جملته مصدومًا بعد رؤيته لمن يدق الباب بهذه القوة بعدما تفاجئ بأنها «سارة»..

فثبت نظراته عليها باستعجاب شديد، وهي لم تحرك ساكنًا في مكانها ثم بعدما نظرت له، مدت يدها في حقيبتها وأخرجت منه مظروفًا بلاستيكيًّا شفافًا بداخلة بعض الأوراق، فقالت وهي تمد يدها به إليه قائلة بنبرة ندم:

- من اليوم.. أنت حر.

قبل ساعتين

استيقظت «سارة» بخفة من جانبة، تعلم أن مفعول المنوم سيدوم على الأقل لاثنتي عشرة ساعة فما أمامها وقت لتضيعه، نهضت وارتدت ملابسها التي كانت أعدتها من الأمس، وعثرت على مفاتيحه الخاصة من معطفه، ثم وبخفة الظل خرجت من البيت واتجهت نحو دار النشر التي يحوي مكتبه بصفته مديرها، قادت سيارتها حتى

وصلت إلى هناك، ووضعت على وجهها ابتسامة مصطنعة بعدما دلفت إلى الشركة ليرحب بها العاملون الذي يعرفونها بأنها امرأة مديرهم، ثم صعدت إلى الأعلى لتواجهها سكرتيرة المكتب الخاصة قائلة:

- مرحبًا مدام «سارة».. أكل شيء على ما يرام؟

- مرحبا بكِ كيف حالك، نعم كل شيء على ما يرام، أنا فقط أتيت لـ«زياد» من أجل شيء ما..

فتعجبت السكرتيرة وقالت:

- لكن أستاذ «زياد» لم يأتِ حتى الآن.

فتصنعت «سارة» المفاجأة وقالت:

- كيف لقد أخبرني أنه هنا منذ الأمس لقيامه ببعض الأعمال..

فقلقت السكرتيرة من كلماتها وقالت:

- أعتذر منك مدام «سارة» لكنه عاد إلى منزلكم بالأمس ولم يبقَ أحد هنا للمبيت!

فقالت بزمجرة وكأنها غاضبة:

- هذا يعني صحة تلك الرسالة التي جاءت إليَّ.

ففهمت السكرتيرة أن هناك أمورًا خاصَّة بينهم ربما تصل للشكوك في الخيانة، فرمقتها «سارة» بعدوانية وأردفت:

- حسنا سأنتظره بالداخل ولا أريد أن تخبريه بأنني هنا..

فأومأت برأسها وقالت:

- حسنًا سيدتي.

ودلفت «سارة» إلى داخل المكتب وأغلقت الباب خلفها بعدما أخرجت زفيرًا كمن كان يفعل مهمة شاقة وأتمها بصعوبة، في حين قالت السكرتيرة في نفسها ببلاهة:

- إنه الحب وحده من يجعل الزوجة تشعر بخيانة زوجها لها عندما يحدث ذلك، ولا تخطئ المرأة في إحساسها.

ثم هزت رأسها مقتنعة بحكمتها التي أصدرتها، وفتحت هاتفها لتعود منشغلة به، وفي الداخل تفكر «سارة» فيما تريد فعله، حتى وصلت إلى الخزنة بعدما فتحتها بالمفتاح، أملها الوحيد أن يكون الرقم السري كما هو لم يتغير، فقد جعل عيد ميلادها هو الرقم السري خاصته، وكان هذا هو أملها الوحيد ضغطت على كل رقم ببطء شديد وتوتر يزداد حتى وصلت إلى الرقم الأخير.. وبالفعل فتحت أمامها الخزنة، فتنفست الصعداء وقالت في نفسها بصوت واضح:

- لم تتعلم كيف تحذر من غضب امرأة يا «زياد»، والآن حان دوري في أن أوجه لك صفعة على كل ما فعلته خلال الأعوام الماضية، أمسكت الأوراق في يدها لم تأخذ سوى العقود الذي تحمل اسم «ياسين» والوصولات التي تحمل توقيعه ووضعتها بحقيبتها ورحلت بعدما أعادت كل شيء إلى مكانه.. ورمقت السكرتيرة أثناء خروجها من المكتب قائلة بنبرة حادة:

- لقد علمت أين هو..

فهزت السكرتيرة رأسها بالموافقة وقالت وهي تبتسم

بسذاجة:

- وقع بفعلته في يدها.

***

28

«على حـافـة الانهيار».

***

جالسين على طاولته الصغيرة بالصالة، ينظر لها «ياسين» باستعجاب شديد وتضارب في كل مشاعره بعدما استمع لما فعلته وسردته إليه، وذلك الأمر الغير متوقع، وفي نفسه قال:

«كتب عليَّ أن تكوني أنتِ مصيري الذي لا أستطيع التخلص منه، حتى عندما قررت نسيان كل ما مضى في الماضي، فقرر الماضي هو من يتذكرني».

ثم قال بصوت مسموع وهو يتحسس الأوراق بيده:

- لكنني قررت أن أكون حرًّا دون أن ألجأ لسرقة هذه الأوراق..

فلم تفهم «سارة» ما يقوله فقالت متسائلة:

- ماذا تقصد؟

فتنهد وهو يقول:

- أقصد أنني قررت أن أكون حرًا بتنفيذ ما في هذه الأوراق، وأعود للكتابة مرة أخرى.. فالكتابة فقط كانت وستظل دائمًا من تجعلني حرًا..

صمت لهنيهة ثم استطرد بقية كلماته:

- أم كل هذه الفترة التي ابتعدتِ بها قد أنسيتك من أنا..

فابتسمت ببلاهة وهي تنظر أمامها ثم أخرجت سيجارة وأشعلتها وقالت:

- حينما يجازف الإنسان بكل شيء، يربح كل شيء أو يخسر كل شيء.

فقال «ياسين»:

- لا أفهم شيئًا..

- ليس من المهم أن تفهم، لكن الأهم أن تعي أن تلك فرصة نجاتك الوحيدة من قبضة «زياد» وما كان ينتوي فعله بك.

أليس كان ذلك شرطه أن أعود للكتابة! حسنًا سأعود إذا كان هذا كل شيء.

فابتسمت نصف ابتسامة وقالت وهي تسحب نفسًا آخر من سيجارتها:

- يبقى الإنسان أبله لا يعرف شيء..

فصمت «ياسين» وهو يحاول فهم ما تريد إيصاله له، لتردف «سارة»:

- «زياد» قرر سجنك على أي حال..

- لا تقلقي لن يحدث..

- بل سيحدث أيها الأبله سيحدث أتعرف لماذا لأنه أيقن أنني عدت إليك، وقال لي أنه سيؤدي إلى الهلاك كل من يقترب مني أو أي سبب قد يجعلني أضيع من يده،

ثم ابتلعت لعابها بخوف وقالت بصوت ارتجف قليلًا:

- مثلما فعل بالضبط مع صديقك «خالد»..

لتقع الكلمة على أُذني «ياسين» كالصاعقة ويستوقف مكانه قائلًا بصدمة:

- خالد!

ازداد توترها بعدما استوعبت أنها على أعتاب كشف سر جاهدت لإخفائه أعوامًا:

- نعم «خالد».. خالد صديقك لم تكون ميتة مجرد حادث من القدر، بل كانت من فعل قد خُطط له.

ليصفعها على وجهها بمفاجأة:

- ماذا تقوليين أيتها الوقحة؟

تلقت الصفعة ولم تحرك ساكنًا بعدما بدا أمامها ياسين في حالة عارمة من الألم والانهيار:

- هذه هي الحقيقة التي اختفيت كل هذه المدة بسببها..

ثم أردفت والدموع بدأت أن تملأ عينيها:

- من أجل إنقاذك فقط، لست وحدك المضحي في هذه العلاقة فأنا أيضًا كنت ضحية مثلك لكن سذاجتك لم تجعلك ترى غير نفسك، صدقني يا «ياسين» هذه الأوراق هي خلاصك من يده.

- خالد.. خالد!

قالها «ياسين» ليس مستوعبًا لما سمعه، لتتركه «سارة» وترحل في حال يرثى لها أيضًا في حين بدا «ياسين» أن

يصيح بصوت مبحوح..

- سأقتلك، أقسم أنني سأقتلك يا «زياد»

***

وصلت «سلمى» في الرابعة عصرًا، وجهها مُضيء كالشمس، وابتسامتها تعتلي وجهها، مشاعرها سعيدة لاستفاقة «ياسين» أخيرًا بعد كل هذه الغيبة، وفي خيالها ترى «ياسين» القديم التي كانت تعرفه، الرجل الحالم والطموح، تتذكره وهو يتكلم عن أحلامه بشغف طفل لم تنسه حتى الآن، واتخذت طريقها إلى أن صعدت لتبدأ الابتسامة تزول من على وجهها حينما وصلت إلى باب شقته لتدقه فوجدته غير مغلق بإحكام، لتدفعه بقلق اجتاحها وهي تقول بهدوء:

- «ياسين» لقد نسيت الباب..

ولم تكمل كلماتها لأنها وجدته متكومًا في نفسه بجانب الأريكة بالصالة لتركض نحوه مسرعة وتغلق الباب بقوة وراءها، وهي تصييح بهلع:

- «ياسين» ماذا هناك، ماذا حدث، ولماذا أنت جالس وتبكي هكذا!!

صامتًا في مكانه، لكن عيناه كأنها ذبلت من البكاء لسواد جفونه، جالس وهو ملتف بيديه حول قدمه أرضًا، ويحدق لها دون أن ينطق، القلق ازداد في عينيها، والأفكار بدت في أن تنهش عقلها، وهي تتساءل كيف هذا الشخص هو الذي حدّثها بالأمس أم تلك المكالمة بالأمس كانت وهمًا منها لا أكثر، لم تعد متأكدة من

شيء، فثارت الشكوك داخلها تجاهه وتجاه نفسها، فوضعت يدها على كتفيه وهي تقول وتدفعه في محاولة لإنهاضه:

- ماذا حدث «ياسين»، أرجوك لا تبقَ صامتًا هكذا، فالشك يقتلني.. أهناك شيء حدث لـ«سارة»، لـ«آسيا»، لأمك أو إخوتك، ماذا هناك..؟

ما زال يرمقها بصمت، وخلفها صورته مع «خالد» الموضوعة أعلى الكومود فارتكز بعينيه على ابتسامته حتى بدأت عيناه تتكون بداخلها الدموع مرة أخرى، وهو ثابت النظر على صورتهما معًا، فالتفت «سلمى» برأسها لترى إلى ماذا ينظر فوجدت «خالد»، لتقول وهي تشعر بالأسى..

- هو في المكان الأفضل من الدنيا بأكملها الآن يا «ياسين» لماذا تُصر على إعادة نفسك لنقطة الصفر..

- ما حدث قد حدث يا عزيزي..

فقال بصوت متحشرج:

- كان من الممكن أن يبقى هنا..

- لا تدع لهمسات الشيطان أن تعيدك للخلف..

يستمع لكلماتها، وما زال ثابتًا بنظره على «خالد» وهو يقول:

- كان من الممكن أن يكون هنا..

فربتت «سلمى» على كتفيه وفي عينيها تشعر بالحزن على هذا المسكين، ولكنها قالت لنفسها أنها لن تدعه ينتكس مرة أخرى فصاحت به:

- لتفيق من ذلك الحزن يا «ياسين»، يكفي كل ما مضى من حزنك واعتراضك، لقد رحل صديقك ولن يعود مرة أخرى عليك أن تعي أن تلك هي إرادة الله..

فنظر لها بنظرات جامدة، وكأنه لم يتأثر بشيء مما قالت، فأردفت هي:

- لا تدعني أتفوه بكلمات لا أريد أن أقولها، يكفي الحزن على ما قد مضى..

صديقك لم يعد هنا، علينا أن نتقبل أمر وفاته..

فقال وهو يرمقها بنظرة غاضبة:

- قصدك أنه قتل.

فارتجفت «سلمى» أمامه وقالت:

- ماذا تقول؟

- أقول ما علمته قبل مجيئك بلحظات..

أقول ما تعايشت كل الأعوام الماضية لا أعرف عنه شيئًا، وإن صديقي دفع ثمن شيء لم يرتكبه، أقول أنني كنت سبب في وفاة أقرب صديق إلى قلبي.

- ياسين أأنت بخير، أم تلك أشياء من هلاوس عقلك..

فقال دون أن ينظر لها:

- كانت سارة هنا قبل ساعات.. جاءت لتكون كعادة ظهورها في حياتي، تحطم الأمور دائمًا، وجاءت لتعطيني تلك العقود، وعندما قلت لها إنني سألتزم بكتابة الروايات..

شهق وبنبرة غير مصدقة قال:

- أخبرتني أن «زياد» لن يتركني لأنني أصبحت أشكل خطرًا عليه..

فقالت بتعجب:

- خطرًا في ماذا؟

فنظر لها غير مصدق لما يقوله:

- بأنني سآخذ «سارة» منه!

ففتحت عيناها محدقة وغير مصدقة :

- «سااارة».. سارة مع زياد؟

ثم تنهدت وقالت وما علاقة وفاة «خالد» بذلك الأمر؟

نظر لها «ياسين» وأردف بنبرة مختنقه:

- أخبرتني أن «زياد» هو من قتله لأنه رآهما سويًّا، في ذاك اليوم الذي أخبرني «خالد» بأنه يريد أن يقول لي شيئًا لكنني لم أدع له فرصة الكلام حينها..

وبعد أكثر من عامين عرفت السر الذي أراد أن يخبرني به «خالد» وقد قُتل لأنه عرفه.. قالت لي أن ميتته لم تكن قضاء وقدر ولكنها كانت بفعل فاعل.

ثم أخرج زفيرًا طويلًا وقال:

- «زياد» قتل صديقي يا «سلمى»..

وبدأ في البكاء وأنفاسه تتقطع في صعوبة لالتقاطها:

- قتل صديقي وسرق حياتي.. أقسم أنني لن أدعه، لن أتركك يا «زياد»..

قالها صائحًا بغضب اجتاح أرجاءه و«سلمى» تبكي واضعة يدها على فمها من هول صدمة ما عرفت، ولكن في اللحظة ذاتها كانت نظرة عيناه تمهد للحرب، حرب انتحارية لا عودة منها إلا محملًا على الأكتاف.

عزيزي القارئ، إن كنت تقرأ هذا الكتاب من موقع إلكتروني أو على شكل كتاب مطبوع، فتأكد من أنك تقرأ كتاب مسروق وليس لمن أخذه الحق في ذلك، وهذه النسخة مجانية بشكل كامل على قناة ضَـاد في تطبيق تيليجرام. فتأكد من أنك مشترك فالقناة وتحمل الكتاب منها. أعتذر على المقاطعة، قراءة ممتعة.

29

«لا تتهرب من مواجهة مصيرك فربما تلك الطريقة الوحيدة للتخلص من آلامك».

***

وصلت «سارة» إلى منزلها، وفي عينيها رغبة التشبع من الانتقام، تبتسم بشموخ، وشجاعة، الآن أصبحت تستطيع الرحيل للابد، فمن كان يقلقها وتخاف عليه من الأذى أصبح في موضع آمن الآن، لكنها اختارت أن لا تتهرب من المشهد الأخير بل أصرت على تصدر بطولته، وقررت الذهاب إلى الرجل الذي امتلكها طيلة هذه الفترة، يدور في رأسها لو أن استطاعت قتله ما كان سيشعر بالحسرة الذي سيشعر بها الآن، فالموت كان سيرحمه من مرارة الشعور، لذلك ما فعلته كان أكثر ألمًا وقهراً بالنسبة له، ولم تعد تخشى شيئًا، تسير بخطوات ثابتة، رافعة رأسها منتصرة، وتنتظر لحظة المواجهة والاعتراف بما فعلته ومن ثم تهجره إلى الأبد، دلفت إلى داخل المنزل، حتى استمعت فجأة لصوت ارتطام شيء ما فوق رأسها استوعبت أنها ضربة قوية قد تلقتها لتسقط أرضًا فاقدة الوعي تمامًا.

أمام قبر خالد يقف لأول مرة وهو يعي أن صديقه ليس هنا كما كان يُخيل له في كل مرة يزوره بها، اليأس يأكل قلبه، يبكي في صمت، يتذكر لحظاتهم سويًا، ولا يعرف ماذا يقول، فتحدث بصوت متقطع:

- لماذا يا «خالد»؟

أكمل بصوت يخرج بصعوبة:

- لماذا لم تتركنا الحياة في حالنا، لماذا كلما أرادنا التقدم للأمام يحدث ما يعيقنا ويرجعنا للخلف، لماذا كل شيء يسير عكس رغبتنا؟

أعلم أن الغيرة والحقد هما السبب للكراهية بين البشر، ولكن لم أتوقع أن تكون الكراهية بهكذا طريقة، تسرق حياة شخص آخر لأنك فقط اعتدت التسلط وأن لا شيء يرفضك، لماذا لم تخبرني بكل هذا يا «خالد»، أنا حقًا ألومك كيف تخفي عني الحقيقة كل هذه المدة، حقيقة أن ذاك الوغد قد قتلك، وهذه الفتاة التي كنت أحبها وألحقت الخراب بحياتي ولم تكتفِ بهذا بل كانت سببًا في قتلك أيضًا أخبرني..

سحب شهيقًا ودموعه تنهمر من هول الصدمة على خديه بغزارة، ثم استطرد أنفاسه وقال:

- لم أعد أعرف ما يتوجب علي فعله الآن، صارت الحياة أعقد بكثير، رحيلك كان حِملًا ثقيلًا لم أستطع يومًا تحمله يا صديقي، لكنني أعدك.. أعدك بأنني لن أترك حقك يا «خالد» حتى ترتاح روحك..

ثم أخرج زفيرًا طويلًا وهو يمسح عينيه ويستدير راحلًا قائلًا بنبرة حادة:

- لن أترك حقك، أعدك يا صديقي.

***

بدأت في فتح عينيها ببطء، الرؤية ضباب بين جفونها، لا تشعر بشيء في جسدها وكأنها ما زالت مغيبة عن

الوعي، تحاول أن تلتف برأسها لتستفيق، في عقلها تتساءل ماذا حدث، ولكن سرعان ما استشعرت أن فمها مغلق بشريط لاصق، لتفزع قليلًا عندما اتضحت الرؤية شيئًا في شيء وفوجئت بأنها مكبلة على مقعد في منتصف صالة شقتها، تحاول إصدار أي حركة، ولكنها مكبلة بإحكام، حاولت أن تصرخ بصوتها المكتوم، ولكن ما من أمل، حتى جاء الصوت من ورائها قائلًا:

- لا تحاولي إجهاد نفسك من أجل لا شيء يا عزيزتي..

ثم أتى من ورائها ناظرًا لها بشماتة في موضعها، وأكمل قائلًا:

- إنه أنا لا داعي للقلق من زوجك، أليس كذلك؟

ثم ركلها بصفعة قوية على وجهها حتى كاد فمها أن ينزف، وصاح بها:

- زوجك الذي خنتِ عهدك معه وكان وفاؤك لرجل غيره أيتها العاهرة!

فاستلقت «سارة» ركلته واستدارت بوجهها بعيدًا عنه لثوان معدودة ثم عادت بنظراتها له التي قالت كل شيء من دون أن تنطق حرفًا واحدًا، ولكنه شعر بسعادة عينيها، فجذب كرسيًا آخر كالذي تجلس مكبلة عليه، وجلس مقابلًا لها، في هيئته العريضة ورأسه الصلعاء مرتديًا بذلة سوداء، ولأغلق إضاءة الشقة جميعها، ولم يترك سوى إضاءة الشموع الخافتة التي كانت سهرتهم عليها الليلة الماضية، وقال:

- حتى لا تكوني أفضل مني، قد صنعت لكِ نفس الحالة

التي قد أعددتها إليَّ بالأمس.

تنظر له ببرود، لا خوف يبدو في عينيها كسابق الأيام التي عاشتها معه، فقط نظراتها جامدة، الشيء الذي أثار غضبه دون أن يظهر ذلك، فتجاهلها وقال وهو يحدق في عينيها متحديًا إياها:

- عندما استيقظت من نومي، اعتقدت أن عدم وجودك بجانبي لسبب أن ليلتنا الأخيرة كانت ممتعة فاستيقظتِ باكرًا لتعدي فطورًا لزوجك الذي..

واقترب منها وهو يقول :

- استمتع بامتلاكك طيلة هذه الفترة.

فبدا شعورها بالاشمئزاز أن يبدو على وجهها لكلماته ومعناها التي يقصدها، ثم أخرج علبة سجائره وقال وهو يضع واحدة في فمه ويشعلها:

- أعلم أنك تحبين ذلك لكن تحملي هذه المرة..

وأخرج زفيرًا يحمل أنفاس سيجارته في وجهها، ليثير غضبها أكثر لعلمه الجيد أنها تكرهه وتكره كل شيء منه، ثم أردف ببرود:

- لأنني أعرف عادتك من يوم أصبحنا سويًّا، استيقاظك دائم التأخر، لكن عندما نظرت في هاتفي ووجدت اتصالات هاتفية كثيرة، قبل أن أفاجأ بالساعة العاشرة وهو شيء لا يحدث إلا نادرًا فظننت أن هناك شيئًا غير طبيعي..

ثم صمت لثوان وقال وهو يحك رأسه شاردًا وكأنما

يخاطب نفسه:

- ولك أن تتخيلي رغم كل ذلك كذبت عقلي حينها وناديت عليك.. سارة تأخرتِ في إعداد الفطور.. ولكن سارة لم تجب!

ثم رمقها عائدًا من شروده ووجه كلماته لها ساخرًا:

- لك أن تتخيلي «سارة» لا تجيب..

فأعدت الاتصال بالسكرتيرة الحمقاء الخاصة بي في دار النشر الذي قالت لي وبكل بلاهة أن مدام «سارة» جاءت إلى هنا وقد سألت عليك، ثم مد يده وهو يلامس شعرها بأطراف أصابعه وقال:

- لأول مرة يأكلك القلق عليّ لدرجة أن أكون نائمًا بجانبك وتتركيني لتذهبي لمكان آخر تسألين عني به..

ابتسم نصف ابتسامة على وجهه من سخرية ما حدث، ثم سحب نفسًا آخر وقال:

- حينها فهمت إنك قد أوقعتِ «زياد الصباغ» لأول مرة، وتأكدت شكوكي عندما أعدت مشاهدة كاميرات مكتبي ورأيتك تفعلين ما دار في مخيلتي.

قال جملته الأخير وظل لثوان ثابتًا يحدق بها فقط، ثم أخرج نفسًا ومعه ركلها مرة أخرى بيده على وجهها حتى بدأت أن تنزف الدماء من فمها هذه المرة وصاح بعنف:

- فتاة مثلك أنتِ تخدعني أنا..

ما زالت نظراتها جامدة له رغم تأثرها بالركلة التي تلقتها، فمد يده بداخل جيبه ليخرج فوهة صغيرة سوداء، وهو

ينظر لها:

- لكن أتدرين.. كان هناك شيء في الخزنة أهم من تلك الأوراق التي أخذتها..

ثم ومن جانبه أخرج مسدسه وبدأ في أن يربط الفوهة بمقدمة المسدس ككاتم صوت قائلًا بانتقام:

- وقد قررت أنا أن الشيء الذي سيُدفعك ثمن من فديتي روحك به هي حياتك، أتتذكرين قلتها لكِ من قبل، لن أسمح لكِ أن تتركيني إلا وأنتِ جثة هامدة.

***

هل تسمح لنا الحياة بفرصة أخرى حقًا، أم يُخيل لنا أننا نستطيع القيام بما نقرره بها..

تعتقد أنك قادرًا على مواجهة كل شيء، الاستعداد للصدام، والوقوف مجددًا من كبوتك مهما كلف الأمر، ربما في أحيان كثيرة عقلك يتلاعب بك، يهيئ لك أنك قادر على فعل المستحيل، أن العالم كله سيكون معك لو فكرت بطريقة مختلفة، ولكن لا تنسَ أن دائمًا هناك استثناءات، هناك دائمًا شواذ لكل قاعدة، ربما تريد.. لكن الحياة لا تريد بهكذا بساطة، مهما تفعل لا شيء سيبتسم لك، وهذا أكثر ما يحطم الفرد منا بعد كل محاولاته، حتى وإن كانت ضئيلة، يكفي أنك لم تستسلم تمامًا، ولكن كيف أن اللحظة التي أردت العودة بها انقلب كل شيء على رأسي، وكأنني من أجرمت في حق الحياة، وارتكبت فعلة قبيل الأولى التي لن تغتفر، لماذا يعاقب الفرد على شيء لم يرتكبه، الحياة لم تدع لي فرصة

النهوض وعندما قررت خلقها سلبتها مني بكل قسوة وعناد، الآن لم يعد لي شيء ليبقيني على قيدها، قد قررت أن أكتب مشهدي الأخير بيدي في واقعي، اعتدت دائمًا على الخيال، أصحح وأرتب وأعيد الأحداث، ولكن هنا لا مجال للخطأ، لا مجال للعودة، لا مجال لشيء سوى أن الخطوة الأولى ربما تكون الأخيرة، لأنك حينها سيتوقف قلبك عن النبذ مرة أخرى، سحبت آخر أنفاس سيجارتي وأنا واقفًا أمام عمارتها، بعدما غلب الشحوب وجهي من كثرة البكاء، وملامحي ومظهري الذي بدوت من خلالهم كمشرد، قبل أن أنهي كل شيء، فأنا لا أحب النهايات المفتوحة والمعلقة فقد اختارت أن أنهي قصتك للابد، لأنكِ الشخص الوحيد الذي يستحق، أنتِ فقط يا «آسيا» من يستحق أن نهاية فصله لا تكون حزينة، رغم أنني لم أسبب لك إلا كل الحزن الكامن في قلبك الآن، لكنني قررت ألا أتهرب هذه المرة، كما كانت أمنيتك دائمًا..

سأواجه هذه المرة يا «آسيا» حتى وإن كانت المواجهة الأخيرة بيني وبين كل شيء، صعدت درج السلم لأنني لا أملك شيفرة المصعد الكهربائي حتى وصلت إلى باب شقتها لاهثًا، تذكرت كل شيء كان هنا بيننا في لحظة، لم نجلس سويًّا في الشرفة منذ مدة طويلة، دقت يدي الباب بحذر، ثم في الدقة الثانية جاء صوتها تتساءل من لكني لم أرد حتى استمعت لصوت رتاج الباب يدور لتفتح إذا بوجهها الذي ذهل بتعبيراته عندما رآني، قلبت نظراتها من أسفل لأعلى ومن الأعلى لأسفل، تتحقق من ذلك الشخص المشرد الماثل أمامها، ثم وبدون رحمة لم اعتادها

منها قالت بعدوانية:

- ما الذي أتى بك إلى هنا..

فقلت وأنا في موقف لا أستطيع شرحه:

- «آسيا» أناا...

قاطعتني قائلة بنبرة صارمة:

- لا أريد أن أستمع لشيء منك، إن لم ترحل من هنا سأطلب لك الشرطة.

قالتها وهي تغلق الباب لكنني مددت ذراعي وأمسكته بقوة:

- لن أرحل يا «آسيا» لن أتهرب ككل مرة كنت أفعل بها، سأواجه هذه المرة، وصدقيني هذه المرة الأخيرة الذي سترينني بها..

فتأففت قائلة بنبرة غاضبة:

- لقد سئمت منك يا «ياسين».

ثم تنهدت بحسرة وقالت وعيناها تلمع بحزن مكبوت داخلها:

- سئمت منك ومما سببته إليَّ من ألم لا أعرف كيف أتعافى منه، أرجوك ارحل من هنا لم أعد أريد المزيد.

فبجراءة مني لم أتردد بها دفعتها إلى الداخل ودلفت وراءها وأغلقت الباب وقلت:

- اسمعيني يا «آسيا» أرجوكِ أعلم أنك أكثر شخص أراد لي الخير ولم أفعل به سوى كل شيء سيئ، أعلم أنني

كنت أسوأ من كان في روايتك، أعلم مدى وقاحتي بالنسبة لكِ، ولم آتِ إلى هنا لأصلح موقفي صدقيني أنا فقط أتيت لأطلب منكِ أن تسامحيني على ما اقترفته في حقك، وأنتِ من كان يستحق أن أفعل معه كل الخير، وإن ما رأيته كانت لحظة لم أدرِ بنفسي بها إلا في لحظة ما رأيتك..

ما أصعب لحظة التوسل، لا الاعتذار يصلح ما قد هُدم، ولا ينجو المرء من شبح الندم، فبدأت عيناها أن تمتلئ بالدموع، تبكي على حالها، وتشعر بمرارة حلقها الذي يريد أن يدفع دموعها للانهمار، ثم قالت بصوت مرتجف:

- أسامحك..

هزت رأسها مبتسمة بخيبة:

- حقًا الآن تأتي بعد كل هذا تقول أسامحك بهذه البساطة؟

ثم هزت رأسها مرات متكررة وهي تكرر الجملة ذاتها وقالت ودموعها بدأت في أن تتساقط:

- لعلها كلمة يا «ياسين» أنت الذي يعرف معنى الكلمات جيدًا..

ثم تنهدت وأردفت قائلة:

- لعلها كلمة تنطق لكنها لا تعي أي شيء من الحقيقة، كلمة لن تداوي ما فعلته بي، لن تشفى آثار الندبات التي سببتها لي، ولن تداوي جرحي المرير منك..

فبدأت عين «ياسين» في أن تلمع بدموع لم تتوقف منذ

الصباح وهو ينظر لها، حتى قالت «آسيا» بطريقة شخص لا يقوى على شيء:

- إذا أنا سامحتك يا «ياسين».. الآن ارحل.. ارحل وأنا قد سامحتك لا داعي للوقوف هنا الآن.

قالتها وهي تحاول دفعة بيدها لكنه لم يتحرك من مكانه ثم أمسكها من يدها بإحكام وجذبها إليه بكل قوته وهو يقول بصوت يبكي:

- أنا آسف يا «آسيا».

لتحاول «آسيا» التملص والإفلات من بين يديه وهي تركله في صدره بعنف منها وتبكي قائلة:

- اتركني، اتركني يا «ياسين» لم يعد لدي شيء من «آسيا» التي عرفتها، اتركني.

قالتها وهي تصيح وما زالت تحاول التملص منه لكنه لم يحرك ساكنًا وهو يحاول عناقها بقوة لتبدأ في أن تهدأ وتسمح لنفسها بالبكاء قائلة:

- لماذا فعلت بي هذا لماذا، وكيف بعد كل ذلك الحب الذي منحته لك!

قالتها وهي في حضنه، يمشي بيده فوق رأسها يواسيها حتى جلسا مكانهما على الأرض، تبكي بحسرة ويحاول تهدئتها، حتى قال بصوت خافت وهي ما زالت متكئة على كتفه:

- أعدك أن «ياسين» سيلقى جزاءه على ما فعل بكِ يا «آسيا» فأنتِ لا تستحقين أي شيء مما حدث لك بسببي..

تنهد ولا تقول شيئًا، فقط مكتفية بإتكائها عليه كطفلة

صغيرة التقت بحضن أبيها أخيرًا بعدما تاهت عنه لسنوات، ثم مد يده ليمسك يدها وقبلها من كفها قائلًا:

- الشرير الذي أطفأ الوردة سيلقى حتفه يا «آسيا» فقط أردت أن أخبرك لترتاحي باسترجاع حقك ولو قليلًا فيما بعد، فلم تفهم ما يقصد لكنها لم تسأل أيضًا، ثم بعد ذلك نهض من جلسته معها وهي ما زالت أرضًا متكئة على ركبتيها تبكي، ثم قال لها بصوت واضح وهو خلفها دون أن تستدير له:

- ربما سيدون ذلك العناق أنه أجمل عناق وداعي قد حدث في التاريخ يا «آسيا» سامحيني..

وتركها ورحل بعدم استمعت لباب شقتها يغلق من خلفها فنهضت مسرعة من مكانها لتنظر عليه من شرفتها وإلى أين يتجه ثم سريعًا ما مسحت وجهها وقررت أن تنزل خلفه بعد كلماته التي أثارت قلقها تلك، فالمحب حقًا لا يعرف أن يتغاضى عن رؤية من يحبه في مأزق ويتركه، حتى وإن سبب له أذى العالم كله، واعتلت سياراتها بعدما قادتها خلف سيارة الأجرة الذي اتخذها «ياسين».. وهي تخرج رقم «سلمى» من هاتفها وتقرر الاتصال بها.

***

30

«قبل أن تخطو خطوتك فكر، فربما قد يكون فخًا أعدته الحياة لك»!

***

- لكل شيء نهاية يا حبيبة الكاتب لكن كي لا أكون قتلتك قهراً..

قال تلك الكلمات ممسكًا بالمسدس، ومد يده الأخرى ليزيح اللاصق عن فمها، وأكمل كلماته وفي عينيه نظرة التشفي من حالها الخاضعة به أمامه:

- سأتركك تقولين ما في قلبك قبل أن ترحلي للأبد.

ظلت صامتة لثوان، وكأن لم يحدث شيء بها، ثم وهي ترمقه بنظرات ثابتة قالت:

- أتعلم.. لم تكن في عيني رجلًا يومًا، حتى في أول الأيام التي التقيتك بها، كان هناك شيء داخلي يلومني ويؤرقني على فعلتي، لكنني كنت حمقاء لأنني اتخذت قرار بأن أترك لأبله مثلك كل هذه المساحة التي تسللت أنت منها وحدث كل شيء وكأنني كنت مغيبة غيبة طويلة لم أستفق منها إلى بعد ما وقعت كل الكوارث الممكنة، لكن..

حدقت ثواني به ثم ابتسمت وقالت بنبرة أكثر ثبات:

- هذه المرة الأولى التي أشعر أنني حرة بها، حرة لأول مرة منذ أكثر عامين، لست مجبرة على أن أصمت أمامك، لست خائفة منك ولا من ذلك المسدس الذي ستقتلني به

بعد لحظات، لكن ثق يا «زياد» أنني سأحيا بذاكرتك، لعنة لن تستطيع النوم في كل ليلة بسببها في مخيلتك، أنا الآن أشعر بتلك الراحة التي بحثت عنها منذ زمن، لأنني دفعت ثمن ما ارتكبت في حق «ياسين» وقد حررته من يدك، ليحدث الآن ما يحدث إذًا، لم تعد الحياة فارقة إليَّ في شيء..

ثم اقتربت برأسها وهي محدقة في عينيه وكأنها تتحداه بكل جراءتها:

- بعدما خسرت الرجل الوحيد الذي لم يملأ عيني غيره.

كانت كلماتها أشبه بالأسهم التي قررت بأن تلقيها بعشوائية في حرب خسرتها منذ البداية.. وأكملت قائلة:

- وأتيت إلى هنا بكامل إرادتي كي أشبع رغبتي بالشماتة بك فقط يا «زياد»، حتى وإن قتلتني بعدها، يكفيني أنني فعلت ما قصدت، وقتلتك بكلماتي وفعلتي تلك التي سيكون أثرها أقوى من مئة رصاصة أطلقتهم بمنتصف رأسي.

قالتها بنبرة أشبه بإعلان الحرب، فهز رأسه كعادته وهو يجز على شفتيه، وفي عينيه لهيب ألمٍ لا يريد أن يبدو عليه من حقيقة كلماتها، ثم استنشق نفسًا طويلًا ملأ به صدره بصوت عالٍ، وقال وهو ينظر إليها موجهًا المسدس إلى رأسها وعلى وجهه نصف ابتسامة مستميتة:

- اذهبي إلى الجحيم أيتها العاهرة..

وفي اللحظة ذاتها التي يضغط ببطء بها فوق زناد المسدس وقع الباب منكسرًا من شدة دفعة «ياسين» الذي دلف

إلى الداخل راكضًا في حالة تهور نحوه وهو يصرخ به قائلًا:

- كيف لك أن تفعل كل ذلك بي؟

بصوت علا، كاد أن يسمع جميع المارة بالطريق، واندفع عليه في مفاجأة لـ«زياد» غير متوقعة في تلك اللحظة وصدمة «سارة» التي كانت تودع الحياة الآن مما حدث وكأنه أشبه بمشهد درامي أم أنها تهلوس في عقلها وتتمنى ما يحدث لينقذها لكنها استعادت وعيها سريعًا والذعر قد ملأ عينيها من قوة ركلة «ياسين» في وجه «زياد» ليسقطه أرضًا، وينهال عليه ضربًا في وجهه وهو يصيح بكلمات متقطعة تعبر عن غضبه وألمه واحتراق قلبه، يبكي وهو يركله في وجهه حتى أصبح وجه «زياد» مغطى بالدماء، فصرخ «ياسين» وهو ما زال منقضًا عليه:

- كيف لك أن تفعل كل ذلك بشخص اعتبرك صديقه.

وبدأت عيناه في أن تبكي، ويلتقط «زياد» أنفاسه في اللحظة ذاتها بصعوبة بالغة، و«سارة» المكبلة على المقعد تحاول استيعاب تلك ما يحدث أمامها وبدأت في البكاء على حال «ياسين» الذي جلس أرضًا يبكي كطفلٍ صغير لثوان، ثم نظر بجانبه ليجد المسدس ملقى، فنظر له بجمود، و«سارة» تتابع نظراته فبدأت أن تصيح به قائلة:

- لا يا «ياسين» أرجوك لا لا تضيع نفسك لا تستمع لما يخبرك به عقلك الآن.

لا يستمع لأي كلمات تقال، الدموع في عينيه صنعت

رؤية ضبابية، ومعها يتذكر ابتسامة «خالد»، فتبدأ دموعه في الانهمار مرة أخرى، حت كسر صمته هامسًا بصوت مسموع:

- لن أترك ثأرك يا «خالد»، لن اتركه يا صديقي..

اقترب من المسدس، و«سارة» تبكي بحرقة حقيقية:

- لا يا «ياسين» أرجوك يا حبيبي لا تلوث يدك بالدماء، لا تضيع نفسك.

يتذكر كل ما حدث، جلساته وأيامه في رفقة «خالد»، خبر وفاته عندما جاءه في الهاتف، ثمة ذكريات إن هاجمتك في لحظة أنت لا تملك بها في نفسك فمن الممكن أن تؤدي بك إلى الهلاك، لكنه ليس هلاكًا، إنه حق صديقي، أمسك المسدس بيده، ونهض من مكانه، ثم وجهه نحو وجه «زياد» المستلقي أرضًا لا يقدر على أن يحرك ساكنًا، لكنه يرى، ويشعر أن النهاية الذي وضعها منذ قليل كانت نهايته هو وبنفس المسدس، رفع «ياسين» يده مصوبًا نحو رأسه، وتوقفت عينيه عن ازدراف دموعها، بعد أن مسحها بيده وهو يسحب شهيقًا يعبر عن الحمل الذي يشعر به فوق صدره، ثم قال وهو يحدق في عيني «زياد» وما زالت «سارة» تبكي وتحاول التحرر من قيودها لتنقذ «ياسين» مما كاد أن يرتكبه الآن:

- أنت أخذت مني الصديق الذي لم أعرف كيف أصادق بعده أحدًا.. لم اعرف أجلس مع شخصًا مثلما كنت أجلس معه، أنت سلبت مني الأخ الذي لم تلده أمي، لكن وهبته الحياة لي، سلبته أنت بكل قسوة منك،

ولم تكتفِ بهذا.

ثم وبصوت مكتوم قال:

- فقد سلبت مني الذي لم يحب قلبي غيرها.

فشعرت «سارة» بنيران في قلبها لكلمات «ياسين» وهي تقول ببكاء:

- أرجوك يا «ياسين» استمع إليّ، انظر إليّ.

فتجاهل كلماتها الذي لم يستمع لها من الأساس، وقال وهو يضغط على زناد المسدس ببطء قائلًا:

- لكنني سأسلب منك أنت عمرك الآن.

قالها وهو يزيل الكاتم الذي وضعه «زياد» قبل قليل، وقال وهو يشير له بإصبعه بعد أن أخرج زفيرًا بنبرة تنبيه واضحة:

- ولن أفعل ذلك بصوت مكتوم، لأنني سأفتخر دائمًا أنني لم أترك شخص مثلك يحيا في هذا العالم بعد اليوم.

علا صوت «سارة» صارخة بكل قوتها في اللحظة حينها وهو يطلق الرصاصة دون تردد:

- ياسيييين!

لتخرج الرصاصة من المسدس محدثةً ضجيجًا عاليًا اخترقت الأرض بجانب رأس «زياد» الذي التقط أنفاسه مستريحًا بعدما جثا «ياسين» على ركبتيه باكيًا واضعا المسدس بين قدميه مطأطأ الرأس في اللحظة التي دخلت بها «سلمى» و«آسيا» فزعتين، والشرطة خلفهما انتشرت في أرجاء المكان.

***

ما قبـل النهايــة!

بعد مرور بضعة أشهر..

ربما الحافة التي اعتقدت بأنها نهايتك..

كانت مجرد درجة في سلم نجاحك؛

كل ما كنت تحتاج إليه حينها

أن تعود للخلف وتعيد النظر للأمر من جديد قبل اتخاذ قرارك الأخير.

31

«ربما عليك أن لا تغلق الصفحة قبل أن تقرأ السطر الأخير».

***

يقف «ياسين» على خشبة مسرح التكريم، مرتديًا بذلة سوداء أنيقة، بملامح مبتهجة، ونظارة طبية، جعلته أكثر أناقة، ولحية محددة أعطته طابعًا مميزًا وجعلته في حالة أكثر وقارًا، في حضور كبير يسقف له بعدما قالت مقدمة الحفل بنبرة عالية ترحيبية:

- رحبوا معنا بالكاتب الذي عاد من بعيد ليعتلي القمة مرة أخرى بعد غياب كل هذه السنوات، رحبوا معنا بالكاتب «ياسين الشافعي»..

هدأ تسقيف الحضور قليلًا ليبتسم «ياسين» ويقف أمام الميكروفون الداخلي للقاعة قائلا بتردد:

- احمم.. اعذروني قبل أن أتكلم في الأمر الروتيني كأي شخص يفوز بجائزة، أريد أن أتكلم الليلة في موضوع أهم..

فابتدأوا أن يعيروا لهم انتباههم كاملًا، ليقول بترقب:

- بالطبع الجميع يعلم بتلك القضية الشهيرة التي كنت أنا متورطًا بها منذ شهور قليلة، وكانت حديث الساعة حينها، الحقيقة ليس لدي ما أقوله بخصوص ذلك الشأن، لكن في هذه اللحظة بالتحديد تذكرت عدة دقائق في الماضي إن كنت اتخذت بها تصرفًا معاكسًا.. لما كان تصقيفكم إليّ

يعتلي الآن، ولكنها كانت ستكون لعنات، وربما أكون مجرمًا في نظر الجميع، لحظة واحدة كانت فارقة في كيفية تزجيه مسار حياة شخص بدلًا من أن يسلك طريق الاتهام إلى طريق النجاة والشرف والفخر..

قلب نظراته بين الجميع ثم أخرج زفيرًا وعاد لانتباهه وأكمل:

- أردت أن أقول لكم أن دائمًا ما تضعنا الحياة في اختبارات قد يكون الحل الوحيد حينها والذي نرغب به نتيجته الإخفاق والفشل الذريع، لذلك من الأفضل دائمًا أن نفكر في عواقب ما قد نختاره وإلى أين سيؤدي بنا..

ثم سحب شهيقًا وأخرجه بهدوء وقال وهو يبتسم بثقة:

- ورغم أنني أعترف أن في تلك اللحظة لم أستمع لصوت عقلي، ولا صوت قلبي، ولا صوت أحد، ولكن صديقًا عزيزًا، لم يعد بيننا الآن هو ما قد رأيت أن حقه سيهدر إن فعلت ما أريده، لذلك تراجعت في اللحظة الأخيرة.. وصديقي هذا أريد أن أعلمكم به جميعًا ودائمًا ما كان ملهمًا إلي حتى بعد وفاته هو «خالد» الذي أهدي لروحه هذه الجائزة، عن رواية قررت أن أخرجها بشكل مختلف هذه المرة، تظهر الوجه الحقيقي لكل شيء نراه من الخارج فقط لكن في باطنه لا ندري بحقيقته القاسية التي تخبئها عننا، لذلك أسميتها «ما وراء الكواليس» لأنك إذا أردت أن تعرف الحقيقة حقًا، فلا تدع تركيزك على ما هو ظاهر لك، ولكن وجه تركيزك على الكواليس، فيتبين لك كل شيء بوضوح.

تعالت بعض الصفقات قليلًا، ليبتسم أكثر وهو ينظر تجاه أمه الحاضرة، وبجانبها «آسيا» و«سلمى» مبتسمين جميعهم إلى «ياسين» بفخر، ثم قال وهو ثابت بنظراته عليهم:

- وفي لحظة ما عندما يطاردك الماضي بها ويذكرك بخسارتك المريرة، تقبل ذلك كي لا تضاعف خسارتك بما تملكه في وقتك الحاضر، فليس كل ما نريده سنمتلكه، لا بد أن تكون قصتنا غير مكتملة، لا بد أن ينقصنا شيء، لكن الأهم هو تقبلك لذلك، ولن يكتمل شعورك بما ينقصك إلا بتقبلك.

وقبل أن أختم كلماتي أريد أن أشكر ثلاثة أشخاص أحضرتهم إلى هنا.. أمي و«آسيا» و«سلمى» لأن هم من رأوا «ياسين» على حافة الانهيار، يلتقط أنفاسه الأخيرة؛ وكان لا بد أن أثبت لهم الليلة أن حافة الانهيار قد أصبحت درجة في سلم رحلة نجاح «ياسين» وأحب أن أختتم كلماتي لنفسي وإليكم جميعًا أن رؤيتك للمأزق الذي وقعنا به، ربما ضعه القدر في طريقنا ليكون الحل الوحيد لدفعنا إلى الأمام، وفي النهاية شكرا لكم.

تعالت تحيات الجميع لكلماته وبين دموع «آسيا» و«سلمى» وقبل أن يهبط من على المسرح، نظر في آخر الممر ليرى «خالد» يقف بين الحضور ويسقف له بكل فخر، فابتسم له «ياسين» ليلوح له «خالد» مودعًا ويعطيه ظهره خارجًا من القاعة، في إشارة شعر بها «ياسين» أن صديقة الآن قد نال راحته، وبعدها اتجه نحو أمه في سرعة ليحتضنها بقوة، وكأن ذلك العناق الذي كان في احتياجه منذ أعوام قد

تلقاه الآن، تدمع عينيه، ويتذكر حفلته الأولى التي كانت «سارة» هي فقط من ساندته وبجانبه، والآن لم يعد وجود لها، ثم رمق «آسيا» بنظرة حانية وعانقها بكل الحب الذي يكنه لها في قلبه.. ثم قال لها أمام «سلمى» و«أمه»:

- لولا وجودك أنتِ وسلمى لم أكن هنا الآن في تلك اللحظة..

فركلته «سلمى» في كتفه وقالت مازحة:

- في حقيقة الأمر قمت بإبلاغ الشرطة من أجل القبض عليك أنت لكن من حسن حظك أن «زياد» اعترف بكل شيء، فشرد «ياسين» لثوان وهو يتذكر حديثه مع «سارة» التي قالت له بعد أن أخي سبيلهما:

- الآن قد انتهى «زياد» من قصتنا للأبد يا «ياسين»..

فنظر لها مستطردًا وقال وهو ينظر لها بجمود:

- تقصدين قصتك أنتِ وحدك.

ثم تنهد وأكمل بلامبالاة:

- ورجاء من هذه اللحظة لا تجمعيني بقصتك مرة أخرى، فلم يعد هناك شيء صالح بيننا يا «سارة»، لتتعايشي حياتك وتنسي أمري تمامًا من الليلة لا أريد أن أراكِ ثانية.

فأوقفته «سارة» عن الحديث بيدها وقالت:

- «ياسين».. صدقني أنا أحبك.

فأسقط يدها من على كتفيه وقال وهو يرحل:

- وأنا لن أترك «آسيا» مرة أخرى.

عاد من شروده على صوت «آسيا» وهي تناديه بصوتها الرقيق:

- «ياسيين»..

فرد مداعبًا إياها وهو يبتسم:

- لتأمريني يا أميرتي.

ثم خطف نظرة كاملة عليها:

- الفستان جميل، أم لأنكِ ترتدينه فيبدو جميلًا بهكذا طريقة، لم أرَ أجمل من هذه الطلة منذ مدة طويلة حقيقةً..

فابتسمت «آسيا» بخجل من كلماته ليوجه «ياسين» نظراته لأمه قائلًا:

- ألن يحين الوقت لنجعله فستان زفاف يا أمي، لقد التقيت بمن أرادها قلبي زوجة لي أخيرًا..

فضحكوا سويًّا وهنأته أمه التي كادت أن تعبر عن فرحتها بصوت عالٍ لكنها انتبهت لأنهم ما زالوا بالقاعة وسط الحضور، لتقول «سلمى» كلماتها بحب إليَّ «آسيا»:

- ألف مبروك يا صديقتي.

وعانقتها بحرارة شديدة، ثم قالت لـ«ياسين»:

- مبروك أيها المتمرد، قد حييت لليوم الذي رأيتك ستتزوج به، لكن عليك الآن عزومتان ولن أدعك تتهرب منهما واحدة بمناسبة الجائزة وواحدة لزواجك من «آسيا» فضحك ورد عليها بودٍ:

- إذًا لننفذهم الاثنتين سويًّا الآن.

ليضحكوا جميعا ويقرروا الرحيل بعدما ظهرت فتاة خلفهم، ثابتة بنظراتها عليهم، مرتدية فستانًا أسود كانت في جانب قاعة الحفل، مساحيق التجميل غيرت ملامحها بعض الشيء، لكنها تبقى «سارة» للذي يعرفها جيدًا، وفي عيناها رغبة انتقام غير عادية، وهي تخرج من حقيبتها الصغيرة التي تحملها مسدسًا.. صوبته ناحية «آسيا».

النهاية

انتهت...

تمت بحمد اللّه

المحلة الكبرى - سبتمبر/ 2023

شكر خاص..

في بداية الأمر أردت أن أوثق بيني وبينك عزيزي القارئ أنني طالما حلمت بتلك اللحظة التي يكون لي عمل بها بيني يدي القراء فذاك هو الشيء الأجمل في هذا العالم أن تكتب في مكان ويقتني روايتك شخص يقرؤها في مكان اخر.. فأتمنى من الله بعد وصولك إلى هنا أن أكون قد وفقت في كتابتها وقد لمست شيئًا فيك؛ وشكرًا لك على تحملك لي طيلة هذه الرحلة بيننا..

أود أن أشكر عائلتي الصغيرة أمي وأبي وإخوتي «سيف» و«أمير» الذي لا أملك أغلى منهم في عمري وكنت محظوظًا بهم كعائلة في حياتي..

شكرًا لكِ يا أمي على إيمانك ودعمك لي دائمًا في كل وقت ما كان به سواكِ يدفعني إلى الأمام..

شكرًا لتلك الصدفة التي عرفت من خلالها عالم القراءة وكانت سببًا في اقتناء أول كتاب في حياتي ومن خلاله أدركت معنى الكلمة واختارت أن تكون سلاحي الذي أعبر به عن كل ما يسري داخلي دائمًا..

شكرًا لكل صديق وكل قارئ لي كان مؤمنًا دائمًا بي وبكلماتي.. وسمح لي أن أكون صاحب أثر ولو بسيطًا في حياته

شكرًا لصديقي/ عبد الرحمن حسني الذي شاركني حمل هذا الحلم والسعي وراء شغفي دون انتظار أي مقابل ومن أجل فقط أننا أصدقاء.. أردت أن أقول لك منذ الطفولة وإلى الأبد يا صديقي أتمنى دائمًا أن نكون معًا.

وإلى رفيقة الرحلة «فرحة» التي أرهقتها معي خلال كتابة تلك الرواية ومراجعتها معي ودعمها الدائم لي دون أن تمل من تقلباتي المستمرة.. والتي صنعت لي في حياتي وصفًا من اسمها دون أن تدري.

شكرًا من القلب لكم، وأهديكم جميعًا مولودي الأول وأغلى ما أملك.

مازن محمد

للتواصل مع الكاتب من خلال حساباته الرسمية:

instagam: @mazen.m.20 / @mazzen.wr

Facebook: https://www.facebook.com/Maz.d20

Telegram: https://t.me/Mazenmhmd

Facebook page: https://www.facebook.com//MAZEN.Wr

جميع الحقوق محفوظة لدا: مكتبة ضَـاد، الإلكترونية. ©

تمّ تجهيز هذه النسخة بواسطة:

أشرف غالب.